



أيام الماعز



ترجمة

سهيل الوافي

أيّـــامُ الماعز

أيّـــامُ الماعز

لـ «بينيامين»

ترجمة:

سهيل عبد الحكيم الوافي



مكتبة أفـاق 2021م

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Goat Days

حقوق الترجمة العربية مرخصّ بها قانونيًا بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بين مكتبة آفاق والناشر الأصلي Copyright © by Penguin India

.by Aafaq Book Store, Kuwait 2014 © Arabic Copyright

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813 الوافي، سهيل عبد الحكيم.

أيّامُ الماعز/ سهيل عبد الحكيم الوافي - ط1. - الكويت: آفاق للنشر والتوزيع، 2014

218 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك : 0 - 376 - 78752 - 1 - 978

1. القصة العربية - الكويت أ. العنوان

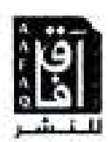
رقم الإيداع: 090 / 2014

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى: 1435 هـ / مارس 2014 م

الطبعة الثانية: 1436 هـ / مارس 2015 م

الطبعة الثالثة: 1442 هـ / 2021 م



Tel.: +965 22256147 - Mob.: +965 51000197

P.O.Box: 20585 Safat - Postal Code: 13066 Kuwait

info@aafaq.com.kw

www.aafaq.com.kw

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أ. التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

"هذه الرواية مستوحاة من أحداث حقيقية"

1

وقفت أنا وعبد الحميد طويلًا آيسين أمام مركز الشرطة الصغير بالبطحاء، كان هناك شرطيان في كشك الحراسة بجانب البوابة، أحدهما يقرأ، وتوحي جلسته وهزات رأسه وعيناه شبه المغمضتين أنه يقرأ كتابًا دينيًا، أما الثاني فيتكلم في الهاتف، يسمع الواقف هنا في الطريق حديثه وضحكاته، وهما في عالمين مختلفين وإن كانا يجلسان متقاربين، وكلاهما لا يكترث بنا.

وهناك - غير بعيد عن كشك الحراسة - شجرة تمتد أغصانها على الطريق. قعدنا القرفصاء على الأرض تحت ظلها آملين أن ينتهي أحد الشرطيين من عمله فيلتفت إلينا. بقينا هكذا لفترة طويلة. وبينما نحن كذلك، دخل اثنان من العرب بخطى مسرعة إلى المركز فيما خرج منه ثلاثة أو أربعة على الأقل، متغافلين. ولم يكن هناك شيء يدعوهم إلى الاكتراث بنا. وفي تلك الأثناء ظهرت سيارة للشرطة تخرج من سور المركز، فانتفضنا قائمين رجاء لفت أنظار من فيها إلينا، ولكنها أوغلت السير في الطريق الرئيس بعد أن توقفت هنيهة تتأكد من المرور. فعدنا خائبين نتكئ على جذع الشجرة.

وكلما ظننا أن شرطي الهاتف أنهى مكالمته، مشينا بكل رجاء إلى الكشك دونما فائدة، فنجده يخوض في مكالمة جديدة دون أن يدع لحظة تفوته. أما الآخر فلم يزل منهمكًا في قراءته التي لا يكاد يفرغ منها أبدًا.

وفي محاولة للفت انتباههما، قمنا نتمشى جيئة وذهابًا أمام كشك الحراسة، ولكنهما لم يعيرانا التفاتًا ولم يلقيا إلينا بالًا.

لقد سمعنا كثيرًا في هذه الأيام عن هؤلاء المساكين الذين اضطرتهم الأسباب إلى الخروج بلا بطاقة ليتم إلقاء القبض عليهم من المرافق العامة والأسواق ومن أمام المساجد ومن ثم نقلهم إلى السجون. وفي الوقت نفسه، ها نحن ذا نتسكع بدون بطاقة في أسواق السمك والخضار والأماكن العامة بالبطحاء ولا نريد بذلك إلا أن نلقى نفس مصيرهم!

وكم من «مطاوعة»[1] قد مروا بنا ولم يمنعوا طريقنا!

وكم من مرة فوجئنا بأنفسنا أمام رجال الشرطة ولم يسألونا عن شيء!

وما أكثر هيامنا على وجوهنا حول المساجد بدون أن ندخلها لنشارك في صلاة الجماعة القائمة! ولم يقف الأمر عند ذلك بل تظاهرت مرة بالتعثر بقدمي شرطي كنت أمر به، فلم يكن منه إلا أن أخذ بيدي يرفعني ملتمسًا العفو لوجه الله ثم أطلق سراحي دونما «رحمة»! أليس من المؤلم ألا يسعدنا حتى سوء الحظ حينما نكون في أمس الحاجة إليه؟

ولما أعيتنا الحيلة، قررنا أن نقف أمام هذا المركز ولكن دونما جدوى. وحينما طال بنا الوقوف، اتفقنا على دخول المركز مجتازين حارسي الكشك. وما إن اقترح عبد الحميد هذه الفكرة حتى أخذت في المشي كأنني كنت أنتظرها، فلم يعد في قوس الصبر منزع. ولم نتجاوز حديد البوابة الطويل حتى دعانا الحارس الأول من الوراء رافعًا عينيه عن الكتاب. رجعت إلى الكشك وأخبرته أننا نريد لقاء المدير. أشار إلينا بالدخول وسرعان ما عاد إلى كتابه. وبعد صعود الدرج الطويل، دخلنا إلى المركز من باب نحتت عليه آيات من القرآن الكريم. وداخل المركز، كانت لوحة الإعلانات، التي علقت عليها أوراق للزينة ، وتحتها جماعة من الشرطة تحلقوا لأكل الخبز وشرب

---

(1) رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمملكة العربية السعودية.

القهوة، متجاذبين أطراف الحديث بأصوات عالية. وقفنا مرتبكين بجانب الدائرة. خارجًا عن خيط الحديث، نحى[1] إلينا واحد منهم بصره، وقطب حاجبيه بالاستفسار وهو مستمر في الأكل. حركت يدي مومئًا بأننا لا نجيد اللغة. فقام إلينا شرطي آخر حاملًا في يده كوب القهوة وطلب منا البطاقة (نعم! أخيرًا وجدنا واحدًا يطلب منا البطاقة). هززنا رؤوسنا صاغرين تعبيرًا عن عدم وجودها معنا، فوضع الكوب على الطاولة واستخرج من درجها نشافة، مسح بها يديه وشفتيه ثم مشى إلى الداخل بعد أن أشار إلينا بمتابعته.

قادنا إلى مكتب المدير الذي نظر إلينا رافعًا وجهه عن الكمبيوتر وهو يستمع إلى الشرطي ثم سألنا عن أمور، غير أننا لم نظهر أية علامة على أننا نفهم اللغة. وما كنت مدعيًا للجهل؛ لأنني فعلا لم أفهم من حديثه مع الشرطي ولا من أسئلته إلا القدر اليسير، ولكن عبد الحميد كان يتجاهل في الحقيقة، فقد سمعته يتكلم العربية بكل طلاقة من قبل.

بينما استمر المدير والشرطي في الحديث كنت أهيم بنظري في أرجاء الغرفة، كان مكتب المدير غرفة واسعة علق على جدرانها لوحات الملوك والكعبة وآيات من القرآن الكريم، وهناك جهاز تلفاز إلي يساره، والكمبيوتر إلى يمينه، وفي الناحية الأخرى أريكتان مطروحتان مع ترابيزة عليها مزهرية فيها أزهار بلاستيكية. وعلى الجدار المقابل لوحة كبيرة عليها صور. ألقيت النظر إليها بدون قصد.. أشخاص ملتحون تشبه عيونهم عين السمك الميت، ورجال سود في أقمصة عربية، وأفارقة ذوو عيون ثاقبة ولحى تشبه لحية التيس. وتحت كل صورة تعليق بالعربية، لا بد وأن تكون تلك أسماؤهم. لبثت أنظر هكذا إلى أن تعثرت عيناي بالصورة الثالثة من السطر الرابع.

---

(1) نحى بصره: أماله

تجمدت عيناي عليها وكأنهما قطعتان من الثلج. هززت رأسي وأعدت النظر بمجامع عيني.. تزايدت ريبتي.. تثاقلت نبضات قلبي.. وانتابني خوف لا عهد لي به من قبل.. ولإزالة الشك، وجدتني اقترب من اللوحة من دون أن أشعر.. إبراهيم القادري..!! وضعت يديّ على صدري في هلع بدون إرادة مني.

«ماذا..؟ هل تعرفه..؟» بادرني الشرطي بالسؤال.

ارتبكت.. ارتعشت من الخوف.. تغيرت تعابير وجهي بشكل أصبح مكشوفًا للجميع.. إلا أنني نفيت معرفته بهزات رأسي. دعاني المدير إليه، وما إن أتيته حتي انتفض واقفًا، صافعًا إياي صفعة تجمع بين خدي وأذني. آه... ريح ساخنة من فرط الوجع خرجت من أذني الأخرى.

«لماذا نظرت إلى الصورة إن لم تكن تعرفه؟» صاح المدير.

أطرقت رأسي دون أن أجيب عَنْ أسئلته المتواصلة باللغة العربية، فتركني بعد أن منحني لطمة أخرى واستراح في كرسيه. ما بكيت قط في حين بكى عبد الحميد، الأمر الذي أنقذه من الصفعات.

وبعد أن تلقّى الشرطي أوامر من المدير، أخذنا إلى غرفة أخرى وانصرف بعد أن وكّل بنا شرطيا آخر. فتح الأخير الدولاب واستخرج منه القيود ووضعها في أيدينا ثم أمرنا بالجلوس على مقعد في الغرفة التي فيها أربعة أشخاص مقيدي الأيدي مثلنا. وما أدري لماذا ارتسمت في وجوههم نفس الفرحة الغامضة التى لاحت على وجوهنا؟ وبعد الظهر، فكوا قيودنا ونقلونا إلى إحدى الزنزانات.

كنا ستة أشخاص في زنزانة لا تتسع إلا لثلاثة جالسين. وأتذكر أنه كان من بينهم رجل من «كيرالا» يدعى «كُمارْ»، كانت قصته مختلفة عن قصتنا، كان يشتغل في أحد محال الخضار، اتهمه كفيله بالسرقة وأودعه السجن.

والآخران كانا من العرب. وأما الرابع فكان باكستانيًا. ولم نعلم شيئًا عن الجرائم التي نسبت إليهم.

وبتنا ساهرين تلك الليلة بسبب تلك الجلسة المؤلمة كما لو كنا في قطار متكدس بالركاب. وأصبح الحال أسوأ على الآخرين بعد ما مد العربيان أرجلهما على راحتهما. رغم ذلك كله ما رأيت الزنزانة الضيقة إلا جنة رحبة مقارنة بالحياة التي سبق أن عشتها.

وبعد الشاي في صباح اليوم التالي، وضعوا القيود في أيدينا مرة أخرى ثم حمّلونا في سيارة ذهبت بنا إلى الخارج. وكان فيها آخرون، مقيدين مثلنا، انتهزوا الفرصة للتعارف والتحادث وحكى بعضهم لبعض ملابسات الجرائم المنسوبة إليهم. وانضم إليهم عبد الحميد في حين جلست مطرقًا رأسي.

وبعد أن قطعتْ مسيرة طويلة، وقفت سيارتنا داخل حرم سجن «الشميسي»، أكبر سجن في المملكة. لم تزل السيارات من مختلف أنحاء البلاد تدخل إلى فنائه دون انقطاع، يتدفق منها مئات «المجرمين». مر بذاكرتي لحظتها – مع أني لم أعثر على رابط يربطه بما يجري– منظر من قاعة الزفاف في بلادنا.. يصل أقرباء العريس وينزلون من سياراتهم في فناء القاعة وعلى وجوههم آثار التعب من السفر الطويل. وها أنا ذا اليوم كواحد منهم في هذا الفناء!

أنزلونا من السيارة وساقونا إلى مكتب مسؤول السجن الذي ازدحم حوله حشد من الناس الجائين والذاهبين بمن فيهم رجال الشرطة والمحامون و«المطاوعة» وغيرهم من العرب. كان مكتبه للوهلة الأولى أشبه شيء بممر المحكمة في بلادنا. وكان أمامه طابور طويل جدًا، التحقنا بآخره في حين

استراح رجال الشرطة الذين رافقونا، لاجئين إلى ظل في الممر على بعد يسير منا. دخل واحد بعد الآخر.. بكل بُطْءٍ دبّ الطابور إلى الأمام. وعلى الرغم من علمي بأني أدبّ إلى السجن وقلقي الشديد مما ينتظرني داخله، إلا أنني شعرت حقًّا بفرحة مَن يقف لأول مرة في الطابور منتظرًا دوره للتصويت. وقد همست إلى عبد الحميد معبرًا عنها.

ولم يزل الطابور يزحف حتى أصبحتُ في مقدمته، ثم مرت دقائق الانتظار الثلاث! وقد أحسست فيها بالهلع الذي يتملك أحدنا عندما يكون هو أول من يقف في طابور طويل...!

ونودي باسمي.. وقام الشرطي الذي كان يرافقنا فورًا ليدخل معي. وكان هناك سجلّ أمام المسؤول سَجّل فيه بعض البيانات من الورقة التي قدمها الشرطي مضيفا إليه أشياء بناء على شرحه. جعلوني بعد ذلك أوقّع في العمود الأيسر من السجل. ثم أخذوني إلى شرطي آخر، كان جالسًا على طاولة في زاوية، قام بوشم بعض الأرقام العربية على ذراعي بنوع من الحبر. واستطعت أن أميز رقمي بسهولة «13858» بفضل ذهابي إلى المدرسة الدينية يوم كنت صغيرًا. ولعلها هي الثمرة الوحيدة لدراستي في المدرسة الدينية في تلك الأيام!

دخلنا بعد ذلك إلى قاعة كبيرة عجيبة المنظر، يقعد فيها الحلاقون في صف يمتد من أحد طرفي القاعة إلى الطرف الآخر. بعثني أحد الشرطيين الواقفين عند الباب إلي حلاق فارغ. إن سرعة هؤلاء الحلاقين شيء يجل عن الوصف، فأنت لا تشعر بدبيب المكينة على رأسك إلى أن ينتهي الحلاق من عمله على أحسن وجه، فلا يستغرق الأمر إلا دقيقتين أو ثلاث على الأكثر!

وبينما كنت قاعدًا القرفصاء بين يدي الحلاق رأيت عبد الحميد بطرف عيني.. جاء يجلس أمام الحلاق المجاور. وقام كل منا تقريبًا في نفس الوقت.. نظرت إلى عبد الحميد ونظر إليّ.. أصلعان تمامًا..! لم نتمالك أنفسنا من الضحك..! لحظة ضحك نادرة مقتنصة من بين ضجيج الآلام..!

وساقونا بعد ذلك إلى مبنى السجن الكبير، كان أكبر مما نتخيله عادة، ربما يمتد طوله حوالي كيلومترين أو ثلاثة، تم تقسيمه إلى أقسام، ربما يمتد طول كل قسم إلى ما لا يدركه البصر، يخصص كل قسم لجنسية معينة.. العرب، والباكستانيين، والسودانين، والأثيوبيين، والبنغاليين، والفيليبينين، والمغاربة، والسريلانكيين، وكذلك الهنود. ولا شك أن الأغلبية في قسم الهنود هم الكيراليون، نقلونا طبعًا إلى قسم الهنود. ووجدنا فيه حشدًا من الصلع، فيهم الأصلع الكامل ومن كاد ينبت على رأسه الشعر الخفيف مما يدل على طول أو قرب مدة مكثهم في السجن. وكان ذلك منظرًا طريفًا. إذا شاهدتَ الزحمة وسمعت الضجة في القسم، ستقول أنه سوق خاص أقيمت لبيع الصلع! وفي نفس الوقت، لن تجد فيه جوًّا مشبعًا بالخوف والهدوء والانضباط كما تتوقعه حينما تسمع كلمة السجن.

وقفت أنا وعبد الحميد في هذا الزحام والضوضاء كرجلين ريفيين نزلا المدينة لأول مرة. وما استطعت أن أصدق الحقيقة أنني الآن في السجن إلا بعد فترة طويلة... وبكيت كثيرًا... اخترنا السجن لأنفسنا بعد ما فكّرنا في الأمر أيامًا كثيرة.. وسكنتنا الطمأنينة أخيرًا إلى أن السجن رغم مفهومه المروع لدينا كان هو الحل الأصلح المطروح لمواصلة سير الحياة في تلك الظروف القاسية التي كنا نعيشها.. نعم إنما سجنت نفسي رغبة في الحياة..!

حقًّا ما أشد مضاضة المصائب والأوجاع التي تعرض لها رجل فاختار لنفسه السجن مهربًا منها..؟!!

2

لم نلبث أن تأقلمنا مع نظام السجن. وصلنا إليه عقب الغداء والناس في ضجة وزحمة كما هي عادتهم بعد الغداء، وعمال السجن يجرون هنا وهناك في عجلة لجمع الصحون المستعملة. وكان الغداء في السجن عقب صلاة الظهر. تأخرنا قليلًا ففاتنا غداء اليوم. وعندما أنظر إلى ما مضى، يضحكني حقًّا أن أجدني أتحسر على وجبة غداء تفوتني.

تخافتت أصوات السجن وساد السكون. واستلقى الكثير من السجناء في فتور بعد الغداء. ولم يكن عندنا سرر ولا فرش ولا حصر، وإنما كنا نرقد على الأرض حيث نشاء. وكانت قاعة القسم شديدة الحرارة إلى درجة أنه لا يمكن للإنسان العادي مقاومتها. وهناك ثلاثة أو أربعة مكيفات، تصيح من أعلى الجدار، إلا أنني شككت هل هي حقًا تؤدي شيئًا من وظيفتها..؟!

يحتوى قسمنا وحده على ما لا يقل عن مائتين وخمسين سجينًا. وكأن أجسادهم وهم ينامون منتشرين هنا وهناك في صورة عشوائية جثث الضحايا المتناثرة بعد كارثة طبيعية. وكانت هناك حلقات متفرقة بين النائمين، أقامها بعض الأيقاظ لتجاذب أطراف الحديث. وكرجلين جديدين، التفت إلينا واحد من أعضاء حلقة تبدو أنها تتكون من الكيراليين، وهتف قائلًا: «لا تخافا، أكثر الناس هنا كيراليون، اجلسا في أي حلقة شئتما» ثم عاد إلى حديثه. انزوينا إلى زاوية منعزلة دون أن ننضم إلى أية حلقة. ولعله بسبب أرق البارحة وإعياء السفر الطويل، سرعان ما داهمنا النعاس. ولم يداعب النوم جفوننا حتى أذّن للعصر، وبدأت الأجساد النائمة تقوم هنا وهناك على

مهل. قمنا مع من قاموا إلى الصلاة. وكانت هناك في إحدى الزوايا مساحة مخصصة للصلاة، وجّهنا وجوهنا إلى القبلة مع الذين اجتمعوا على الصلاة لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم...

فاضت في تلك الصلاة أحزاني المتراكمة في الأيام المنصرمة كنهر جارٍ لم أقوَ على كفكفته.. انسكبت دموعي من ذكر الله الذي حباني برعايته في تلك الأيام القاسية.. دموع الفرح من توفيقه تعالى وتقويته إياي على اختراق صحارى الآلام الشاسعة..!

وكان الجرس يدق عندما فرغت من الصلاة متوكلًا على الله في أفراحي وأتراحي.. واستيقظ بقية النائمين وسارعوا إلى زاوية تكدست بمن شكّلوا طابورًا طويلًا. انضممنا إليهم على الرغم من أننا لم نعرف قصدهم. ولما بدأ الطابور يتحرك، وقعت عيني على سطل شاي كبير. وكان النظام المتبع أن نأخذ كوبًا من الأكواب الموضوعة على الطاولة أمامنا ونصبّ فيه الشاي بقدر الحاجة ونأتي الطاولة المجاورة لنأخذ نصيبنا من البسكويت – اثنين أو ثلاثة – ثم نأوي إلى إحدى الزوايا حيث نحتسي الشاي على راحتنا. وبعد الاحتساء، علينا أن نعيد الكوب مغسولًا إلى الطاولة.

لم أشعر قط بأنني في السجن، وإنما خُيل إليّ أنني الآن في بعض مخيمات اللاجئين.. تمشينا داخل قسمنا وتحدثنا بحرية كاملة. وكان أقصى ما أطمح إليه منذ حوالي أربع سنوات مضت هو نعمة التحدث مع إنسان. ولذلك ما زلت أثرثر إلى عبد الحميد بلا توقف، دون أن أتيح له فرصة ليتفوه بكلمة.. تكلمت بكل شراهة.. لم أدع لساني يستريح ولو لحظة. وجدت عبد الحميد الذي كان قد عرفني تمامًا خلال تلك الأيام خيرَ سامع يصبر على هذري.

وربما تكون تلك القصص كلها مما قد سبق أن قصصتها عليه، ولكن شهيتي للحديث لم تهدأ بعد..

وفي المساء، جاء رجل من قسم الهنود المجاور ليزورني، لا أتذكر الآن اسمه، فما أن رآني حتى صافحني وهو يقول «رحمة الله واسعة..!» ثم بادرني سائلًا: «ألست الذي وصل هاربًا إلى محل كُنْجِيكّا..؟» هززت رأسي بالموافقة. قال: «بعد ما سمعت قصتك، كنت جئت في غرفتك لأسلم عليك، ولكنك كنت نائمًا فلم أوقظك». وصافحني مرة أخرى وهو يحمد الله وقال: «أنا وصلت هنا قبل يومين.. شجار يسير مع الكفيل.. فأودعني هنا.. لكن لا أبالي.. «كُنْجِيكّا» سيأتي فورًا ليُفرج عني». ولم يزل يتكلم ويده في يدي، ويحمد الله ألف مرة. وحينها، لم أتمالك نفسي من البكاء، لم أدرِ لماذا.. حتى أبكيت ببكائي ذلك الرجل الغريب أيضًا. واستمر يحمد الله وهو يعود إلى قسمه..

وجاء يزورني بعد ذلك كثيرون، ولم يسألوني عن شيء، لأنهم قد سمعوا قصتي كلها من ذلك الرجل. وإنما جاءوا الآن ليروني رأي العين، وحدقوا بي مأخوذين بالدهشة والبعض القليل أخذوا بيدي يواسونني كما فعل الرجل الأول. وتناقلوا قصتي حتى بلغت زملائي في قسمنا.

جاءني أغلب الكيراليين، منفصلين عن حلقاتهم، ليلتفوا حولي. وكان بعضهم يحملق فيّ كما لو أنهم رأووا حيوانًا غريبًا. وبعضهم نظر إليّ في تعجب وآخرون في تقدير وغيرهم في تعاطف وقليل منهم في ارتياب. ومهما يكن من شيء، علمت أن الكيراليين في السجن قد جعلوني مضغة في أفواههم خلال ساعات قليلة. وفي الأيام التي تلت، استقبلتُ عددًا أكبر من الزوار.. أجبروني على الحديث الطويل.. وما خيّبت رجاء أحد، بل انتهزت الفرصة لإشباع شهيتي للحديث. وعدتُ أمُرّ بقلبي لآلاف المرات بكل مشهد من

مشاهد قصتي.. وكلما تذكرتها، أحسست بأنني أمشي على الرمال الحارة فتحترق قدماي الحافيتان..

وحينما جلسنا على مائدة العشاء بعد المغرب من ذلك اليوم، وجدت جميع الكيراليين في قسمي متجمعين حولي.. ولم أكن أملك سوى دموع منسكبة مقابل حبهم الجارف..

***

3

كان توزيع الطعام في السجن مرتَّبًا حسب مواقيت الصلاة. في الصباح الباكر عقب صلاة الصبح كوب من الحليب! وبعده إلى أن يبدأ الإفطار في التاسعة، يتوفر الشاي بقدر ما تشبع به الشهية. والإفطار خبز مع مرقة العدس. وبعد صلاة الظهر، يكون الغداء جاهزًا والوقت يكاد يقترب من الثانية عشرة. والوجبة في كل يوم نوع من «البِرياني» العربي الذي يسمونه «كبسة» أو «مجبوس». ويُحضر الطعام في صحن كَبير يكفي لعشرة أشخاص. وعلينا أن نأكل من صحن واحد في أسلوبٍ عربي. وفي كل يوم يُخلط اللحم أو الدجاج أو لحم الإبل أو الضأن بالأرز على التناوب. فلا آكل شيئًا في يوم الضأن. فيقول عبد الحميد وهو يلحّ عليّ: «مضى ما مضى.. حاول أن تمرّن نفسك على نسيانها ولا تحرم على نفسك الطعام.. والسجن أفضل مكان لتسمين الجسم، ألا تحب أن تعود إلى الوطن وأنت على الأقل بالصحة والعافية التي غادرته بها..؟ ولِمَ تجعل زوجتَك تضرب على صدرها متحسرة على صحتك الضائعة؟ ولا ينبَغي أن يعلم ببلائنا غيرُنا..» ولكنني، مهما قال الآخرون لإقناعي ومواساتي، لم أكن قادرًا على تطويع نفسي. وكانت عيناي تدمعان بمجرد سماع أي أحد ينطق بكلمة «لحم الضأن»..

وفي البداية كنت أضع يدي في الطعام من شدة الجوع فأرى فيه لحم الضأن فأقوم عنه صامتًا أنفض يدى من بقاياه. وفيما بعد، صرت استفسر عن الطعام مسبقًا فلا أقترب منه في أيام الضأن، فكنت أكتفي بالشاي والبسكويت بعد صلاة العصر. ولا يختلف الأمر في الليل أيضًا، إذ يكون العشاء الذي يوزع

بين صلاتي المغرب والعشاء «كُبّوسا» ومرقة لحم، ولا أدنو منه إن كانت مرقة الضأن. ربما يدفعني الجوع الشديد إلى ابتلاع الـ«كُبّوس» بدونها بعد غمسها في الماء. ولم أجد صعوبة في ذلك الأكل لأنني قد عودت نفسي منذ سنوات على ابتلاع الـ«كُبّوس» بلا شيء يرطّبه.

وتمتعنا داخل قسمنا بحرية كاملة حتى ظننا أنه ليس لسجن شميسي شيء من المواصفات المعروفة للسجون. وربما يعود سبب هذه الحرية إلى أن هناك سجن أو قسم خاص بمرتكبي الجرائم الكبيرة. وأما سجناء قسمنا فكانوا من مخالفي القوانين غير الخطيرة.. من فاقدي الإقامة أو حاملي إقامات منتهية الصلاحية.. أو مسلم تم القبض عليه في الشارع في أوقات صلاة الجماعة.. أو آكل في نهار رمضان.. أو مدخّن في مكان عام.. أو مزاول السحر والشعوذة.. أو متشاجر مع مواطن وغيرهم ممن حكم عليهم بالترحيل، العقاب الخفيف والشديد معًا..

وكنت مرتاح البال تمامًا حتى لا أذكر لتلك الأيام يومًا مثيلًا من حياتي.. يحضر الطعام بلا تأخر.. تقوم صلاة الجماعة في وقتها.. أنام ملء الجفون بل فوق ذلك.. أقطع الوقت في التفكر بلا عنوان.. أتحدث من غير حساب.. أنسجِ أحلامًا جديدة للحياة.. هذه هي أيامي في السجن.. لكن لا يعرفنا العالم ولا نعرفه..! وذلك هو السجن في الحقيقة!

وشكاية عبد الحميد كانت بسبب عدم وجود تسهيلات الاستحمام في السجن. قضينا أسبوعًا ونحن على تلك الحال. انفرطت بالضحك عندما سمعت عبد الحميد يتذمر من إحراجه من التعرق المتزايد ورائحة نفسه الكريهة. عددت على أصابعي.. ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام..! ولما استحضرتها في ذهني، تعالت ضحكتي أكثر.. عبد الحميد نفسه ربما لم يدرك عندئذ سر ضحكتي.

إن لكل واحد ممن انتهوا إلى السجن مثلي قصة ملؤها الآلام والأحزان والمعاناة والدموع والبراءة والعجز، ربما سمعتموها في يوم ما بألوان مختلفة. ولا أريد أن أستخف بآلام أحد منهم. وبالنسبة لكل واحد منهم، فإن الطريق التي اجتازها كانت شائكة.. وقد خسر في الحياة ما لا يملك أحد تعويضًا عنه.. بل أتفكر أحيانًا أن الآلام في حياتي خفيفة بالنسبة إلى معاناة الكثيرين منهم. وفي الحقيقة أن بعض قصصهم المحزنة قد ساعدتني على الخروج من أحزاني وعلى المكافحة من أجل البقاء حتى أقص عليكم قصتي هذه. وإن لم يكن كذلك، ربما انتحرت من ثقل أحزاني. ولا شك أن الطريق الأمثل للتخلص من حزننا هو أن نستمع إلى من هو أعظم حزنًا منا.

يقام في السجن طابور الاستعراض مرة في الأسبوع. وذلك هو يوم الدموع، يعود علينا مرة في كل أسبوع، تتاح فيه للكفلاء فرصة للعثور على الهاربين من مكفوليهم، ونصطف جميعًا خارج القسم بعد الإفطار.. يمر علينا الكفلاء ممعنين النظر في كل وجه كشاهد يحدد المجرم. وللأسف الشديد، يتم في كل أسبوع تمييز بعضنا من أصحاب الحظ السيئ. وإذا عرف الكفيل عامله الهارب فيكون رد فعله الأول أن يصفعه صفعة تفرقع طبلة أذنه. وبعضهم يخلع حزامه ويجلد به العامل حتى تهدأ أعصابه على مرأى من رجال الشرطة، غير أنهم لا يكترثون به. عالمًا بذلك، يصرخ بعضنا بأعلى الصوت خارجًا عن طوره حالما يتراءى كفيله على البعد. وفي تلك اللحظة فقط نفهم كيف يجبن الإنسان إذا أعيته الحيلة. ربما كان يعيش في السجن مرتاح البال بعد معاناته لسنوات طويلة، ولا بد أنه لجأ إلى السجن بعد أن لقي من كفيله ألوانًا من العذاب فلا يتحمل حتى تصور العودة إلى نفس الرجل الذي كان يتفنن في تعذيبه بكل قسوة.

ولكن الكفيل لا يرق قلبه للعامل ولا يرحم.. يجره فورًا وهو يرميه بتهم غليظة ويصيح: «هذا سرق مالي... هذا حاول أن يغتصب بنتي... هذا أراد قتلي..» فتلمح على وجه العامل دناءة خروف يساق إلى المسلخ.. تعلو صرخاته التي تنطق ببراءته من وراء حيطان السجن ولكنها تذهب صيحة في واد دون أن تجد أذانًا مصغية. ينفّذ الكفيل قوانينه كما يشاء..

وإنما يعني ذلك أن المواطنين تمتعوا في سجون وطنهم بحرية أوسع من حريتنا في سجن بلد أجنبي. وفي يوم الاستعراض، تفتح بوابة سجن شميسي على مصرَاعيها أمام كل مواطن يحمل وثيقة بلاغ رفعها إلى الشرطة. وإذا عثر على «عبده» الذي هرب منه، فمن حقه أن يجره إلى مكتب المسؤول ويقدم إليه بلاغًا عنه.. فيتغير مجرى القضية ويصبح المسجون عن مخالفة يسيرة مرتكبَ جريمة خطيرة.. ثم يُترك إلى القانون ومحكمة الشريعة والعقاب. ومن حقه أيضًا أن يستأذن من المسؤول ليذهب بعامله مباشرة.. أو أن يطالب بترحيله إلى بلده.. وإن اتفق أن طالب بذلك فلقد نجا العامل. ولكن إذا أُمِر بالرجوع إلى كفيله فقد تحدد مصيره.

انتابني خوف شديد عندما التفتّ إلى تجربتي التي عرفت من خلالها مأساة هارب رُجع إلى أيدي كفيله الذي ينتظره ليأخذ ثأره. وليس في وسعي إلا أن أسأل الله تعالى أن يقوي هؤلاء البائسين على تحمل المصائب المنتظرة له.

ويظل السجن في بقية اليوم ساكنًا صامتًا. نختلج غمًّا من فراق زميلنا الذي كان معنا في هذا القسم، يشترك معنا في حديثنا وضحكنا وأكلنا وفي حنيننا إلى أوطاننا.. يتردد في آذاننا صدى صراخه الذى امتد إلى القاعة الرئيسة وما وراءها.. لا يرغب أحد في الأكل أوالشرب أوالتكلم أو النوم. ولا يلبث أن تندمل تلك الجروح حتي يعود علينا يوم الاستعراض من الأسبوع القادم، وتقع فيه القرعة على بريء آخر. ولم يكن لنا في السجن ما تطيب ذكراه على حال من الأحوال!

في غضون ساعتين قبل الغداء، يسير أمام طابور الاستعراض مئات من العرب المواطنين يرددون أنظارهم بين الوجوه في الطابور. ما أشد ما روّعتنا تلك الساعتان في البداية!. توقعنا أن يلم بنا الحظ السيئ في كل لحظة من لحظاتها. وإذا أحس أحدنا بأدنى مشابهة، اشتعلت في قلبه نيران لم يكن يملك السيطرة عليها.. ولا تنطفئ إلا إذا تأكد أنه أخطأ كفيله.

عندما ينتهي الاستعراض، أشعر بطمأنينة لا توصف، على الرغم من أن نجاتي اليوم كان على حساب دموع الآخرين البؤساء. اسمحوا لي بهذه الأنانية.. تمتلئ في داخلي فرحة بأنه لم يأت أحد يطلبني.. ولعله بسبب التكرار الذي يعوّد الإنسان على أي شيء، استطعت مع مرور الأيام أن أتغلب على ذلك الخوف الذي كان يتملكني في أثناء ساعات الاستعراض. وربما يكون ذلك لاعتقادي بأنه قد مضى الزمن الذي يحتمل فيه أن يحضر أحد يبحث عني.

وعادة في غضون أسبوعين أو شهر على الأكثر يقع كل عامل هارب في فخ الشرطة أو يلتجئ خلاله إلى ملجأ آمن موقّت. ولا يكون من السهل على مواطن أن يعثر عليه بعده. وهناك عدد كبير من الهاربين غير الشرعيين من هذا القبيل يقيمون في المملكة منذ سنوات كثيرة. فينهي المواطن التحريات بعد شهر أو شهرين، ويبقى مجرد بلاغ لدى الشرطة. وإن عثر عليه بعد هذا فذاك من حسن حظ المواطن، لا غير.

وبعد مرور تلك الفترة، اطمأننت أنا وعبد الحميد إلى أنه لن يأتي أحد ليبحث عنا.. فأصبح الوقوف في الطابور من الأوقات الممتعة بالنسبة لنا مع مرور الأيام.. قضينا تلك الساعات بتجاذب أطراف الحديث وإطلاق النكات والفكاهات. ولم تختلف الحال لأحد ممن وصلوا إلى السجن قبل

خمسة أشهر أو أربعة.. صرنا معتادين على الخوف وتكيفنا معه.. وهكذا نواجه ظروف الحياة مهما تفاقمت عبر مختلف مراحلها.

وكان قسمنا أشبه شيء بمحطة القطار التي تزدحم بالمسافرين، يغادرها القديمُ في حين يقدم إليها الجديد، ولا يستقر فيها أحد.

وما أتى السجناء هنا أفواجا، بل جاؤوا فرادى في أوقات وأيام مختلفة من مراكز الشرطة المختلفة من أرجاء البلاد. وربما لا نحس بهذا التزايد المتدرج في عدد القادمين.. لكن المغادرة كانت أحيانا بدفعة واحدة كما يخلو رصيف محطة القطار من كافة الركاب عند وصول القطار.

ويتلو يوم الاستعراض يوم السفارات. يحضر إلى السجن موظفو السفارات المختلفة حاملين معهم تصاريح الإفراج لمسجوني بلادهم. يوم الأفراح بعد يوم الأتراح. نقف ذلك اليوم أيضا في طابور خارج مبنى القسم. وينادي موظفو السفارات بأسماء مَن انتهت إجراءات ترحيله التي يسمونها تصريح الخروج فيتقدم هؤلاء خطوتين. كنا نقضي تلك اللحظات على أحر من الجمر. وفي ما بعد، كنت أشبّه من باب المزاح حالتنا في ذلك الانتظار بهلع الفتاة التي تنتظر إعلان نتيجة مسابقة اختيار ملكة جمال العالم. وهناك فرحة تتبرعم على ثغر الفتاة عندما يعلن اختيارها كملكة جمال العالم.. ولا بد أن تتبرعم نفس الفرحة في دخيلة كل مسجون ينادى باسمه، لأن هذا النداء ربما يمثّل خلاصه النهائي من معاناته المزمنة، غير أن أحدا لم يظهرها للآخرين. وكان كل واحد منا يتوقع أن ينادى باسمه في كل لحظة. وعندما يعلم أن اسمه ليس في القائمة، تعتريه خيبة أمل لا توصف.. فيجهش بالبكاء بعض من طال انتظارهم أشهرًا كثيرة.

وبعد ذلك خمس دقائق للتوديع، وهي فرصة تسنح لنا بينما يذهب الموظفون إلى مكتب المسؤول لإتمام إجراءات الترحيل. وعلى الرغم من كآبتنا على انتهاء أيام حياتنا المشتركة التي جمعت بيننا في آمالنا وآلامنا، إلا أننا نودع المغادرين بكل سرور. ولا ينتهون من توديع الجميع حتى يقاطعهم صفير الشرطة كأبواق قطار قبل التحرك.. فيهرول إليهم المغادرون كلهم.. وهل يحب أحد أن يغادر السجن وعلى ظهره آثار أسواط الشرطة..؟

***



4

ومع مرور الأيام وأنا في السجن على هذه الحال، تملكني جزع مجهول. لقد تم ترحيل من وصل قبلي وبعدي. ولم تتم إجراءات ترحيلي إلى اليوم. وكنت أعلم أنني لست مثلهم.. معهم جوازات السفر..وليس معي جواز سفري.. فلا يمكن لي أن أتوقع إتمام الإجراءات بسرعة كما هو حالهم.. ولكن إلى متى هذا الانتظار!. لكل شيء حد.. وقد مر على يوم وصولي ما يقارب خمسة أشهر على الأقل. والسبب الوحيد الذي يدعوني للاطمئنان هو أن عبد الحميد معي ليشاركني في هذه التعاسة. ولم يتم إجراءات ترحيله أيضا إلى الآن.

وفي كل أسبوع، كلما وصل موظفو السفارات يبرق الأمل فينا.. ولكنه سرعان ما تخمده الكآبة عقب رجوعهم. إنما استسلمنا للشرطة واثقين بـ «كُنْجِيكّا» حين تعهد بأنه سيرتّب باقي الأمور.. وأنا حقًّا واثق به.. يا الله.. لو لم أثق بــ«كُنْجِيكّا» فمن ذا الذي أثق به في العالم بعده..؟ اللهم اغفرلي بلطفك وعفوك لهذه اللحظة التي تملكني فيها الاكتئاب حتى ارتبت في «كُنْجِيكّا» ونسيت إحسانه إليّ خالصا لوجهك.

هذه هي إجراءات السفارة.. لا تتم إلا في مهلها ونظامها البطء.. لكنني قد استطعت أن أصبر كل هذه الأشهر الطوال.. ولِمَ لا أنتظر أياما قلائل فوقها؟ وما حان الوقت الذي قدره الله لي بعد.. إنما كان ذلك التفسير الوحيد المقنع لهذا التأخر.

وجاء يوم الاستعراض الذي يأتي فيه العرب في السجن. وقد صرت أنا وعبد الحميد خلال هذه الفترة من سكان السجن القدماء. أما الجدد فكانوا مذعورين من قدوم العرب. مشيت أنا وعبد الحميد بينهم نواسيهم ونهدأهم حتى ننتهي إلى موقفنا في آخر الطابور. وكان رجال الشرطة أيضا من المتصادقين معنا.. أظن أنهم كانوا يتعاطفون معي بعد أن بلغتهم حكايتي.. وبفضل ذلك، لم يشددوا علينا في أمر الانضباط على خلاف غيرنا من السجناء الجدد عند الوقوف في الطابور.. فأصبح من عادتنا ونحن في الطابور أن نرفع أصواتنا ونتضاحك لسبب أو بدونه وأن نسخر من غيرنا .

وبينما كنت مستغرقا في الحديث مع عبد الحميد، اصفرّ وجهه فجأة وامتقع لونه. ونظرت إليه في استغراب.. بقي على هذه الحالة هنيهة.. ثم دعاني بصوت مذبوح.. يا نجيب.. وقد كان هذا النداء منطويا على أحاسيس أنا بنفسي لم أحط بها.. وقد اختلط فيه كل من الكآبة والفزع والألم والدمع والحزن.. عند ذلك فقط، علمت أنه قد يجتمع جميع العواطف في نداء واحد.. ويعجز كل فناني العالم عن التعبير عن هذه اللحظة الحية من لحظات الحياة.

ولم أكن في حاجة إلى مزيد من تفصيل عبد الحميد.. ألقيت النظر إلى حيث تسمرت عيناه.. رأيت رجلا عربيا يُقبِل.. وقبل أن يقترب منا، بدأ عبد الحميد يطلق صراخات.. الأمر الذي سهّل على العربي العثور على فريسته.. ها هو ذا عامله الهارب نصب عينيه يطلق صيحات الفزع..!

ولم ينظر العربي إلى وجه عبد الحميد حتى اندفع إليه كنمر جائع.. وأمطر عليه بوابل من الضربات، متسلحا بكل من يده وحزامه وعقاله حتى هدأت

أعصابه. لم يكن في وسعي كغيري من زملاء القسم إلا أن أتفرج باكيا على ما جرى.

«خليني أروح البلاد.. لا أقدر أن أشتغل عندك.. خليني أروح.. أرجوك.. خليني..» وعلى الرغم من صراخ عبد الحميد، اجتره العربي على الأرض يذهب به إلى مكتب المسؤول.

وكان ذلك لقائي الأخير بعبد الحميد. ولم يبلغني بعد ذلك شيء من أخباره مع قلقي الشديد حول ما لقي من الحياة بعد ذلك. ورب حياة مثلها تتوقف في الوسط قبل أن تبلغ منتهاها..! خلق ضعفاء يتلاشون دون أن يقصوا على أحد حكاياتهم.

وبالنسبة لي، لم يكن عبد الحميد واحدا من معارفي الذين عشت معهم أياما من حياتي.. ولكنه كان لي صديقا حميا. كان عاملا يعمل طوال النهار لقاء أجرة زهيدة في مزرعة كفيله الذي كان يتفنن في تعذيبه. ولما تجاوزت الأمور حد الصبر الأقصى، هرب من المزرعة ذات يوم. وحينما وصلنا إلى السجن، كان عبد الحميد أشد فرحا مني بكثير.. كأنه أقنع نفسه بأنه لن يقع فريسة في فخ كفيله طالما التجأ إلى حماية الحكومة من العالم المفتوح.. وما أسرع ما تنقلب الأمور رأسا على عقب..! وساد في القسم صمت ثقيل طيلة اليوم. كان عبد الحميد ممن يحبه الناس كلهم لحسن خلقه ومعاملته مع الآخرين.. كان يطلق النكت والفكاهات ويواسي الغير كأخ كبير. وأخيرا شاءت إرادة الله أن تجعلنا نشاهده وهو يُجرّ على الأرض يطلق صراخاته العالية. ولا أذكر في تلك الأيام أحدا صرخ صراخا حينما أكرِه أن يعود إلى كفيله أشد من صرخات عبد الحميد.

وفي اليوم التالي ضوعفت حسرتنا عندما سمعنا اسمه أول الأسماء التي نادى بها الموظفون ذلك اليوم. يا ربي.. أنت ما أردت أن ينادى باسمه في الأسبوع الفائت.. لو كان ذلك لاختلفت حياته وامتلأت بالفرح والسرور.. لا.. لا أتدخل في حكمك يارب، ولا أتكلم في قضائك.. أنا مؤمن بأنك حكيم خبير.. وإنما أسألك الآن أن تقنعه بأن أيام ابتلائه لم تنته بعد.

وبعد رحيل عبد الحميد، شعرت بوحدة شديدة في السجن. ولم أقدر أن أتصادق صداقة قوية مع القادمين بعده. أصبحت ملتزما بهذه الزاوية أو تلك بمعزل عن الناس وحديثهم. ونادرا ما تناولت الطعام.. مر عليّ أيام دون أن آكل شيئا.. فقدت نشاطي مع فقدان عبد الحميد.. ولم يعترني النشاط في يوم من الأسبوع إلا في اليوم الذي يحضر فيه موظفو السفارات. انتظرت على أحر من الجمر لليوم الذي ينادى فيه باسمي.. ولم يقع ذلك أبدا.. وكلما سألتهم ملتصقا بأذيالهم، أطالوا الكلام عن عديد من الأوراق المستغلقة التي لم يتم تحريرها بعد.. ولكنهم مع ذلك لم يغادروا إلا بعد أن تركوا لي بارقا من الأمل في أن الإجراءات قد تتم في الأسبوع القادم. وما زلت عرضة بين الرجاء الذي يصعد بي عند وصولهم وخيبة الأمل التي تهبط بي عند ذهابهم.

وبينما كانت الأيام تمضي هكذا، كنت واقفا في الطابور ذات يوم من أيام الاستعراض وأنا لا أشعر بشيء من الخوف أو الرجاء أو الخيبة.. ولم يزل يمر بنا كثير من العرب.. وفي تلك الأثناء، لاح لي بالصدفة وجه من طرف الطابور الأقصى.. لم يقع في موقع النظر حتى أحدث الفزع في قلبي برقا ورعدا مجلجلا.. دعوت الله في سري صارخا كما صرخ عبد الحميد قبل أيام.. وكان

ذلك «أربابي»[1] الذى كنت على اعتقاد من أنه لن يأتي أبدا يبحث عني.. ولن ألتقي به مرة أخرى.. هذا بلا شك أربابي الذي لقيته لأول مرة في مطار الرياض قبل أربع سنوات.. أخذتني الدوخة من شدة الخوف.. أمسكت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي حتى لا أسقط على الأرض جزعا..

***

(1) هذا اللفظ خاص بالهنود الذين يعملون في الخليج وهي تعني «أصحاب العمل». وأصلها ثاقب في اللغة العربية وذكرت أيضًا في لسان العرب. وعلى الرغم من أن الكلمة جمع في اللغة العربية إلا أنها تعامل معاملة المفرد عند الهنود في الخليج.

5

وضعت الحرب العراقية الأولى أوزارها وكادت تهدأ اضطراباتها التي هزت الخليج. وبعد فترة يسيرة من الانقطاع، فُتحت من جديد أبواب عديدة إلى سوق العمل في دول النفط على مصراعيها. وبالصدفة أخبرني صديق لي من «كَرُوَاتّا» أن عنده فيزا للبيع، فوقعت في نفسي رغبة لم تخطر بالبال إلى الساعة. إلى متى أقضي الحياة هنا كغواص..؟ ماذا لو سافرت مرة..؟ لا لسنوات كثيرة.. لست طماعا إلى تلك الدرجة.. بل حتى أتمكن من سداد ديوني وبناء غرفة إضافية لبيتنا الصغير.. إن هي إلا أحلام يحلم بها كل كيرالي عادي.. وعلاوة على ذلك، سمعت الناس يقولون إن الجهات المعنية توشك أن تحظر استخراج الرمال[1] من النهر لاحقا.. وإن فقدت هذا العمل فمن يعطيني عملا آخر..؟ هل أصبر على الجوع..؟ استطعت ذلك في ما مضى من الزمن.. ولكن الظروف قد تغيرت الآن.. تزوجت انقيادا لإلحاح أمي.. وزوجتي حامل في الشهر الرابع.. ستتراكم عليّ المصاريف في القريب العاجل ككثبان رملية.. وإضافة إلى ذلك، فقد اعتراني مؤخرا برد وحُمّى استوليا عليّ تماما.. ربما يكون سببهما الغوص المستمر في الماء كل يوم.. إذا تركتهما على هذه الحالة قد يتحولان إلى التهاب رئوي حاد.. وحتى لو حدث ذلك، هل يمكن لي أن أتوقف عن الغوص..؟ لا شك أن هذه فرصة أتاحها الله لي.. لا ينبغي لي أن أدعها تفوتني.

---

(1) يعتمد أهل كيرالا على رمال الأنهار في أعمال البناء حيث تعد الأنهار المصدر الوحيد لرمال البناء.

«هل عندك أحد يريد السفر.. سيكون هذا بواسطة نسيبي.. وهو الآن موجود في البلاد في إجازة.. وإذا ارسلنا معه الفلوس فورا، سيرسل لنا التأشيرة في غضون شهرين» - قال الصديق. وقد لمعت في زاوية قلبي صورة الجواز الذي قدمت الطلب له انقيادا لإلحاح زينب الطويل رغم أني لم أكن في حاجة إليه:

«نعم، عندي واحد، فلا تعطه لأحد آخر» أجبته بحماسة تملكتني حينها.

«فتعال إلى بيتي غدا، دعنا نذهب معا للقاء نسيبي حتى تتفق معه على باقي الأمور».

وبعدما انصرف الصديق كنت قلقا مترددا في الأمر. شغلتني الفكرة وقتا طويلا. وإنما شاطرتها زينب حينما لم أستطع حملها لوحدي. وكأية امرأة، ما سمعت بالخبر حتى طارت في حماسة.

«هذه فرصة أتاحك الله، لا تدعها تفوتك، وما أكثر ما ألححت على إخوتي.. لم يتم شيء إلى الآن!».

ولها أخوان، وهما في الخليج.

«لكن يا زينب، الأمر يتطلب مبلغا هائلا.. هل عندنا ذلك المبلغ..؟».

«العزيمة تحقّق كل شيء.. هل يسافر الناس كلهم إلى الخليج بعد أن فاضت أياديهم بالفلوس..؟ توكّل على الله واذهب إلى صديقك من «كَرُوَاتّا» بكل عزيمة..» شجعتني زينب.

كانت زينب هكذا على كل حال. لا تتفوه بكلمة تخيّب الأمل.. ولها قدرة عجيبة على أن تجعل فقرها يبدو ثروة للناظرين. وكنت أعتز بها في سري..

وحتى قبل أن يمر عام على زواجنا، تفكرتُ غير مرة أنها امرأة تعد قدوة لكل النساء.

وذهبنا معا إلى «النسيب» في اليوم التالي.. طلب مني ثلاثين ألف روبية.. واشترط أن أدفع له عشرين ألفا منها في غضون أسبوعين قبل رجوعه حتى يتمكن من إيصالها للعربي ليتم إصدار التأشيرة. أما العشرة الباقية فهي لتكاليف التذكرة وغيرها ويكفي دفعها بعد الحصول على التأشيرة إلى الوكيل في «مُومْبايْ». ورغم أنه لم يكن في وسعي جمع ذلك المبلغ الكبير إلا أنني أحسست بجرأة حملتني على القبول، وتم الاتفاق.

وكان الأسبوع التالي مليئا بأيام السعي الحثيث.. ولا تخلو من قصة هذا السعي حياة أحد ليس له قريب في الخليج ليدعمه. واستطعت أن أجمع المبلغ في آخر المطاف.. أرهنت في البنك ملكية البيت والحلية الذهبية الصغيرة التي كانت تزين صدر زينب.. واقترضت من كل زملائي الغواصين ما تيسّر لديهم من الفلوس.. وتسلفت مبالغ يسيرة من كل معارفي.. وفي تعبير أدق، جمعت المبلغ كما تجمع النقود فى «الحصالة».. وغاية القول: إنني تمكنت من إيصال المبلغ إلى «النسيب» قبل سفره بليلة.. (وكان بإمكاني أن أتسلف من أخوي زينب (أبوظبي)، وهي التي منعتني من ذلك، لأنها كانت متضايقة من عدم اهتمامهما بأمرنا حتى اليوم).

ومر على ذلك شهران.. أيام الانتظار والأحلام والاقتراضات المتسلسلة.. بقي عليّ للوكيل عشرة آلاف. ونجحت أن أملأ هذه «الحصالة» أيضا. وفي تلك الأثناء كنت أنسج أحلاما عديدة.. تلك الأحلام التقليدية التي ربما نسجها قبل السفر كل واحد من الكيراليين «الخليجيين» الذين يبلغ عددهم أكثر من مليون ونصف.. ساعة ذهبية.. ثلاجة.. تلفاز.. سيارة.. مكيف.. سلسال ذهبي ثقيل.. وقد شاطرت أحلامي زينب قبل النوم في تلك الليلة..

«لا أريد شيئا» قالت زينب: «عليك أن ترجع حالما يتوفر عندك من المال ما يضمن حياة كريمة لوليدنا القادم (هل هو ولد أم بنت؟!).. ولا نريد أن نستكثر من المال كإخوتي فلا نرغب في بناء بيت يشبه القصر مثلهم.. وإنما نريد حياة كريمة تجمع بيننا ولا تفرقنا».

وربما كان ذلك ما تقوله كل امرأة لزوجها الذي يريد السفر إلى الخليج.. إلا أن الخليجيين يضطرون هؤلاء إلى قضاء عشرين أو ثلاثين عاما من عمرهم في تلك الغربة..! وما سر هذه المعضلة..؟

وفي النهاية استلمت برقية من الوكيل بـ«مُومْبايْ» تقول «الفيزا جاهزة، تعال هنا بباقي الفلوس». لحظتها كدت أطير فرحا.. كنت فعلا أشد فرحا من ملايين الكيراليين الذين سبقوني إلى الخليج.. نعم، كنت أشد الناس فرحا فى تلك الليلة.. لم يعانق أحد زوجته كما عانقت زينب في تلك الليلة. والقلق الوحيد كان على بنتي أو ولدي.. لا أكون هنا يوم ميلاده أو ميلادها.. ولا يمكن لي أن أقف بجانب زينب أربت على جسدها المتراخى عند ألمها الأكبر.

قبّلتُ مرارا بطن زينب المتنامي وأنا أنادى.. «يا نبيل.. يا صفية» (اسمان اخترتهما للمولود) «كُنْجِي..تشكّي..» (اسما الدلع) «يا ابني..(؟) يا بنتي.. (؟) أبوك لا يكون هنا ليراك تأتي إلى الدنيا بعينيك المفتوحتين.. ولكني يوم أعود إليك سأحضر لك هدايا تملأ يديك»..

والآن، تعود تلك اللحظات إلى الذاكرة كبعض مشاهد أفلام تافهة تثير الغثيان. ألا تفوق حياتنا في بعض الأحيان المشاهد السينمائية في سخريتها..؟

ذهبت إلى صديقي بـ«كَرُوَاتَا» لأخبره بأنني استلمت الفيزا. وعند ذلك فقط علمت أن ولدا من «دَهانُوَاتْشَبُورَام» قد حصل مثلي على فيزا العمل

في نفس الشركة عن طريق «النسيب» نفسه. وبالنسبة لكل منا، كان السفر خارج البلاد تجربتنا الأولى، فاتفقنا أن نسافر معا.

ركبنا معا القطار من محطة «كَايَامْكُلاَمْ». وكان ذلك لقائي الأول بذلك الولد الأمرد النحيل الذي كان يدعى عبد الحكيم.

بكت أم عبد الحكيم من وراء نافذة القطار وقالت لي:

«يا ولدي، ابني عبد الحكيم لم يسافر إلى الخارج قبل الآن.. أتركه معك في ذمتك وعنايتك».

أما أنا فقطعت النظر عن أمي وزينب الباكيتين، لأني كرهت أن أبكي أمام الناس.

كان القلق أبرز من الفرح في تلك الرحلة.. أقلقتْني متاعب السفر.. والخوف على المبلغ الذي في الشنطة.. والهلع من المدينة التي سننزل بها.. ومن خيانة الوكلاء التي سمعت عنها قصصا كثيرة..

كان في «مُومْبايْ» صديق قديم لي يدعى «شَشي». وقد اتصلت به لأخبره عن مجيئنا ومع ذلك خفت ألاَّ يحضر إلى المحطة في الموعد المحدد..

قضيت تلك الأيام الثلاثة والهواجس تتلاعب برأسي.. ليست فقط عن نفسي بل عن عبد الحكيم أيضا.. وهو لا يزال طفلا يلعب ويستمتع بالرحلة..

ولما وصلنا في «مُومْبايْ» اضمحلت تلك الهواجس كلها حينما أظهر «شَشي» نفسه أخا شقيقا لنا في كل شيء.. حتى أنه ترك عمله ليومين من أجلنَا. ولا شك أن حرص الكيراليين بـ«مُومْبايْ» على مثل هذه الخدمات شيء جدير بالذكر. أسكننا «شَشِي» في غرفته الصغيرة التي كانت ملجأ لثمانية

اشخاص آخرين. أحسست بأن الغرفة استقبلتنا أيضا دون ما تضايق.. بل بدت مستعدة لاستقبال رجلين آخرين.. إنه توسع لا يمكن أن يصنعه إلا الكيراليون في «مُومْبايْ».

دفعنا المبلغ إلى الوكيل فقط بعد أن أرانا التأشيرة الأصلية. ومكثنا في «مُومْبايْ» أسبوعين.. أسبوعين طويلين.. بدا لنا أن الوقت فيهما شيء راكد لا يتحرك.. أحسسنا بأن اللحظات فيهما كانت تساوي قرونا والأيام كانت دهورا.

وإذا ذهب «شَشِي» وزملاؤه إلى العمل، نخرج للمشي.. مشينا بلا مقصد.. من طرق لا نعرفها.. وبدون لغة نتفاهم بها مع أهل المدينة.. متسلحين بجرأة مجهولة.. مشينا في أزقة «دَهــارَاوي».. عبرنا شوارعها الضيقة الطويلة.. ذهبنا بلا قصد إلى محطة القطار بـ«أنْدهيرِي» حيث وقفنا نتأمل زحام المسافرين.. أكلنا «بَاوْبَاجي».. شربنا «سَرْبَتْ».. زرنا معارض الأفلام.. شربنا «البير» في صحبة «شَشِي» (ولعبد الحكيم فقط مشروبات باردة).. سهرنا ليالينا في مقاهي الرقص.. قضينا هكذا أسبوعين.

وأخيرا، جاء يوم السفر. ولم تكن عندي أغراض كثيرة.. سوى إدام و«أتشار» (المخلل).. أعدتها زينب الحامل في حب أنساها إعياءها.. و«تشامَّندي» (مطحون جوز الهند المخلوط بالفلفل) الذي طحنته لي أمي متحاملة على نفسها.. و«أتشّار» السمك النهري.. وزوج أو زوجين من الملابس (قالت زينب: لِمَ تحمل الكثير وأنت تروح إلى بلاد فيها أكثر).. منديل الحمام.. وصابونتين.. ومعجون الأسنان.. والفرشة.. وكذلك الجواز والتذكرة وبعض أوراق الروبية الهندية.. لا غير. ولكن عبد الحكيم كان يحمل أثقالا.. قد خيل إليّ أنه يحمل في شنطته كل ما تحتاج إليه عائلة كبيرة في عام.. ضحكنا منه أنا و«شَشِي».. لا لشيءٍ إلا أن نرى خجله حينها.

وبالإضافة إلى «شَشي»، رافقنا إلى المطار زميل له في الغرفة. وكما يقول كل كيرالي «خليجي» عَندما يودع صديقه في المطار، تركتهما مع وعود بأنني سأرسل لهما فور وصولي في المطار تأشيرتين لهما، سأحصل عليهما بالاحتيال على العربي.. فابتسما ابتسامة تنم عن عدم تصديقهما ولسان حالهما يقول: «ما أكثر ما سمعنا ذلك!».

ألَمْ تزرع كلماتي مع ذلك بذور الأمل في قلوبهما..؟ أوليس الكيراليون المغتربون في «مُومْبايْ» يقاومون ظروفهم القاسية متسلحين ببصيص من هذه الآمال..؟

وخلعت ساعتي من يدي أهديها لـ«شَشي» لقاء ما قدم لي خلال أسبوعين من الخدمات. كانت هي ساعة أهدانيها آخو زينب حينما جاء من الخليج لأول مرة. حاولت أن أتصل بالبيت من نقطة اتصال في المطار. وهناك هاتف في بيت جارنا.. ولما فتح الخط بعد محاولات كثيرة، أوكلت إليهم إبلاغ الخبر إلى بيتي.

والإجراءات في المطار كانت سهلة وسريعة.. وعند دائرة الهجرة فقط، سألني الموظف بعض الأسئلة.. اقتحمنا تلك العقبة بسرعة بفضل ورقة مائة روبية أدخلتها في جوازي قبل أن أقدمه إليه.. وأيضا بفضل أنني لا أفهم لغته الهندية ولا يفهم هو لغتي الملايالامية. كانت الرحلة في طيران الهند من «مُومْبايْ» إلى الرياض. واستغرقت الرحلة أربع ساعات ونصف ساعة. وهبطت طائرتنا في مطار الرياض في 4:30 مساء حسب التوقيت المحلي بتاريخ أربعة من الشهر الرابع في سنة 1992 م.

يا مدينة أحلامي.. ها أنا ذا جئتك.. فأحسني ضيافتي..

***

6

نزلنا من الطائرة إلى عالم عجيب أعجب مما توقعناه. وفي تلك الأيام، لم تكن وسائل الإعلام المرئية تبث لنا إلا أقل القليل عن العالم العربي. ولكن صورته تكونت في ذهني من أقوال الذين سبقت لهم زيارته. ولذلك أدهشتني تلك المناظر الجديدة التي تشير إلى قمة الرفاهية. إن كانت لي «مُومْبايْ» تشكل كابوسًا فقد كانت الرياض تمثل دهشة.

خرجنا من المطار بعد أن تمت إجراءات القدوم. ولم يكن باستطاعتنا أن نطيل الاستمتاع بالمناظر في ذلك الموقف.. جعل الخوف يدب فينا.. لم يأت أحد ليأخذنا من المطار.. وقد غادر جميع المسافرين النازلين معنا في سيارات أصدقائهم أو أقربائهم أو كفلائهم أو مندوبي شركاتهم، ولم يحضر أحد ليأخذنا.

قال لنا الوكيل بـ«مُومْبايْ»: إن كفيلنا سيكون بانتظارنا في المطار. ولكن الطائرة وصلت هنا متأخرة بساعة عن الموعد. فهل يكون قد رجع بعد ما يئس من وصولنا..؟ وهل يتجول في المطار بحثًا عنا..؟ وكيف يميزنا من بين آلاف القادمين..؟ وصورتي في الجواز قديمة لا تكاد تشابهني.. فلا أظن أنها تفيده.. وهل يكون قد نسي يوم مجيئنا..؟ وهل تغافلت الوكالة عن إبلاغه به..؟ أكوام من الأسئلة تتراكم في ذهني.. ويتعاظم ثقلها مع تطاول وقت الانتظار.

يمر أمامنا مئات العرب.. الرجال والنساء.. وجدتني لحظتها أتخيل نفسي في القارة القطبية أنتاركتيكا.. وهؤلاء العرب المشاة كسرب البطارقة..

البطارقة البيضاء والسوداء.. حدقت بكل رجاء في وجه كل بطريق (وفي عيني «البطريقات» السوداء المحتجبات). ها أنا ذا نجيب الذي تبحث عنه.. وهذا الولد الأمرد الذي معي هو عبد الحكيم الذي تنتظره.. ما زلت أقوله لكل واحد منهم في لغة كلماتُها نظراتي وطريقةُ وقوفي وتعابيرُ وجهي المتوسلة. ولم يلتفت إلي أحد.. واختفى الجميع مسرعين إلى شؤونهم.

وقد طال بنا الوقوف.. هبطت خلال ذلك طائرات كثيرة.. نزل منها كثير من الناس من مختلف الجنسيات.. يتكلمون بلغات مختلفة ويلبسون ملابس مختلفة.. تفرقوا كلهم في سيارات مختلفة. ولم نشعر بقدوم الليل إلا حينما سمعنا أذان المغرب. وقد مضى وقت الصلاة دون أن يأتي أحد.. عرضت المشكلة على موظف كان يبدو كبيرًا.. سألني اسم الشركة التي استقدمتنا.. لم أكن أعرف اسمها.. سألني رقم جوال الكفيل.. كنت نسيت أن آخذه من الوكيل.. سألني رقم أحد من معارفي هنا.. لم يكن لي هنا أحد أعرفه.. إنما كان عندي عنوان الشركة التي يشتغل فيها «النسيب» من «كَرُوَاتّا».. استخرجت له ذلك.. اعتذر بأنه منطقة بعيدة من الرياض.. قال أخيرًا: «انتظرا قليلًا.. وسيأتي «أربابكما» وابتعد عنا إلى دوامه. ومن ذلك الرجل الأجنبي سمعت لأول مرة تلك الكلمة – «أرباب».

أرباب..! أرباب..! كررت في سري تلك الكلمة. حلوة..! كلمة حلوة للسماع. من هو الأرباب؟ ما هو الأرباب؟ وعلى أية حال، فهمت أنه لا بد من حضوره الآن لنخرج من هنا.. تعال بسرعة يا أرباب! كم انتظرناك هنا.. يالله بسرعة.. وأفرج عنا هذا الفزع يا أرباب..! أرباب..!!

يبدو أنه قد مضت ساعة أو ساعتان.. لا سبيل إلى معرفة الوقت.. تركت ساعة يدي الوحيدة في «مُومْبايْ» هدية لـ«شَشي».. ولم أرغب في التجوال في المطار في سبيل البحث عن ساعة تخبرني بالوقت.. وليس في ذلك فائدة..

بل فيه خطر أن يحضر الأرباب في غضون ذلك فيرجع دون أن يراني.. وقد استضاء العالم خارج المطار بمصابيح الليل.. واندلعت في داخلنا نيران الذعر.

وبينما نحن كذلك، فوجئنا بعربة قديمة ضجاجة ليست من نوع السيارة ولا الجيب ولا الشاحنة.. إنما عرفت بعد مرور أيام كثيرة أنها تسمى بـ بِيكْ آبْ.. ووقفتْ عند بوابة المطار الرئيسة رغم أن اللوحات تشير إلى أن المنطقة ممنوع الوقوف بها.. ووثب من داخلها رجل عربي.. وما أدري لماذا همست إليّ نفسي حينها أنه هو أربابي الذي أنتظره. وجعل يمشي فارغ الصبر جيئة وذهابا في المطار.. ولكنه لم يلتفت إلينا مع أننا ألزمنا أعيننا تتابعه بدون انقطاع. وكان يمشي والانزعاج واضح على وجهه.. ولم أتجرأ على الإقبال بمبادرته بالسؤال: «هل أنت أربابي..؟» فضلا عن أن عبد الحكيم لا يحتمل أصلا أن تدور الفكرة بخلده.. وحتى لو سألناه فبأية لغة..؟ وبعد طواف المطار مرتين أو ثلاث مرات، اكتشفَنا لحسن حظنا.. مشينا إليه على مهل..

«عبد الله..؟» سألني مشيرا إليّ بإصبعه. ولم أسمع في حياتي صوتا أخشن من صوته. هززت رأسي نافيا.. «عبد الله..؟» كرر السؤال إلى عبد الحكيم.. نفى هو الآخر وهو يهز رأسه.. سألنا بالعربية أشياء في صوت ينم عن غضبه.. لم أفهم لحسن حظي شيئا منها ولا كان عبد الحكيم أكثر فهما مني.

تركنا حيث نحن، وعاد يجول في المطار.. ينتزع من كل واقف منفرد جوازه فينظر فيه. وأخيرا رجع إلينا.. وسحب جوازي من يدي بقوة.. قلّب صفحاته.. ثم انتزع جواز عبد الحكيم أيضا.. ومشى دون أن يقول لنا شيئًا.. وتبعناه نحمل حقائبنا.

وكان مفهوم العرب عندي عبارة عن رائحة العطور والرشاشات.. وقد فاحت تلك الرائحة الشهية من مئات العرب الذين مروا بنا.. وقبل قليل، أقنعت عبد الحكيم بها جعلته نكتة بأن الرشاشات الجديدة تصنع بتقطير بول العرب الذين يتعطرون دوما. ولكن رائحة أربابي كانت نتنة عفنة.. نتانة لا توصف..! وكذلك ثيابه أيضا متوسخة رثة تنبعث منها رائحة كريهة فوق حد التعبير في حين يلبس العرب الآخرون ثيابا مكوية ناصعة البياض.

ومهما يكن من شيء، سرتني فكرة أنني أيضا حظيت بأرباب! وقد أصبحت «خليجيا» وحصلت على أرباب لي.. هذا الرجل الذي يسير أمامي هو حارس أحلامي وربي المتجسد الذي يتولى تحقيق جميع أحلامي. أربابي! أربابي! داعبت الكلمة في داخلي في حب لم يحب أحد مثله كلمة في العالم.

***

7

كانت عربة أربابي أقدم عربة رأيتها. وقد تقشر طلاؤها في مناطق الأبواب والسقف وغطاء المحرك واحتل مكانه الصدأ. وكانت الأبواب مربوطة بالحبال.. قد خربت أقفالها.. وكانت المقاعد مهترئة.. استهلك وثارها وتطل من خلاله الزنبركات.

ولم نصل قرب العربة حتى انتزع الأرباب حقيبتي من يدي ورماها إلى الصندوق الخلفي المفتوح.. يا أربابي! الـ«أتشّار» السمكي الذي أعدته أمي.. والـ«أتشّار» الليموني الذي أعدته زينب.. تحطم قلبي.. وأسرع عبد الحكيم يضع حقيبته في الصندوق قبل أن يرمي بها الأرباب.. وكانت في حقيبته كثير من القوارير الزجاجية معبأة بأشياء مثل «أتشّار» وزيت جوز الهند.

فتح الأرباب باب السائق واقتحم المقعد.. ولم يكن المقعد يتسع إلا لفرد واحد بالإضافة للسائق. ونحن اثنان..! وليس في ذلك مشكلة.. هيا نتفسح.. هممت أن أفتح باب الجانب الآخر.. فصاح الأرباب في وجهي صيحة طيّرتني إلى الخلف.. أشار إلى خلف العربة.. ولم نبرح مكاننا ولم نفهم قصده.. أشار مرة أخرى.. «يالله» صاح الأرباب.. تميّز من الغيظ.. نزل من السيارة وانتزع يدي يجذبني.. طرحني في الصندوق المكشوف.. أسرع عبد الحكيم الذي كان يشهد المشهد يرمي نفسه إلى الصندوق.. شغّل الأرباب السيارة فورًا فسارت مسرعة.

وكان معنا في الصندوق تقريبًا ثلاثة قدور كبيرة من ألومنيوم، وقليل من البرسيم، وأكياس مربوطة كثيرة. جلسنا هناك كيفما استطعنا، متمسكين

بالقضبان الجانبية. وكانت السيارة تنهب الطريق رغم أنها قديمة جدًا إلى حد أنني ظننتها منحدرة من قديم الزمان.. علت منها أصوات مزعجة. وتبينت لنا سرعتها الحقيقية فقط عندما غادرت الطريق الفرعي ودخلت إلى الطريق الرئيس. كانت مئات السيارت تتجاوزها دون أن تلقي لها بالًا.. وهي لا تتجاوز إلا أدخنة سوداء تخرج من عادمها.

هذه رحلتي الأولى في طريق خليجي.. لم يعجبني طبعًا أن تكون في صندوق عربة. وفي الوقت نفسه فرحت بأنها أتاحت لي فرصة للاستمتاع بمناظر العمارات الشاهقة والمصابيح المتألقة على جانبي الطريق.. لا حائل بيني وبينها. ولو كنت داخل العربة مع الأرباب، لحرمت من متعة كل هذا الجمال الخليجي في أوضح صورها.. وهذا إلى أنه لم يرنا أحد من ركاب السيارات الأخرى بفضل الليلة الحالكة التي لفّعت الطريق بردائها.

لم أدر كم طال بنا هذا الجلوس المكشوف.. ولا كان عبد الحكيم أدرى مني به، وبدأت أضواء المدينة اللامعة تضمحل عن المنظر تدريجًا. واتضح لي أن الطريق الطويل قرب أن يودّع المدينة، وقل عدد السيارات التي تمر إلى جانبنا من حين إلى آخر، وأصبح الضوء منحصرًا حول مصابيح الشارع التي تظهر بين المسافات، وبعد أن سرنا هكذا طويلًا اكتشفت أننا فارقنا الطريق الرئيس سالكين طريقًا متفرعًا لا يأتيه النور إلا من تلك المصابيح على الشارع البعيد، نظرت إلى عبد الحكيم.. كان مستغرقًا في النوم.. لا شك أنه متعب من السفر الطويل.. تركته ينام.. وانتهى الطريق الفرعي أيضًا، وسلكنا طريقًا رمليًا معتمًا ليس فيه إلا الظلام الدامس، وسارت بنا العربة بين كثبان الرمال وهي تثير سحابًا من الغبار.

لم يدخل في بطني في ذلك اليوم إلا الماء القليل الذي حصلنا عليه من الطائرة قبل ساعات كثيرة، وعلى الرغم من إلحاح «شِـشي»، لم تسمح

لي نفسيتي المستعجلة حينذاك بتناول الفطور قبل السفر، ولم آكل شيئًا في الطائرة؛ لأنني لم أكن أعرف طريقة تناول تلك الألوان الغريبة، كنت حقًا جوعانًا.. الجوع الشديد الذى كنت أشعر به حينما أفرغ من عمل استخراج الرمل من النهر بعد أن يرسو على الشاطئ الزورق المشحون بالرمل. ولما أخبرت عبد الحكيم عن جوعي من المطار قال: إنه على وشك الموت جوعًا. وددت أن أصرخ بالأرباب قائلًا: «أوقف السيارة في مكان ما، واشتر لنا شيئًا من الطعام.. وقليلًا من الماء». ولكن الصوت ظل محبوسًا في الحنجرة ولم يخرج خارجها.. خفت أن أزعج أربابي بصراخي.. ولم نر في الطريق محلًّا للطعام.. وليس فيه إلا ظلام ساهر.. ولا بد أنه مرت علينا ساعة بل أكثر بعد ما سلكنا هذا الطريق الرملي.. بدأ ظهري يوجعني بسبب اهتزاز السيارة وارتجاجها.. وثار الغبار بشكل يتعذر علينا التنفس معه. «ما هذه الرحلة يا ربي..!» قلت دون وعي مني.

منذ تلك اللحظة، مثل ذبابة طنانة بدأ خوف مجهول يحوم حول قلبي. وضايقت صدري شكوك مجهولة.. هذه الرحلة لا تقودني إلى حياة الخليج التي نسجت حولها أحلامي.. تتسرب إلى الذهن فكرة غير مرحب بها.. أن هذا لا يشبه الخليج الذي سمعت كثيرًا عنه من الناس.. ويبدو أن هناك خطرًا يختبئ في مكان ما.. غير أنه لم يتبين لي.. وفكرت أن أخفف عن نفسي هذا التوتر بتقاسمه مع عبد الحكيم.. ولكنه كان في سبات عميق.. دعه ينام.. خمّنت أنه لو استيقظ على هذا الذعر والريبة لأجهش بالبكاء..

ولم أجد سبيلًا إلى معرفة الوقت.. لعنت مرة أخرى تلك اللحظة التي أهديت فيها ساعتي لـ«شَشي».. ولكن، هل يفيدني حتى لو عرفت الوقت..؟! إنما سنصل إذا وصلنَا.. أنا الآن في عربة أربابي.. في يده، آمنة حياتي ومزدهرة.. فلِمَ أقلق على الوقت..؟! رقدت في الصندوق مستندًا

برأسي إلى حزمة من البرسيم.. والنجوم في السماء قد نامت مخبئة أضواءها.. استلقيت على ظهري متأملاً في فضاء السماء المظلم. ومن شدة التعب، شعرت بضجيج العربة وصوت اهتزازها ترنيمةً لي في تلك الرقدة.. ولم يلبث أن غمرني النوم.

***

8

استيقظتُ على هزَّات الأرباب ليوقظني.. ولم أر حولي إلا ظلامًا يخترق العين.. لم أستطع تمييز المكان الذي وصلنا إليه.. ولم تعد العين قادرة على البصر إلا بعد فترة طويلة.. ما زال عبد الحكيم في نومه العميق كأنه ميت.. والأرباب يضرب غاضبًا على قضبان الحافة فيصنع صوتًا عاليًا.. انتفض عبد الحكيم مستيقظًا.. أشار الأرباب آمرًا بالنزول.. ولما هممت مستعجلًا أن أجمع أغراضي، منعني مشيرًا بسبابته إلى عبد الحكيم.. ولكنه لم يستفق تمامًا من غمرات النوم.. فلم يفهم شيئًا.. أصدر الأرباب زئيرًا كنمر هائج.. ولم نفهم ما كان يقول..

نحن مسكينان.. لا نعرف شيئًا.. لماذا تغضب علينا هكذا بلا سبب..؟ هل تعرف يا أرباب بأننا نكاد نموت من الجوع.. والعطش أشد من ذلك.. ولم يمض في حياتنا يوم مجاعة مثل هذا.. ضيافة كريمة..! وفوق ذلك، لمَ تغضب علينا بلا سبب؟ ولكن لماذا نؤنب أربابنا المسكين؟ ألا يكون مثلنا عطشاناً، جوعاناً، تعباناً؟ ربما يكون قد خرج إلى المطار ليستقبلنا قبل ساعات كثيرة.. في الوقت الذي كنا في الطائرة، كان يقود عربة قديمة كل هذه المسيرة الطويلة ذهاباً وإياباً.. ولم ينم قط.. وقد استرقنا النوم قدر ما استطعنا ونحن في الطائرة وصندوق العربة.. ربما ينتظر إيصالنا ليشرب شيئًا من الماء ويأكل شيئًا من الطعام ويأخذ شيئًا من الراحة.. فلك كل الحق يا أرباب أن تغضب كيفما تشاء.. ونحن المقصّرون لأننا نمنا ولم نستيقظ حتى بعد وقوف العربة.

قفز عبد الحكيم من الصندوق بحقيبته. وبدا لي أننا نزلنا أرضا (غير ذي زرع) لا يسكن بها أحد. ولم تقع عيني بمدى البصر على شجرة ولا بناية. وعلى امتداد الأفق تلوح ما يشبه الوديان أو الكثبان كأنها خريطة مرسومة. وتعالى في صدري صراخ وصل الحلقوم.. يا ربي.. ما هذا المكان الذي وصلنا إليه..؟!

مشى أمامنا الأرباب مشية من يعرف طريقه. وتبعه عبد الحكيم في تردد حاملًا حقيبته على كتفه. ما هذا..؟! ألسنا إلى شركة واحدة..؟ ألسنا معًا في الشغل والسكن..؟ لماذا أنزله الأرباب هنا لوحده في هذا الظلام..؟ لماذا تركني في العربة..؟ أين يذهب به في هذه الليلة..؟ وأمه قد وكلتْني به.. يا أربابي الظالم.. إلى أين تأخذ ذلك المسكين..؟ قفزت من السيارة متجرئا على أي شيء.. حاملًا حقيبتي، جريت ألاحقهما.. التفت الأرباب إليَّ.. رأيت عينيه المحمرتين من الغيظ حتى في ظلمة الليل.. سألته أشياء بلغتي الميلامية.. فحاول أن يطردني إلى السيارة بإيماءات غاضبة.. لما فشلت محاولاته، خلع حزامه وأداره في السماء دورة.. أفزعني الفحيح الذي انطلق منه.. وجدتني أرجع إلى العربة غصبًا عني..

وحتى في ظلمة الليل، يوجد في السهول نوع من الضوء.. أشعة منعكسة عن أرجاء السماء وآفاق الأرض النائية. ولما تأقلمت عيني مع ذلك الضوء، استطعت أن أرى الأرباب على البعد.. يقف أمام بوابة حديدية لحظيرة محاطة بسياج حديدي.. يتحسس في جيب ثوبه.. يستخرج مفتاحًا يفتح به قفل البوابة.. يدخل بعبد الحكيم إلى الداخل. شعرت برغبة ملحة (مختلطة بالخوف) في مشاهدة ما يجري في داخل السياج.. غير أن السماء لم تجُدْ عليَّ بضوء يكفي للرؤية.

والشيء الوحيد الذي استطعت أن أميزه في الجو كان هو ريحًا كريهًا لا عهد لي بها.. شعرت بأنها نفس الرائحة النتنة التي انطلقت من الأرباب.. وقد عرفت طبعًا أننا كنا نسير في الصحراء حتى الآن.. هل تكون هذه رائحة الصحراء..؟ ألَها رائحة كما يقال: إن للبحار العميقة رائحة مميزة..؟ وأول ما وقفت العربة، قد وجدت الجو هنا مشبعًا بهذه الرائحة.. تفكرت حينها ربما تكون ناتجة عن الغبار الذي أثارته العربة.

صار الأمر الآن أوضح.. اكتشفت بأنها تنطلق من ناحية السياج التي دخل إليها الأرباب بعبد الحكيم.. كأنها رائحة مخلوطة بروث الحيوانات ومسحوقات عظامها.. وهل تكون الشركة التي استقدمتنا مما يصنع مسحوق العظام..؟ وإن كان كذلك، فأين بناياتها..؟ أين المعدات والماكينات؟ أين أكوام المسحوق المنتج..؟ أين أنابيب العادم..؟ الله أعلم بذلك كله..

ظللت في صندوق العربة منتظرًا عودة الأرباب.. وكلّي فزعٌ يبتلعني.. بدأت أشعر أنني في خطر جسيم.. ويبدو أن عبد الحكيم قد أصبح محبوسًا في سجن الأرباب.. وسيأتي دوري لاحقًا.. ربما يريد لي سجنا آخرًا.. ينبغي أن ألوذ بالفرار قبل ذلك لأنقذ نفسي من هذا الخطر .. ولكن إلى أين..؟ ولا أرى من حولي إلا صحراء ممتدة.. وإن هربت، سأضل طريقي واتجاهي في الصحراء ويكون في الصحراء هلاكي حتمًا.. ولم أعد أطيق العطش والجوع.. فكيف أقدر على قطع المسافات..؟ قعدت مسمّرًا في الصندوق بدون حركة، رغم رغبتي العارمة في الهروب..

وبعد قليل، خرج الأرباب بمفرده من الحظيرة مقفلًا بوابتها من ورائه.. وحينها وجدتني أقفز من الصندوق فجأة.. هرعت إلى الأرباب.. سألته أين عبد الحكيم؟. لكنه مشى سريعًا إلى العربة بعد أن نظر إليّ بوجه عبوس، وسمعته يتكلم أشياء وهو يمشي.. طبعًا يتكلم بالعربية.. فما فهمت شيئًا.. دخل إلى العربة.. أسرعت إلى الصندوق..

وبعد أن سارت ما يقارب كيلومترًا، وقفت العربة في مكان آخر في الصحراء.. نزل الأرباب.. نزلت معه حاملًا حقيبتي.. تبعته إلى حيث توجه.. اصطدم نظري بخيمة على بعد يسير.. فهمت أن الأرباب يقصدها.. وبات الظلام في الخيمة، وليس فيها إلا ذلك الضوء الطبيعي الذي تحتفظ به الصحراء.. اقتربنا منها.. فخرج منها أرباب آخر، وهو رجل قصير القامة في ثوب عربي.. كأنه شخص من أشخاص الحكايات العربية القديمة.. وكان ثوبه ورائحته أسوأ من الأرباب الأول.

تحدثا قليلًا.. ثم رجع الأرباب الأول إلى العربة تاركًا إياي مع الأرباب الجديد.. أراحتني فكرة أن الأرباب ربما رجع بعد أن وكل بعبد الحكيم أربابًا آخرًا.. كنت خائفًا عليه.. وهو لا يزال طفلًا غير مميز.. ربما تركه الأرباب في زنزانة مظلمة..

وعلى بعد يسير من الخيمة، كان هناك سلسلة من سياج طويل. اكتشفت أن هذه الحظيرة أيضًا مصدر لتلك الرائحة الكريهة التي انبعثت من داخل الحظيرة التي ترك فيها عبد الحكيم.. وبدا لي أن هناك أشياء غير واضحة تتحرك داخلها. ورجع الأرباب الجديد إلى خيمته بعد أن أومأ لي إلى ذلك السياج. وكانت الخيمة مكشوفة من جوانبها الأربعة، وليس فيها شيء سوى السرير الذي استلقى عليه الأرباب.

اختلجت غمًّا.. يا أيها الأربابان.. انصرفتما بلا سلام ولا كلام بعد أن تركتماني بلا وازع من الضمير في الظلام أمام هذه الخيمة..؟ ألا تعرفان أنني جديد في الخليج..؟ هل أكلتَ شيئًا..؟ هل تريد ماءً..؟ هل أنت جوعان..؟ ما سألتماني عن شيء من ذلك حتى من باب المجاملة.. وما أريتماني أين مسكني؟ وما عرّفتماني على زملائي العمال!. أهذه هي آداب الضيافة التي

عُرف بها العرب منذ القدم؟ يا أربابي.. أيّ ربٍّ أنت..؟ أرجوك ألّا تخذلني.. لأنك حاضري ومستقبلي.. وأحلامي وطموحاتي..

ما أدري كم طال بي ذلك الوقوف في الظلام. ربما رجوت أن يرجع الأرباب الأول بعد قليل حاملًا في يده طعامًا لي..

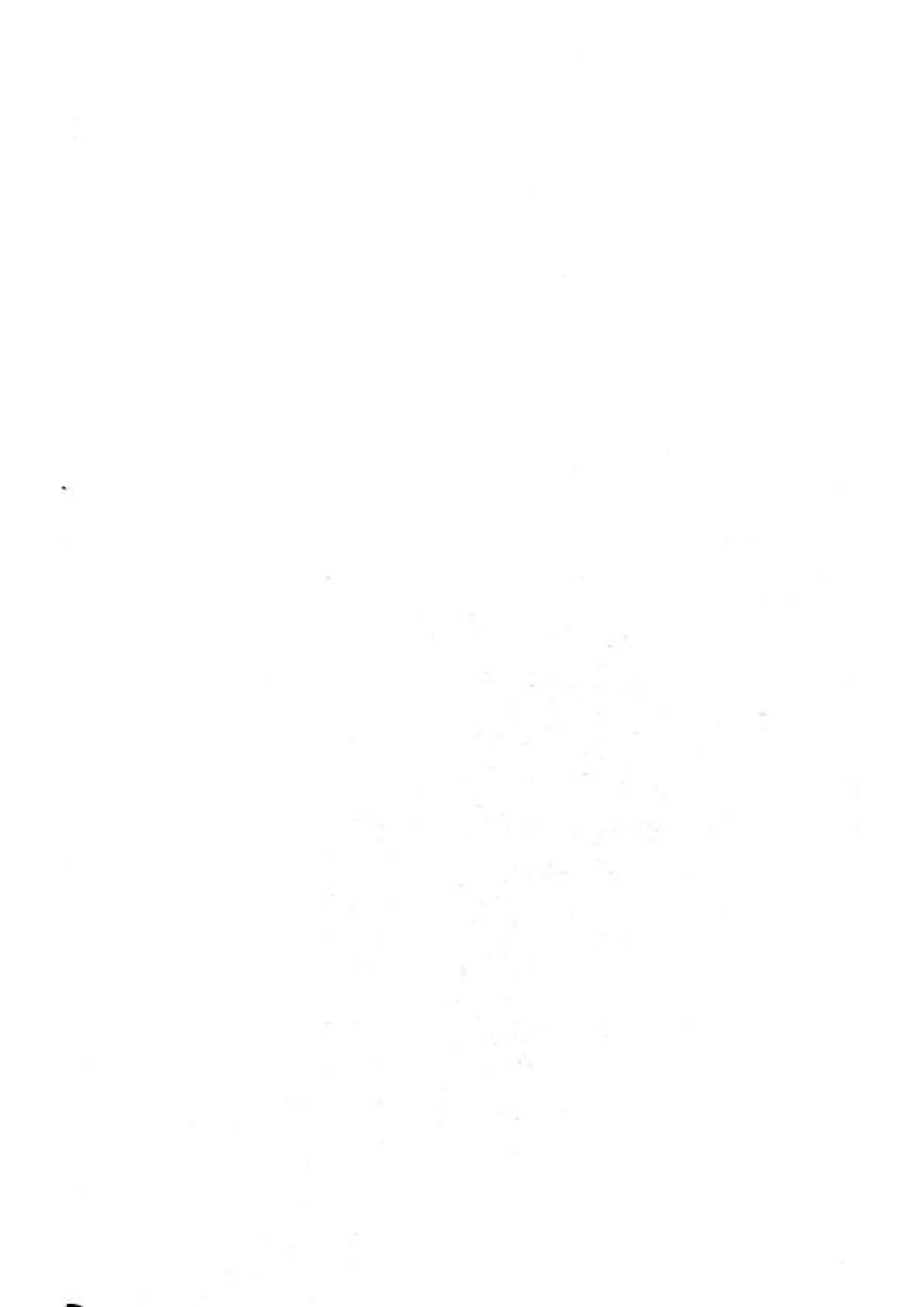
وقفت قليلًا راجيًا ذلك.. ثم مشيت إلى حيث أشار الأرباب بعد ما انقطع الرجاء..

بحثت عن مسكني هنا وهناك.. لكنني لم أجد شيئًا.. لا توجد حتى خيمة فضلًا عن مبنى سكني.. فجأة هاجمتني فكرةٌ.. إذا كان سكن أربابي هنا في حضن الصحراء في خيمة مكشوفة، فكيف سكني..؟!!

مشيت نحو السياج في قلق شديد.. وتراءى لي داخلها أشباح تتحرك.. تتقافز.. أصدرتْ فجأة مأمأة خفيفة كما لو تنبهت بحضوري.. وكانت تلك مأمأة ماعز..! نظرت بمجامع عيني إلى داخل السياج.. الغنم! مئات منها..!! قطيع كبير تتموج كبحر هائج.. وتبينت لي صورة مبدئية عن وظيفتي هنا.. وأحسست بأن داهية من السماء هبطت على رأسي..

وفي أهوال تلك الداهية، مشيت إلى الأمام بجانب العزبة. وبعد خطوات قليلة، فوجئت بسرير موضوع إلى جوار العزبة وعليه إنسان يقعد القرفصاء مطرقًا رأسه.. تحجرت مذعورًا من ذلك الشبح.

***



9

دنوت من ذلك الشبح الرهيب وجسدي يرتعش من الخوف. شعر متلبد كشعر بربري يعيش في الغابات.. لحية طويلة تمس أسفل بطنه.. قميص عربي ليس أوسخ منه.. وأضف إلى ذلك رائحة نتنة تطرد كل مقترب.

قد رآني أقترب منه.. ولكنه لم يَبْدُ حافلًا بي.. ترددت لحظة.. هل يكون حقًّا إنسانًا أم هو تمثال أو ميت..؟ صدرت منه ضحكة مباغتة.. ضحكة عالية مرسلة.. لم أدرك لحظتها ولا بعدها ما تعني تلك الضحكة وما هي مناسبتها.. ثم قال لي أشياء باللغة الهندية.. لم أفهم منها شيئًا لأنني قد أنهيت حياتي المدرسية في الفصل الخامس ولم تدعني حاجة إلى تعلم اللغة الهندية طيلة حياتي.. ربما فهمت اللغة العربية أكثر من اللغة الهندية!

ولكنني فهمت أن حديثه يجتمع فيه كل من التعاطف والاستهتار والامتعاض والاستياء والاستهزاء.. وكذلك صراخ مستنجد من مصيره المر.. والعواطف لا تفتقر إلى اللغات.

ثم انطرح على السرير كما تسقط أعجاز نخل منقعر.. ونام فورًا، ولم يلبث أن علا شخيره.

الآن صرت على بينة من المصير الذي وصلت إليه.. ومن وظيفتي التي يجب أن أقوم بها. وتصورتني لحظة كيف أتحول إلى شبح رهيب آخر مع مرور الأيام.. ينبغي أن أهرب قبل ذلك.. بل الساعة.. هذه اللحظة.. ولكن إلى أين..؟ إلى حيث أستطيع.. وكيف..؟ كيفما أستطيع.. الأرباب في الخيمة

مستغرق في نومه.. وهنا قد نام الشبح الرهيب.. ولا يراني أي أحد.. إن فررت الآن.. أين يمكن لي أن أصل؟ في أي طريق..؟ بأي اتجاه..؟ إلى أي مدينة..؟ ليس لدي جواب لشيءٍ من ذلك كله، وأصابني الذعر حينما قدّرت الوقت الذي استغرقته رحلتنا ومسافتها من المدينة إلى هنا.. وقد تمكن هذا الذعر من حبسي هناك دون أن أبرح مكاني.

تقدم الليل كثيرًا، وهبت رياح باردة ذكّرتني بجو كيرلا في شهر «مَكَرَم»[1].. وأنهكني إعياء السفر.. وأما الجوع والعطش فالسكوت عنهما أفضل.. وقد تعودت وأنا في البيت أن أنام في الساعة التاسعة بعد تناول العَشاء.. وقفت متخدرًا في تلك الأرض المقفرة دون أن أحصل على شيء للجلوس عليه فضلًا عن الاستلقاء.. اضطرني الوجع في رجلي إلى وضع الحقيبة جنب سرير الشبح الرهيب لأجلس عليها.. ولم أعد أهتم بـ«أتشارات» التي أعدتها لي أمي وزينب.. تلفَّتُ حولي.. لاح لي خزان ماء كبير إلى جانب العزبة.. دنوت منه في طمع.. وهناك حنفيات في أسفل الخزان.. فتحت واحدةً منها في شراهة.. يا سلام.. خرج منه ماء بارد.. عببته عبًّا حتى يرتوي ظمئي ويمتلئ به بطني.. وقد شربت ما يكفيني ليومين مقبلين كأنني خشيت أن يحظر عليَّ بعد اليوم شرب الماء.. ويا لها من راحة تلك التي أحسست بها عندذاك.. يا ربي.. لا أدري كيف أعبر عنها.. قعدت فاترًا تحت الخزان قليلًا من الوقت.. مشيت إلى سرير الشبح الرهيب.. جلست جنبه. ولما تملكني التعب، ألقيت نفسي على الأرض متوسدًا حقيبتي.. وحين شعرت بوجع في ظهري من ذلك الاستلقاء، ضحكت من نفسي.. من أحلام نسجتها..! سيارة مكيفة، غرفة نوم مكيفة، سرير وفوقه فراش وثير، وإلى جنبه تلفاز.. وهل أملك الآن إلا الضحك وأنا ملقى في هذا المضجع المكشوف..؟ ولبس

---

(1) الشهر الرابع في التقويم الملايالامي والذي تتوزع أيامه في شهري: يناير وفبراير.

أحد أسرع مني في معرفة الفرق بين الأحلام وواقع «الحياة الخليجية».. وهكذا انتهت «ليلة العرس» من حياتي الخليجية كأضحوكة عظيمة.

صحوت في الصباح على ضوضاء مئات الأغنام الثاغية. فتحت عيني والشمس قد كست الأرض ضوءًا غير أن أشعتها القوية لم تنتشر بعد.. قمت من الأرض ببطء.. أوجعني جسمي كله بسبب النوم على الأرض العارية.. وكنت قد غطيت نفسي ببطانية ربما استخرجتها من الحقيبة في هزيع من الليل دفعًا لبرد الصحراء.. لا أذكر متى فعلت ذلك.. ها هي ذي البطانية ملقاة في الرمال متغضنة متعفرة. ولم يكن الشبح الرهيب الذي رأيته البارحة موجودًا على سريره.. شككت أن يكون كابوسًا من كوابيس الليل.

جلست على السرير وتلفتُّ حولي. كانت الغنم أكثر مما توقعتها البارحة. امتد سياج العزبة الطويل إلى بعد كبير.. تم تقسيمها إلى زرائب تتضمن كل زريبة مئات من الغنم. ووراءها صحراء غير متناهية كأنها تلمس أطراف السماء.. ولا يحول دون البصر حتى رأس شجرة.. وهناك تلّ كبير في إحدى النواحي، أما النواحي الأخرى فكلها كثبان رملية لا يتجاوز ارتفاعها قامة رجلين أو ثلاثة رجال.. ولكنها تشوّه وجه الصحراء الأفقي المستوي.

وبعد قليل، خرج الشبح الرهيب فاتحًا باب الزريبة.. زالت عني الشكوك. وحينها استطعت أن أرى مظهره المخيف عن قرب وبوضوح.. قد تشكل الوسخ الملتصق طبقات متراكمة من جسمه.. وما أدري كيف أصف لكم الوسخ على شعره ولحيته.. ولا بد أنه قد مر على آخر استحمام له خمس سنوات على الأقل.. طالت أظفار يديه المقرفة ملتوية ومسودة بالأوساخ المتسربة.. ويبدو كأنه ما غسل ثيابه منذ قرن.

وجاء الشبح الرهيب بكوب كبير من الحليب. وقدّم لي قليلًا منها وهو يقول لي شيئًا باللغة الهندية. وكان الحليب ساخنا كأنه قريب العهد بالنار. تعجبت أن ضروع الغنم حارة لهذه الدرجة.. شربت الحليب كله ظانًا أنه ربما أمرني بشربه.. كنت ممن يحب الحليب الساخن.. وكنت أعيش على العطش والجوع منذ يوم.. فلم أبق في الكوب شيئًا.. فلكزني الشبح الرهيب على رأسي وهو يهمهم كأنه أراد أن يسألني شيئًا أو ربما كان يسبني.. ولكن محاولاته فشلت أمام حاجز اللغة.. بدا عاجزًا غاضبًا وهو يمد إلي كوبًا آخر لأعطيه للأرباب.

دخلت بالحليب إلى خيمة الأرباب وهو مستلق على سريره. ولم يكن أقل وسخًا من الشبح الرهيب.. كان جسده موطن رائحة كريهة مغلف بثياب رثة.. لم أجد فيه شيئًا يدل على استحمامه القريب. جلس الأرباب وهو يتثاءب.. أخذ مني الكوب.. شرب الحليب كله في رشفة واحدة. وكان في الكوب، على ما أظن، ما لا يقل عن خمسة لترات من الحليب..!

ردّ إليَّ الكوب وهو يسألني عن شيء. وطبعًا لم أفهمه. اجتهد كثيرًا أن يُفهّمني قصده بكلمات عربية مختلفة، غير أنه لم يدخل إلى رأسي شيء منها.. خبط الأرباب على الأرض غاضبًا.. فلم أتمالك نفسي من حبس الدموع التي كنت أكفكفها إلى الساعة.. أجهشت بالبكاء أمامه.. ولا أدرى لماذا فعلت ذلك!. بكيت بكاء شديدًا.. لعل تلك الدموع فيضان حزن وغضب وجوع انحشرت في داخلي منذ يومين.. وكنت أتذمر باكيًا: «لا أطيق هذا.. أريد أن أذهب.. وما جئت لهذا العمل..» علمت جيدًا أنه لا يفهم شيئًا من كلامي إلا أنني ظننت أن من واجبي أن أتظلم إليه.. أو ربما رجوت أن أسترحمه ببكائي.. ولكنه طردني في غيظ ودفعني إلى الخارج. ذهبت باكيًا نحو سرير الشبح الرهيب وجلست جنبه.. كان الشبح الرهيب مشغولًا بأعماله.. ما ألقيت إليه بالًا.. كانت عيناي وقلبي تفيض بالبكاء جميعًا.

كان الشبح الرهيب يتحدث إليَّ عند دخوله إلى الزريبة وخروجه منها أثناء عمله.. بدا لي مما أوحته تغيرات صوته أنه ربما كان يعرّفني على بيئة العمل الجديدة أو يواسيني أو يشاركني في حزني.. وقد أدهشتني اللامبالاة التي تميز بها وجهه وصوته حتى حين يتحدث.

أسفر الصبح واضحًا. كانت الشمس حارة ولو لم تنصب أشعتها بعد. أطلق الشبح الرهيب الغنم من زريبتها.. خرجتْ تركض من حولي وأفاضت إلى الصحراء. وتبعها الشبح الرهيب تاركًا إياي لوحدي..

جاءت سيارة.. نزل منها الأرباب الأول الذي أوصلني هنا البارحة.. ولكنه جاء اليوم في سيارة كبيرة أحسن من عربة الليلة البارحة، وتكفي لعائلة كبيرة.. وما كنت لاحظت حتى الآن أن عربة البارحة لا تزال هناك، متنحية بعيدة.. فربما رجع الأرباب البارحة في السيارة الجديدة..

شعرت بالراحة حينما رأيت أربابي الأول.. هرولت إليه.. ولم ألمح على وجهه غيظ البارحة.. غير أنه لم يلتفت إليّ كأنني غير مرئي له. مشى إلى الخيمة بعد أن أخذ أغراضًا من حقيبة سيارته.. مشيت خلفه ككلب يتبع صاحبه محركًا ذيله.. وعند اللقاء تعانق الأربابان وهما يتبادلان تحيات كثيرة استغرقت على الأقل خمس دقائق.. وبينما هما يتحادثان، ألقيا عليَّ نظرات عابرة فهمت أنهما يتحدثان عني. وبعد ذلك، رجع الأرباب الأول إلى سيارته جامعًا في يده أكياسًا كثيرة حمّلها في حقيبة السيارة ثم سلّم على صديقه وابتعد بسيارته.

***

10

كنت لا أزال أبكي وأنا واقف خارج الخيمة عندما جاء الأرباب يربت على كتفي وهو يتفوه بكلمات يبدو أنه كان يريد أن يواسيني بها.. كلماته حقًا خففت من بكائي وإن لم تنجح في مواساتي..

دخل الأرباب إلى الخيمة وفتح كيسًا يعطيني منه شيئًا يشبه «تْشَابَاتي». «كُبُوسْ» (خبز).. لقد سمعته بوضوح وهو يقول تلك الكلمة:. أهذه هي الـ«كبُوسْ»..؟ كأنني سمعت الكلمة من قبل.. ربما كان ذلك من أولئك الذين كانوا يملأون حلقات الحديث على شاطئ النهر بحكايات مغامراتهم في حياتهم الخليجية.. «كُبُوسْ»..!

أشار إليَّ بالأكل.. ولكني لم أكن فرّشت أسناني في الصباح ولم أقض حاجتي ولم أستحم.. لا أشرب في الصباح وأنا في بيتي حتى كوبًا من القهوة إلا بعد أن آخذ حماماً سريعاً في النهر، سواء كان ذلك في أيام المطر أو البرد القارس.. وهذا أول يوم تختل فيه عاداتي كلها.. لقد شربت كوبًا من الحليب في الصباح الباكر بدون تفريش الأسنان.. الجوع الذي كان يصطحبني منذ يومين حملني على ترك نظام حياتي المعتاد.. جلست خارج الخيمة وحشرت فمي بذلك الأكل الجديد الذي يسمى الـ«كُبُوسْ» في نهم شديد، على أني لم أجد شيئًا أغمسها فيه لأخفف من خشونتها. ولا شعرت بحاجة إليه.. كانت الـ«كُبُوسْ» لا تزال حلوة ساخنة لأنها معدة صباح اليوم. و كلما أجهدت أسناني في كسرها همهمت في حماس: «كُبُوسْ».. «كُبُوسْ».. أكلت أربعة منها حتى تشبع شراهتي.. واستقر معها اسمها في نفسي وبطني بشكل لا يمكن محوه أبدًا.

بعد الأكل، أعطاني الأرباب كوبًا من الماء.. شربت ذلك.. قدّم لي «كُبوسا» آخر.. أومأت له بعدم حاجتي إليه.. كنت شبعانًا ومرتاحًا.. وقد فرحت بعنايته بي.

وصل الشبح الرهيب راجعا بالأغنام. ساقها إلى الزريبة وجلس أمام الخيمة. أعطى له الأرباب حوالي ست كبوساتٍ.. أكلها كلها في دفعة واحدة بغمسها في الماء. وشرب فوقها إبريقًا من الماء ثم انصرف صامتًا. وكنت أنظر إلى وجهه وهو يأكل.. لم أر فيه إلا «حياة» جفت آلامها وأحزانها بعد طول العهد. واستأنف عمله بدون استراحة ولو للحظة واحدة.

مشى الأرباب إلى السيارة وعاد بثوب وحذاء.. قدمهما إليَّ.. نشرت الثوب.. انطلقت منه رائحة تثير الغثيان.. كانت متسخة إلى حد كبير. قال وهو يمسك بقميصي وسروالي: «شيل هادي .. شيل هادي..» كرر ذلك ثلاث مرات حتى فهمت أنه يريدني أن أخلع قميصي وسروالي فخلعتها.. كأول خطوة إلى تنتين نفسي وتحويلها إلى شبح رهيب آخر، لبست على مضض ذلك الثوب النتن.. خلعت حذائي الجلدي الجديد الذي اشتريته من البلاد قبل السفر واستبدلته بذلك الحذاء المتسخ.. رغم أني كنت على بينة من الأمر، إلا أنني أحببت لحظتها أن أطيع أربابي في كل أوامره بموجب امتناني الشديد له على الـ«كُبوسْ» التي قراني بها قبل قليل.

قال لي الأرباب شيئًا بالعربية مشيرًا إلى الشبح الرهيب. ولم أستطع أن ألتقط من كلماته الكثيرة إلا كلمة «مَسَرَة» (مزرعة) فقط. وعلى اعتقاد مني أن الكلمة تدل على الماء، أخذت سطلًا واتبعت الشبح الرهيب طائعًا له. ونزحت الماء من الخزان ملأ السطل.. حملته إلى الزريبة.. صببت الماء فى حاوية كبيرة شققت الطريق إليها بين رؤوس الأغنام. وكانت عبارة عن

حوض مبني بالإسمنت بطول حوالي ثلاثة أمتار وعرض متر واحد وارتفاع ثلاثة أرباع المتر. وتم تقسيم الزريبة إلى عدة أقسام، يتراوح عدد الغنم في كل قسم بين خمسين ومائة. وكان هناك حوالي خمسة وعشرون قسماً، وفي كل واحد منها حاوية ماء بالإضافة إلى حاويات الشعير والتبن والبرسيم.. والأغنام تأتيها تأكل وتشرب على راحتها.

ولما فرغت من تعبئة حاوية القسم الأول، فتح الشبح الرهيب القسم الثاني وأطلق الغنم التي فيه.. انطلقت القطيع راكضة إلى الخارج. قال لي شيئًا بالهندية أو العربية مشيرًا إلى حاوية القسم وهو يهم أن يخرج لمتابعة الأغنام.. ولم أفهم مما قال إلا كلمة «ماين».

التبست عليَّ الكلمة.. «ماين»؟ ما هو؟ أهو ماء أم حاوية؟ وإن كان كذلك فما معنى كلمة «مَسَرَة».. (مزرعة) التي سمعتها من الأرباب؟ ما هي الكلمة التي تدل على الماء..أهي مَسَرَة أم ماين؟ الله أعلم.. مهما كانت معانيها.. إنما مهمتي الآن تعبئة الماء.. يجب عليّ أن أقوم بذلك. وقد ملأت الماء في الحاوية قبل أن يرجع الشبح الرهيب بالأغنام.

قمت بتعبئة الماء في حاويات القسمين: الثالث والرابع.. ولم يكن ذلك عملًا سهلًا.. قد أوجعني ظهري بسبب نقل الماء.. كنت عطشانًا جدا تحت الشمس التي تحترق فوق رأسي.

وقبل أن يغادر الشبح الرهيب بغنم القسم التالي، خرج الأرباب من الخيمة يقول له شيئًا بالعربية. فهز رأسه بالسمع والطاعة.

أعطاني الأرباب عصا طويلة.. استلمتها بكلتا اليدين.. خُيّل إليَّ أنها «حفلة تتويج» لراعي غنم.

ذهبنا معًا بالأغنام إلى البادية.. ما تقدمنا قليلًا حتى ناداني الأرباب من الوراء وهو يصفق يديه.. مشيت إليه راجعًا.. وضع في يدي شيئًا.. نظرت فيه أقلبه في يديّ.. كان ذلك منظارًا على حد علمي..

لم أفهم لماذا أعطانيه!. هممت أن أذهب به وراء الغنم ظانًّا أنه ربما أعطانيه لأعثر به على نافرة أو شاردة من الأغنام..

«شوف..شوف..»

شجعني الأرباب على النظر منه.

أعجبني ذلك.. كنت أرى المنظار لأول مرة.. نظرت من ماسورتيه.. يا الله.. أدهشني ما رأيت.. ما أوضحه..! لمحت الأشياء على بعد عدة كيلومترات بوضوح.. حتى الأغنام البعيدة بما على جلودها من خطوط وبقع. أدرت النظر حولي في الأراضي المحيطة بنا.. فرحت بالمنظر..

شووف؟!

سأل الأرباب.

هززت رأسي مجيبًا له.

واسترد المنظار من يدي وأرجعه إلى الخيمة. ثم رفع وسادته واستخرج من تحتها مسدسًا ذا ماسورتين.. جاء به خارج الخيمة ورفعه إلى السماء.. كان هناك طائر يحلق في أعلى السماء. أطلق الأرباب الرصاص على غرضه فإذا به يسقط على الأرض منقطعًا عن عالم السماء.. وقفت مفزوعًا.. نظر إليّ الأرباب وعلى وجهه ابتسامة منثنية من طرف شفتيه.

شووف..؟

سأل الأرباب مرة أخرى. هززت رأسي بالموافقة.

«يا الله، رووح».

أرسلني على أثر القطيع. وتيقنت تلك اللحظة أن حياتي حقًّا شُدّت وثاقها بهذه الأغنام بصورة لا أملك منها فكاكًا أبدًا.

***



11

كحيّة تنسلخ عن جلدها، خرجتُ إلى البادية منسلخًا عن مائة حيلة للهروب.. كنت استجمعتها في ذهني البارحة.. وأصبحت في حالة نفسية لا يحكمها إلا شرود الفكر والفوضى.

وقد ابتعد عني الشبح الرهيب مع أغنامه بعيدًا جدًا. تأملت الصحراء.. كانت مختلفة تمامًا عن تلك الصحراء التي سمعت عنها أو نادرًا ما رأيت صورتها.. حينما كنت أسمع كلمة الصحراء، تتبادر إلى الذهن أمواج الرمال الهائلة وكثبانها.. أما هنا لم أر شيئًا منها.. أراض صلبة وسفوح ذات صخور.. وقد رأيت مثلها في شمال بلادنا الهند.. والفرق بينهما أن في بلادنا يوجد نبات على التراب والصخور بينما لا تلوح هنا بقعة خضراء.. أرض عقيم ميتة.. لكن، لماذا نأتي هنا في سبيل البحث عن مراعي الأغنام؟! لاحقني الشك..

لا تجد الأغنام شيئًا تأكله.. إنما ترعى هنا وهناك تستنشق الأرض بحثا عن الكلأ بطبيعتها الغريزية. مشيت طويلا حتى وصلت مع الشبح الرهيب وأغنامه. كان الشبح الرهيب قاعدًا على صخرة تاركًا الأغنام تسيم. قعدت على صخرة أخرى إذ لم أجد شيئًا أفعله ولم أعرف ماذا يجب أن أفعله. وددت أن أسأله عن أشياء كثيرة.. لكن.. اللغة..! وإنما الوسيلة الوحيدة بيننا الآن هي الإيماءات.. ولكنه كان يجلس غير عابئ بوجودي بجانبه فضلًا عن أن ينتبه لإيماءاتي. إلى أين ينظر هو..؟ لا إلى الأرض ولا إلى السماء.. وإنما كانت نظرات شاردة. وبعد قليل، نهض من جلسته وأخذ في جمع شمل القطيع. وكان ذلك مهمة مرهقة. وهناك ما بين خمسين ومائة من الغنم.. يركض هذا

إلى يمينه بينما ذاك إلى يساره ولا يسيطر عليهما حتى يجري الثالث إلى اتجاه آخر. وبعد جهد جهيد بذله مع الأغنام، اتجه الشبح الرهيب إلى الزريبة. وإنما كانت مهمتي هي مشاهدة أعماله نظرا لعدم إتقاني لشيءٍ منها.

ولما اقتربنا من الزريبة قال لي شيئًا بالهندية.. خمنت أنه يريدني أن أدخِل الأغنام إلى الـ«مَسَرَة».. وهو سيأتي لاحقا.

«أجل.. فتعني كلمة مَسَرَة زريبة الغنم.. فلا تكون «مَايِن» إلا للماء.. أيتها الكلمات العربية.. تفضلن إليّ واحدة بعد أخرى..

أدخلت الأغنام إلى الزريبة.. جاء الشبح الرهيب بأعلافها.. أحضرنا معا الشعير والماء إلى الـ«مسَرَة».. «مَسَرَة»... قلت كذلك..؟ هل لاحظتم أنني بدأت أستوعب الكلمات العربية بهذه السرعة..!

دخلنا إلى «المَسَرَة» التالية.. خرجنا إلى البادية نسيم الغنم التي فيها.. هكذا تكررت عملية الذهاب والعودة بالأغنام في ثلاث مسرات.. حتى صرت على شيء من المعرفة بالأعمال. وليس القصد من أخذ الغنم إلى البادية لترعى على كلأها.. بل كانت تنشيطًا لها وتمرينًا صباحيًا لجوارحها لكي لا تموت حيويتها من الحبس المستمر في «المَسَرَة» المغلقة.

ازدادت حرارة الشمس التي تشتعل فوق الرأس. انتهينا من رعي الأغنام من جميع المَسَرات، وتقديم العلف والماء لها. وخلال ذلك، طرأ لي أمر خطير جدًّا.. شعرت بالاندفاع إلى قضاء الحاجة.. كانت المرة الأخيرة التي قضيت فيها حاجتي قبل الركوب على متن الطائرة.. مرت البارحة من غير ضرر لأني كنت صائمًا تمامًا. ولكن اليوم، وقد أكلت في الصباح أربعة «كُبُوس».. هي التى تدفع الآن.. أين أقضي هذه الحاجة؟! وبالنسبة لي، لا يحتاج الأمر إلى ستار جدران المرحاض الأربعة.. ولست ممن تعوّد على ذلك.. لو كنت في

بلادي الآن، لالتجأت إلى وراء هذه الأدغال أو تلك الأعشاب على شاطئ النهر.. كل شيء سهل هناك.. وبعد القضاء أنزل إلى النهر للاستنجاء.. ولكن هنا لا يمكن لي أن أفعل شيئًا من ذلك.. وحولي صحراء مكشوفة.. الإنسان يحتاج إلى شيء من حجاب في بعض شؤونه، وإن كانت مما يفعله ويعرفه الجميع.. أليس كذلك..؟ على أني كنت مترددا في أن أصارحكم بهذه الواقعة.. لكنني في النهاية قررت أن أقولها لكم.. لأني أحببت أن أكشف لكم عن الحالات التي نعتبرها عادة من أتفه الأمور في الوقت الذي يتضرر فيها بعض الناس وتؤدي بهم إلى مضايقات نفسية عظيمة. وبدون ذلك، فما الفائدة من هذه القصة..؟

صحيح كل ذلك.. ولكن القضية هنا ليست مما أملك السيطرة عليها.. لقد استولت على بطني وعكة تتفاقم في كل لحظة.. انسحبت إلى وراء «المَسَرَة» حيث يحول بيني وبين الشبح الرهيب والأرباب حائل رقيق تصنعه مَسَرَة الغنم.. اكتفيت بذلك.. وقضيت حاجتي مغمض العينين.. الحمد لله الذي أذهب عني العذاب وعافاني.. هذه هي الراحة التي لا يعادلها شيء من الراحات في العالم.

وكقطة، واريت «سري» بالرملِ والحصى وقمت.. ومن ثم برزت مشكلة الاستنجاء.. كان حلها سهلًا عليّ.. إذ هناك ماء غزير في الخزان.. سآخذ شيئا منه في دلو ثم آوى به إلى وراء كومة التبن أو البرسيم.. هكذا فعلت.. استترت بكومة التبن والبرسيم وفي يدي دلو من الماء.

وقبل أن تقع على دبري القطرة الأولى، وقع على ظهري سوط.. تكمش ظهري من تلك الضربة المباغتة على حين غرة.. انتفضت ملتفتًا في رعب، فاذا بالأرباب وعيناه مندلعتان بالغضب..! لم أفهم شيئًا.. ما هي الجريمة التي ارتكبتها..؟ هل قصَّرت في شيءٍ من عملي..؟ وهل اجترحت شيئًا ممنوعًا؟

تكالب عليّ الأرباب مختطفا الدلو والماء من يدي.. قذفني بالشتائم في صوت عالٍ.. وخلع حزامه يضربني به.. كلما حاولت أن أدفع ضرباته في شكل أو آخر زادني ضربًا وشتمًا.. حتى سقطت على الأرض.. فانصرف إلى الخيمة حاملًا بيده الدلو.

وكلما فهمت من كل شتائم الأرباب وضرباته أنه يريد أن يعلمني أن «هذه المياه لسقاية أغنامي.. لا لتغسل بها دبرك.. أنت لا تعرف ثمنها.. فلا تأخذ منها شيئًا لمثل هذه الأشياء الغير الضرورية مرة أخرى.. وإن عدت للمسها لأقتلنك»

هكذا تعلمت الدرس الأول.. هو أنني مجرم إذا استنجيت بالماء بعد «التبرز»..!

قمت في اشمئزاز شديد.. لم يسبق في حياتي شيء أبشع من هذا.. أنا من أبناء الماء.. وبدونه لا راحة لي.. وكانت النظافة من المبادئ التي تقوم عليها حياتي.. حتى كنت أنكد على زينب إذا لم تستحم مرتين في اليوم.. أما أنا فقضيت كل يومي في الماء بموجب عملي..! ولكن هذه الأيام كانت بداية اختلال نظام حياتي كلها.. وكان منع الاستنجاء بلا شك أثقل شيء عليّ.

مشيت راجعا نحو السرير.. جلست جنبه على الأرض.. والشبح الرهيب يجلس عليه يأكل «الكبّوس».. مد إليّ ثلاثة منها.. ولم أكن أطيق حتى التفكر في الأكل قبل الاستنجاء.. نحّيتها إلى الجانب دون أن تمسها يدي.

وحينها، لاحظت منظرا على البعد.. قطارا من قطيع الإبل.. خمسين منها على الأقل.. تتقدم في صف واحد.. منظر رائع فعلا.. في مقدمتها أكبرها.. ثم الأكبر فالأكبر.. تمشي بدون أحد يحدوها أو يقودها.. إنما تختار طريقها وتسيره بنفسها.

اقتربتْ منا.. أول مرة أرى الإبل.. تأملته معجبًا مستغربًا.. خُيّل إليّ أن حاجبيه الضخمتين تنبئان عن جميع قساوات الصحراء الغامضة.. ومنخراه لا يزالان ينفتحان وينغلقان كخيشومي السمك.. فمه عريض.. عنقه قوي.. وشعره الكثيف يشبه أعراف الفرس.. وفوق رأسه أذناه كقرنين منتصبتين.. والذي أعجبني أو أوجلني أكثر هو نظراته الشاردة غير الحافلة بشيء.. نظرت إلى عينه مرة واحدة فقط ، سرعان ما سحبت منه عينيّ كأنني كنت أنظر إلى شمس الظهر.. أحسست بأن عينه تكمن فيها غوامض الصحراء وفسحتها وشراستها ووحشيتها.. ونظراته الشاردة توحي أنه يستحيل التغلب على ذلك كله..

أود أن أقول: إن الإبل ما هي هي إلا تجسيد للامبالاة والانقياد..

عَبَرَ القطيع أمامي ودخل بنفسه إلى إحدى الزرائب.. كانت تلك «مَسَرَتها» الخاصة.

***



12

حُمّلت مسؤولية تعليف وسقاية الجمال التي وصلت راجعة من تجوالها. دنوت من «مَسَرَتها» وأنا أشعر بخوف منها..

هل الجمل من الحيوانات المؤذية للإنسان..؟ وإن كان كذلك، فكيف يواجه عدوه؟ بالرفسة..؟ أو بالعضة..؟ أو النطحة..؟ أم بالخبطة.؟ ليس لدي فكرة.. ولكن يجب عليّ أن أدخل إلى «مَسَرَتها» لتعليفها وسقايتها.. ولم يكن أمامي أن أتراجع عن واجبي بحجة الخوف.. لأن من ورائي أرباب شرسا ذا عينين ثاقبتين.. وهو أخوَف عندي من الجمال التي تؤذي الإنسان. مخاطرًا بنفسي، دخلت إلى «المَسَرَة» في عزيمة.. وقد علفتها بالبرسيم وسقيتها الماء.. كنت أتوقع في كل لحظة رفسة أو عضة كلما تسللت من خلال الجمال وبين أرجلها.. واتضح لي اليوم – كما في الأيام التي تلته – أن الظروف قد تعلّم الإنسان كيف يتغلب على مخاوفه؟

ومهما كان من شيء، فلم تؤذني الجمال كما ظننت. قدّمت لها أربع حاويات من الماء، وثلاثًا من البرسيم، وحاويتين من الشعير، وثلاثًا من التبن.. ولما فرغت من المهمة، كان ظهري فعلًا شبه منكسر.. وكنت أتوسل الشبح الرهيب بنظراتي وإيماءاتي أن يعاونني؛ ولكنه كلما همَّ أن ينهض ليساعدني، منعه الأرباب. تبين لي حينذاك أن ذلك عقاب لي على جريمة سرقة الماء للاستنجاء.

وعدت مُنهكًا نحو سرير الشبح الرهيب وجلست إلى جانبه على الأرض. ولما هدأ اللغوب واللهاث، شعرت بالجوع يستبد بي.. هناك تلك الكُبُوس التي أعطانيها الشبح الرهيب قبل قليل.. لم أتريث.. ولم أعد أتزعج بعدم الاستنجاء.. ولم أتذمر من عدم النظافة.. بل التهمت في دفعة واحدة أربعة «كُبُوس» ضخمة بعد غمسها في الماء.. وعببت عقبها قدحين كبيرين من الماء.

ولما انتهيت من الأكل، ناداني الأرباب إلى خيمته يُلقي إليّ ببعض التعليمات والتوبيخات.. وقفت مطرقًا رأسي.. متظاهرًا بأني أستمع إليه وأعي كل ما يقول.. واتضح لي مدى جسامة الجرم الذي ارتكبته رغم أني لم أفهم شيئًا من كلامه..

وحانت ساعة الاستراحة. تلفتُّ حولي بحثًا عن مكان ظليل.. لم أجد فيما حولي قط شيئًا يمكن أن يُسمى ظلا.. فقط الشمس في كل مكان وحرها الحارق.. إلا في خيمة الأرباب التي يستأثر بها كأنها قصر سلطان.. لا يُسمح لأحد بالدخول إليها.. ولا أنا شجاعٌ حتى أتسلل إليها.

وكان الشبح الرهيب في نعاس هادئ غير مبالٍ بالشمس.. يستلقي على سريره ويغطي وجهه بقطعة قماش.. تفكرت أن الشمس تفشل أن تضرب جسمه المتسلح بالأوساخ المتراكمة عليه. حاولت أن أدفعها بمنشفة مطوية وضعتها فوق رأسي.. وجلست جنب السرير.. لم أزل أجلس هكذا حتى اكتشفت ظلًا مختبئا تحت السرير.. وخُيِّل إليَّ وقتها أنه هو الاختراع الأعظم في العالم.

وإذا كانت أهمية الاختراع تقدَّر على أساس ضرورته والظروف التي تقتضيه، فلا شك أن هذا بالنسبة لي أعظم من جميع المخترعات. ولطالما

عرّض الشبح الرهيب نفسه للشمس تأكله وهو فوق سريره.. ولم يكتشف هذا الظل القريب..! انسللتُ إلى تحت السرير في فرح مفرط واستلقيت على الرمال الحارة التي وجدتها في تلك اللحظات أروح مضجع اضطجعت عليه.

لم يكد النعاس يسبل جفوني حتى أيقظني النداء. كما فعلنا في الصباح، خرجنا بالأغنام نسيمها في البادية في مجموعات. وقد فهمت الآن كيفية تصنيف الأغنام و«مَسَرَاتها» بشكل أوضح. «مَسَرَة».. للعنزات الحلوب، وأخرى لماعز الضراب جامعة بين الذكور والإناث.. والثالثة مخصصة للصغار في أحجام وأعمار مختلفة. والرابعة للضأن بما فيها الشياه والنعاج.. والأخيرة للجمال.

قبل أن نخرج لرعي المجموعة الأولى، فتحنا باب «مَسَرَة».. الجمال.. فانطلقت الجمال تخرج بنفسها متخذة طريقها في الصحراء.. وعندما رجعنا بعد رعي المجموعة الأخيرة، كانت الجمال قد ارتدت راجعة إلى «مسرتها». وبعد ذلك تأتي أعمال الظهر.. الماء، والتبن، والبرسيم، والشعير...

جاء الشبح الرهيب بإناء كبير. دخل به إلى «مَسَرَة».. الحلوب، أنا أيضًا ذهبت معه. بدأ يحلب واحدة بعد أخرى.. كنت مجرد واقف يتفرج.. سرعة عمله فائقة جدًّا.. قد ملأ ذلك الإناء الكبير في جلسة واحدة.. حملناه معًا إلى الخارج.. ظننت أن الحليب للبيع.. لكن جاء الأرباب يشرب منه ما شاء.. ثم شرب الشبح الرهيب كوبين من الحليب.. وقال لي أيضًا: اشرب ما شئت، إلا أنني لم أقدر أن أدنو منه بسبب رائحته الغليظة.

نقل الباقي كله إلى «مَسَرَة».. أصغر الحملان سنا. وسرعان ما التفّت الحملان حول الدلو متقاتلة في الولوج إليه برؤوسها كأنه كان «كادي»[1]..

(1) الماء المطبوخ فيه الأرز، يقدمه المربون في كيرلا لماشيتهم.

وهنا لاحظت شيئًا – أشياء جديدة بدأت تخرق ذهني وعيني– **إنه يُفرّق** بين الرضيع وأمه في «مسرتين» مختلفتين!! ولا رضيع يرضع **ضرع أمه.** بل تحلب الأمهات جميعا دفعة واحدة.. يجمع حليبها في **دلو واحد.. ولد** أمّ يشرب حليب أمّ أخرى.. أليس الولد يعرف أمه من **خلال التشمم** واللعق والاحتكاك؟. وهل يوجد فرق في ذلك بين الغنم والكلب والبقر والإنسان...؟ أهذا المشرَب الجماعي يستهدف قطع العلاقة الروحية **بين الأم** وولدها؟ آه، الله أعلم، لكن هكذا عادة العرب، أو على الأقل، **هكذا عادة** أربابي.. ولا خيار لي إلا اتباعها، فما الفائدة في القلق والتفكير فيها..؟!

امتدت الظلال. واختبأت الشمس وراء طيات الصحراء. وقَدِم الليل مفترشا ظلامه. وحضر أرباب الليل.. أنزل المواد الغذائية والماء من السيارة.. وانصرف بعد ما حمّل فيها أرباب النهار أشياء أخرى.

وكان من بين ما أحضره أرباب الليل «الكُبّوس».. فقط «الكُبّوس».. **لا** مرقة. واتضح لي كيف تكون قائمة الطعام في حياتي الباقية!

في الصباح الباكر الحليب الطازج من الضرع الساخنة، إن كنت راغبا فيه.

الفطور «الكُبّوس» والماء

الغداء «الكُبّوس» والماء

بعد العصر الحليب الطازج من الضرع الساخنة، إن شئت.

والعشاء «الكُبّوس» والماء

إضافة إلى ذلك – فقط عند الضرورة الشديدة – الماء الفاتر شبه المغلي من الخزان الحديدي..

استلقى الشبح الرهيب على سريره بعد أن فرغ من أعمال الليل.. فرشتُ بطانية على الأرض.. كان الأرباب في خيمته.. أردت أن أسأل الشبح الرهيب عن أشياء كثيرة.. ولكن لم تمض خمس دقائق حتى علا صوته بالشخير.

استلقيت وحيدًا متوسدًا حقيبتي التي انبعثت منها رائحة المخللات.. تذكرت عائلتي.. تذكرت أمي.. وزينب وولدي (أو بنتي) المحبّوب الذي لا يزال ينمو في بطنها.. لا بد أنهم قلقون عليّ لأني لم أتصل بهم بعد الوصول هنا إلى «الخليج».. كنت على وشك البكاء من تلك الذكريات.. اختلجت غمًّا.. وما السبيل الى الاتصال بهم..؟ حتى أخبرهم على الأقل أني وصلت بالسلامة وأنا مرتاح هنا (؟).

تفكرت في عبد الحكيم.. ماذا يشتغل هناك..؟ لم أره منذ ذلك الحين.. حينما أنظر من هنا، يبدو لي أن هناك شبه «مَسَرَّة».. كبيرة على البعد.. ولا يحتمل أن يكون أقل بؤسًا مني.. يا الله.. كم كانت رائعة أحلامه التي ركب الطائرة على أكتافها!. وكيف يتحمل هذه المصائب كلها وهو لا يزال صغيرًا؟ ولم يكن من أسرة بائسة.. بل كان أبوه يعمل في دبي منذ سنوات كثيرة.. جاءت هذه الفيزا بينما كان يحاول أن يأخذ ولده إلى دبي.

«خلاص.. توكل على الله.. هذا أحسن من أن تفسد أخلاقك مع شباب الحارة.. وهذه فرصة لك أن تتعلَّم اللغات والحياة هناك.. إن شاء الله.. بعد سنتين، أو ربما قبل ذلك إن أمكن، سأرتب لك فرصة في دبي» قال له أبوه.

كيف يتحمل هذه الحياة..؟ وهو ليس مثلي.. وبالنسبة لي كنت أعيش على العمل الشاق، استخراج الرمل من النهر.. فأمري هيِّن ولكنه كان يحتفل بشبابه مع أترابه في الحارة. ما أدرى كيف يكون مصيره!. كل شيء من تدابير الله.. لا بد من الصبر عليها.. وليس لدينا خيار غيره.. ولا تكون

الأيام القادمة إلا وهي أسوأ من أمسها.. يا ربي، الرؤوف الرحيم، نسألك أن تقوّينا حتى نجتاز أنا وعبد الحكيم هذه الأيام الشاقة.. وفي تلك الليلة أيضا، قد عاندني النوم كثيرا بسبب مضجعي المزعج..

***

13

أسفر الصبح عن يوم صحراوي آخر. وقد صرت منهكًا تماماً بسبب عمل اليوم السابق. واستيقظت من النوم وجسدي وجوارحي توجعني بصورة لم أتعرض لها حتى يوم كنت أستخرج الرمل من النهر طوال النهار. وربما كان الانزعاج من عدم الاغتسال بعد العمل أشد عليّ من أوجاع الجسد. كنت ممن يقضي يومه كله في النهر، ومع ذلك، لم أترك النهر عند انتهاء العمل إلا بعد أن آخذ حماما فيه.. وها أنا اليوم أستلقي هنا بعد أن قضيت يومًا كاملًا تحت الشمس الحارقة أسبح في عرقي.. أمشي بين الأغنام حتى أتعفر وأحمل على جسدي نصيبا من بولها وروثها.. وإبطاي وفخذاي متلاصقان بفعل العرق.. وأنا أرتدي قميص الأرباب الرث إتماما للوساخة.. أما حذائي المبتل بالعرق فلا أملك له وصفا.

ولم أكد أقوم من تلك الأوجاع والهواجس حتى وضع الشبح الرهيب دلوًا في يدي.. وأشار إلى الغنم يأمرني بحلبها.. أنا..! أحلب الشاة..!؟

أحسست بفراغ هائل أمامي.. كأنما أُلقِيَ بي في هاوية من الجهالة.

ما قضيت في حياتي دقيقة أتأمل فيها غنما.. نعم.. لعلكم تستغربون ولا تصدقون أنني لم أر ماعزا من مسافة قريبة..! وتسألونني هل أنت نازل من السماء إلى الأرض توا..؟!

صحيح أنني رأيتها.. وقد رأيناها جميعًا. وتعتبر الأغنام من الحيوانات الأليفة التي دجّنها الإنسان منذ أن ابتدأت حياته الاجتماعية في سنة ستة

آلاف أو سبعة آلاف قبل الميلاد. وهي الحيوانات الرقيقة التي يربيها جيراني «مَرِيَّا» و«جَانَكِيَا» و«وِيْلاَيُدَهانْ كُتّي» وغيرهم.. وهي حيوانات جميلة المنظَر، ولا يمر أحد بجَدْي إلا ويَودّ أن يأخذه بين أحضانه.. الغنم تمنح لنا حليبها وحملانها وروثها.. نشرب الحليب ونبيع الحملان في «سوق الخميس»[1] ونضع الروث تحت أشجار الموز سمادا لها.. والغنم تأكل البرسيم والتبن وتشرب ماء «كادي[2]».. وتمرض إذا أكلت أوراق المنيهوت (كسافا - Cassava).. تفرح إذا حصلت على أوراق الككايا (jackfruit).. هذا كل ما أعرف عن الغنم.. بل ربما تعرفون أنتم عنها. أين موطن نشأتها..؟ ومَن هم قدماء أهلها؟ وما أنواعها..؟ وما ميزات كل نوع من أنواعها..؟ فضلًا عن هذه المعلومات البعيدة، أنا صفر اليدين من المعلومات الأولية عنها. كم عدد حلمات ثديها..؟ كم عدد أظلاف أرجلها..؟ وكم مدة حلب الغنم بعد الولادة..؟ وما مقدار الحليب الذي يمكن حلبه في مرة واحدة..؟ وكم مرة تحلب في اليوم..؟ وما كيفية حلبها..؟ وكيف نضغط الحلمة حتى يخرج الحليب..؟ وهل هي ترفس برجلها الخلفية كالأبقار..؟ أم برجلها الأمامية كالفرس؟ وكيف نتقي رفسها..؟ لم أكن أعرف شيئًا من ذلك.

ما أتيت أحدًا أسأله عن هذه المعارف قط.. ولا أحد أخبرني بها.. ولو كنت عرفت سابقًا أن هذه هي الوظيفة التي تنتظرني هنا، لأعددت لها نفسي.. وكانت جارتي «جَانَكِيَا» التي كان بيتها بعد بيتين اثنين من بيتنا تربي ثلاثةً من الماعز.. رأيتها مرارًا ترعى في جوانب الطريق وفي الحقول.. وترتع صغارها هنا وهناك، فلا بد أنها حلوب.. ولو كنت علمت الغيب، لذهبت إلى جارتي ذاك اليوم لأتعلم عندها حلب الغنم.. ولكنني للأسف لم أكن

---

(1) كان يقام في بعض أنحاء كيرلا سوق خاص بالمواشي كل خميس.

(2) الماء المطبوخ فيه الأرز، يقدمه المربون في كيرلا لماشيتهم.

أعير لها التفاتا.. وكم من حيوانات مثلها تعيش حولنا!. ولا أظن أن أكون أحسن حالًا إذا كان الأمر يتعلق بتربية البقر وترويض الكلب أو تدجين الحصان.. وإنما السبب أننا لا نبالي بتلك الحيوانات ولا نفكر فيها إلا عند الحاجة.. فنتأسف قائلين: ياليتني لاحظت.. تعلمت.. تدرّبت.. وعلمت الآن وأنا ملقى تمامًا بين أنياب الضرورة أهمية النظر إلى ما حولنا من البيئة.. ماذا أفعل الآن..؟ فطبعا وجدتني في حالة اضطررت فيها إلى تعليم نفسي، كما ينتهي الجميع إلى نفس المصير رغم صعوبة الفوز فيه.

دخلت بالدلو إلى الـ«مَسَرَة».. اقتربت من عنزة.. وكنت لاحظت ببلادي انهم يغسلون الضرع قبل الحلب.. أما هنا فلم يكن ثمة داع لذلك إذ لا يغتسل هنا أحد ولا يتنظف. جلست خلفها بهدوء وقرّبت الدلو من ضرعها.. ضغطت عليه ضغطة واحدة.. لم يخرج شيء من الحليب.. لم يقف الأمر عند هذا الحد بل وثبت العنزة نافرة نحو القطيع بعد أن أسقطتني برجلها إلى الأرض مع الدلو.. ومع ركضها المجنون، هيجت القطيع كله داخل «المَسَرَة» وأخذت في هرج و مرج وأنا ملقى على الأرض وسطها.. وقد خبطتْ على ظهري واحدة منها خبطة تلويت منها وجعًا.. قمت من هناك كيفما استطعت وقعدت القرفصاء خلف عنزة سكنت من ركضها.. ما مسست ثديها حتى قفزت وطارت مني.. أقبلتُ على ثالثة فلم تلبث أن تنفر هي الأخرى.. يا ربي..! كيف أحلب عنزة تركض..؟! وقفت متحيرًا في تلك الـ«مَسَرَة»..

عدت أستجمع همتي لأقعد خلف واحدة بعد أخرى بعزيمة من عليه أن يحلب اليوم عنزة. ولكن كل واحدة منها لم تلبث أن تصرفني عنها إلى أختها. ولم أزل كذلك حتى جاء الأرباب والشبح الرهيب بعد نصف ساعة تقريبًا ليريا مقدار الحليب الذي حلبته.. فوجئا بي أقفز كالضفدع خلف عنزة بعد أخرى ولم تسقط في دلوي قطرة من الحليب.

ولما رأيا حالتي، انصرف الأرباب إلى خيمته وهو يقذفني بالشتائم. وأما الشبح الرهيب فجاء إليّ وناول من يدي الدلو وأراني كيف أقترب من عنزة لحلبها.

لا تأت أبدا عنزة لتحلبها من خلفها بل إتتها من بين يديها. وقبل أن تباشر الحلب، عليك أن تداعبها كما لو كانت طفلا.. تمسح بحنان على وجهها وأذنيها ورأسها وتربت على كتفها وظهرها وتجلس بهدوء بأحد جانبيها تلامس بيدك بطنها مرتين أو ثلاث ثم تمس بلطف أحد ثدييها.. ربما تنتفض العنزة.. لأنها تشعر بالدغدغة تمامًا كالإنسان.. فعليك أن تُسكّن دغدغتها كأنها عذراء.. تداعبها من خلال لمسات خفيفة على ثدييها.

فى بلادنا، يقوم وليدها بهذه المهام كلها.. من خلال معانقات الود العميق وملامساته بين الأم وولدها.؛. حتى تسكن الدغدغة ويكاد الحليب ينزّ من ثقب الضرع تخفيفًا على ولدها.. فيسهل علينا حلبها. وهنا ليس للحملان حق في تسكين دغدغة أمهاتهم حتى تنزّ لهم الحليب.. فنقوم بمهامهم نيابة عنهم.. فبعد التأكد من سكون دغدغتها، نبدأ نضغط على إحدى حلمتي ثديها من أعلاها إلى أسفلها بالسبابة والإبهام بشكل لا يوجعها لكن يسحب الحليب إلى ثقب الحلمة. وهذه بلا شك مهارة يحتاج اكتسابها إلى ممارسة كثيرة.. وهي التي يُقدّر بها مستوى تمكن الحلّاب من وظيفته..

ولا تحلب أبدًا بيدٍ والإناء فى الأخرى.. وهذه ليست بطريقة صحيحة.. بل عليك أن تضع الإناء على الأرض لتضغط بيد وتلاطف بالأخرى على ثدي العنزة.. فتنقاد لك العنزة مهما كانت عدائية من غير أن ترفسك أو تنتفض بالقفز أو تطرح الإناء. ما أجمل هذا المنظر..! استوقفني الشبح الرهيب الذي يطوّع الغنم للحلب دونما مشقة. واستغربت من تلك الأغنام العدائية التى تنقاد له عن طواعية!

وبعد أن حلب عددًا من الأغنام، مد الشبح الرهيب الدلو إليّ.. قلّدته في كل ما فعل.. لا شك أن أفعالي لم تكن خالية من عيوب التقليد.. علمت فيما بعد أن هذه الحركات تصدر بعفوية وعن ود للحيوانات ويمكن لها أن تميزها بغريزتها.. والأهم من ذلك هو التعايش معها.. يقال: إن العنزة تعرف إذا تغيرت اليد التي اعتادت أن تلمس ثديها كل يوم.

رغم ذلك كله، لقد طوّعت عنزة.. وأمسكت فعلًا على ثديها.. وما أدري كيف أصف لكم الفرحة التي شعرت بها عند سقوط أول قطرة حليب في دلوي.. كأنني نجحت في التدريب وأصبحت مؤهلًا لوظيفة مرموقة. لقد استسلمت لي واحدة من تلك الأغنام التي سأكون أنا أيضًا من مربيها.. وستأتي على أثرها جميع أخواتها إلى متناول يدي إن شاء الله..

قد حلبت نصف الدلو كيفما استطعت. وخرجت من «المَسَرَة» مبتلًّا بالعرق في ذلك الصباح كما لو أنني بذلت جهد جهيدًا.

***



14

انصرم يوم آخر من غير شيء يذكر.

وخلال هذه الأيام، كان الشبح الرهيب قد أحسن تدريبي على رعي الأغنام في البادية. وعلمني كيف أقود القطيع من جانبيها، لا من أمامها.. وكيف أسيطر بعصاي على النافرة منها.. وأراني كذلك مقادير الشعير والبرسيم والتبن التي أضعها في كل «مَسَرَة».. في يوم واحد.

أحسست بأن نهار اليوم أشد حرارة من الأمس.. يكاد حلقي يجف من العطش كلما مشيت خطوات معدودة.. وكلما شربت الماء شبه المغلى في الخزان الحديدي ازداد الالتهاب في حنجرتي.. شعرت باضطراب شديد في بطني بسبب شربه المتكرر.. ولا أدري كم مرة تبرزت اليوم بعد الإفطار.. ولم أعد أستحيي مثل الأمس وأصبحت اليوم أتبرز في العراء علنًا حيثما كنت عند الإحساس بالحاجة. واستنجيت بالأحجار بدلًا من الماء تجنبًا لضربات الأرباب.. واطمأننت إلى أن العادة في الاستنجاء تجري في كل بلد على استخدام أكثر الأشياء وجودًا فيه.. ولذلك يستعمل الأوربيون الورقة لأنها أكثر شيء عندهم.. والماء غزير عندنا الكيراليين، لذلك فقط نطهر بالماء.. أما بالنسبة لي هنا فكانت الأحجار كثيرة، فاكتفيت بها طبعا.

وبعد الزوال ، ازدادت الشمس حرارةً.. جعلت تبعث حمية بخارية.. كأنها تسلق الأجساد بأكملها. لقد أرهقني ذلك كل الإرهاق بالتضافر مع فتور الإسهال. وأخبرت الأرباب والشبح الرهيب بوضعي الحرج، إلا أن

ذلك لم يخفف عني من العمل شيئًا. ولم يكن الأرباب ليأخذ إعيائي وفتوري بعين الاعتبار بل استمر يحمّلني عملا على عمل.

ومع العصر، أصبح الجسم لزجًا دبقًا كأنني وقعت في شوربة الأرز. وحالتي من عدم الاغتسال منذ أيام قد وصلت إلى حد أن تعجز الكلمة عن وصفها. سرقت شيئًا من الماء المخصص للأغنام وغسلت به يدي ووجهي. ومع ذلك ، بقي الانزعاج الأكبر وهو انزعاج الجسم وخاصة في منطقة الإبط والعانة.

توجهت إلى سريري متحملًا كل شيء. ولما قلت «سريري» فلا تفكروا أنني حصلت على سرير.. إنما سريري الآن الرمال. والسرير الوحيد الذي عندنا قد استأثر به الشبح الرهيب.. وكانت حقيبتي تحته.. استخرجت منها بطانيتي – وقد أصبحت متسخة تماما خلال هذه الأيام– وفرشتها على الأرض. وكانت في الرمال حصيات صغيرة توجع ظهري. رقدت عليها غير مبال بها متحاملا على نفسي.. إنما أنا الغبي الذي يبحث في تلك الظروف عن أدنى شيء من الراحة.

كنت من الذين لا يستطيعون النوم مهما تعبوا، إلا إذا استمتعوا براحة المضجع.. رقدت منغمسًا في الأفكار. في الحقيقة، كان المفروض أن تحملني تلك الأفكار إلى بلادي وبيتي وأمي وزينب وولدي (أو بنتي) في بطنها.. وتجلدني ببثي وحزني بسبب الفراق.. لكن بدا لي كل ما ألفته غريبا عنّي كأنني انتقلت من الدنيا إلى الآخرة. أبِهذه السرعة....! لعلكم تستغربون. «نعم» هذا هو جوابي لكم.

لا نعيش في ذكريات الماضي إلا في تلك الفترة التي نعلق فيها أملًا على سنوح فرصة للتواصل والبيئة الواعدة بها. وقد تجاوزت تلك الفترة بيوم

واحد فصار ما مضى من حياتي منقطعا عن حاضري.. لا طائل من التأسف والتحسر.. أصبح الماضي بالنسبة لي عالما غريبا عني.. أنا الآن في عالم جديد خضعت لقضائه وقدره وانكبيت على وجهي على واقعه المر.. ونجاحي فيه مرهون بأن أهيئ نفسي لمعاناة تجارب الحياة الجديدة. وهي الطريقة الوحيدة للمقاومة من أجل البقاء.. وإلّا لهلكت هنا في مكان ما منهكًا بقلق يتزايد.. أو غريقًا في آلام تحيط بي. ربما تمكّن كل المحتجزين هنا مثلي من البقاء على قيد الحياة بهذه الطريقة.. أليس كذلك؟

وإذًا، هل لكم أن تخمّنوا بِمَ كنت أفكر فيه في تلك الليلة؟ كنت أفكر كيف أذهب إلى «المَسَرَة» لحلب الأغنام.. كيف أطوّعها كما يفعل الشبح الرهيب حتى أخرج من «المَسَرَة» بدلو مليء بالحليب فتقر به عين الأرباب.. كيف يمكن لي أن أرعى بنفسي كل الأغنام في «مَسَرَة».. واحدة وأرجع بها من البادية.؟. كيف أحقق هذه الأحلام كلها.؟ ما الاحتياطات اللازمة لها.. ما الأخطاء التي وقعت فيها اليوم.. كيف أصححها..

لم أتحسر على الأمس ولم أتطلع إلى الغد وإنما تدبرت كيف أواجه اليوم! وهكذا كنت طيلة حياتي «المَسَرِيّة» على ما أظن.

وحاولت في مرقدي ذاك أن أستذكر كافة الكلمات العربية التي تعلمتها إلى الآن مع معانيها. صار لي هنا فقط يومان، ولكني اكتشفتُني قد تعلمت من المفردات العربية ما هو فوق الكفاية لي..

وإليكم مفرداتي العربية مع معانيها

الأربابْ	:	المنقذ
مَسَرَة (مزرعة)	:	ملجأ الغنم
كُبُوسْ (خبز)	:	طعامي الوحيد هنا

ماينْ (الماء) : سائل نادر جدا فلا بد من أخذ كل الحيطة عند استعماله (لا تقللوا من أهمية الأمر فلا ينبغي فَهم كلمة «الماء» في سياق كيرالي، لأن مفهوم ماين لدى الأرباب مختلف تماما عن مفهوم الماء لدى أهل كيرالا التي يتوفر الماء بغزارة في أراضيها)

گَنمْ : غنم

هليبْ : حليب

تبنْ : تبن (القش)

برسي : برسيم (العلف)

جملْ : جمل

لا : لا / لا يوجد

جي هام : أمرَكَ يا أرباب (مأخوذة من اللغة الأردية)

يا الله : اغرب عن وجهي

وبعد ما تم استذكار الكلمات التي درستها، علمت أن تلك التي لا أعرفها والتي لا بد من معرفتها كثيرة جدًّا. اسمعوها...

شعير ، إناء ، خزان الماء ، سيارة ، مدفع ، صحراء ، ثوب ، غسل ، خراء (براز) ، إسهال ، ضرب ، غضب ، شتم ، خيمة ، والعديد من الأفعال كـ جاء ، ذهب ، ما فعلت ، لا أدري وهلم جرا.

وإذا أراد علماء اللغة العربية منكم أن يطرحوا عليّ سؤالا عن صحة نطق ومعانى الكلمات العربية التي قلت لكم هنا، فلن يكون جوابي لهم إلا أن أقول «لا أدري في الحقيقة».. سمعتها هكذا.. وفهمتها هكذا وهكذا

تعلمتها. استطعت أن أستخرج من تلك الأصوات معان لها.. فهي كلمات صحيحة بالنسبة لي.. ونطقها صحيح. وعلى أي حال، ما تعني الكلمة..؟! المهم التفاهم.. فهمت بهذه الكلمات ما قال لي الأرباب ، وفهم بها ما قلت له.. هذا كل ما أريده من مهارة اللغة.

مضى وقت طويل وأنا منغمس في التفكر والتأمل. تركني الوجع مع تعب ونوم يغمران جسمي كله .. وانزلقت إلى نوم عميق.. ولا بد أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل حينذاك.. غير أنني لم أشعر بذلك..

واستيقظت متأخرًا جدًا لأجد الشمس ساطعة في المشرق تحدق فيّ بمجامع عينيها. قمت عن الأرض.. نظرت إلى السرير.. كان فارغا.. علمت أن الشبح الرهيب قد بدأ عمله مبكرًا. أسرعت إلى «المَسَرَة» خشية أن أتأخر عن الحلب.. إلا أن الشبح الرهيب لم يكن هناك أيضا.

وعلى خلاف عادته، لم يسْق الشبح الرهيب الغنم.. ولم يعلّفها بالبرسيم ولم يضع الشعير في الحاويات ولا فعل شيئًا. جعلت الأغنام تبدي داخل «المسرة» احتجاجها على اختلال عاداتها بحركات غير عادية. فكرت أنه ربما يكون في «مَسَرَة».. أخرى.. تفقدته في جميع «المَسَرَات» ولم أجده في أحد منها. اندهشت أين ذهب في الصباح الباكر؟ رجعت إلى السرير. تسللت إلى صدري ريبة خفية تضايقني.. انحنيت أتفقده تحت السرير.. لقد رأت الأمس تحته حقيبة أخرى إلى جانب حقيبتي.. كانت تلك الحقيبة قديمة جدًا معكرة بالغبار بشكل يشير أنها له.. لم أجدها اليوم في مكانها! اشتبكت في نفسي خطوط الريبة..

وحينئذ خرج الأرباب من الخيمة يُقبل علي.. مد إليّ إناء الحليب وأمرني بحلب الغنم.. نظرت إليه في ريبة.. ولا شك أنه قد فهم أن نظراتي تسأله أين ذهب الشبح الرهيب اليوم؟. فقال لي جملة من الكلمات.. كانت مشبعة بكل من الغضب واللعن والعطف والاستهتار والاستهانة.

وكل ما فهمت من تلك الكلمات هو شيء واحد.. أن شبحي الرهيب قد هرب من هذا الجحيم!!

***

15

لقد عرفته منذ يومين فحسب.. لا أدري هل تسمى هذه معرفة؟. لم نتبادل إلا كلمات معدودة.. ولا عرفت اسمه ولا بلاده ولا شيئًا عنه.. رغم ذلك، جعلني خبرُ غيابه كاسف البال لسبب لم أعرفه.. قد يكون ذلك ما صرت فيه من الشعور الشديد بالوحدة.. شعرت بفتور يغمر كل جسمي.. الصدمة التي تنتاب أحدنا حينما يُفاجَأ بوفاة أمه أو أبيه أو فلذة كبده.. وفي الوقت نفسه، لاحظت اللامبالاة التي ارتسمت على وجه الأرباب حين أخبرني بالخبر.. إنه هرب.. نعم إنه قد ذهب.. لا شيء أكثر.

إلى أين..؟ كيف..؟ مع من..؟ كأن الأرباب لا يريد أن يعرف شيئا من ذلك.

فجأة، برق في نفسي بصيص أمل.. أنه لو سمع يومًا أنني قد هربت، فلن يكون رد فعله أكثر من هذا أيضًا.. إن هرب الشبح الرهيب يبقى نجيب، وإن هرب نجيب يومًا فرجل آخر.. ولا أكثر.

وما حسبته أن يكون هكذا نظرا لما رأيت من شدته وطريقة تصرفاته في اليوم الأول.. كان يطلق الرصاص في الفضاء.. ويعرض منظاره ليبين لي مدى تغطيته البعيدة.. ويراقبنا من فوق السيارة كلما خرجنا إلى البادية.. ويحوم حولنا في سيارته إذا رأى أننا ذهبنا بعيدا. أيقنت عند ذلك كله أنه لن يدعنا أبدا نتخلص من هذا الجحيم. وقد لاحظت هذه الخشية والحيطة في كل حركات الشبح الرهيب وسكناته.. وفي كل كلماته التي قالها لي أو حاول أن يقولها..

« لا تحاول الهروب أبدا.. إذا فعلت، فسيقتلك.. لأنه قاس وحشيّ.. متحجر القلب».

لكنه فر هاربًا بعدما حذرني من الهرب..! كذاب..! كأنه كان ينتظرني ليوكّل إليّ كل شيء قبل ذهابه.. فلا ينبغي أن أهرب، ولذلك خوّفني بهذه الأكاذيب..! انظروا.. ما أهدأ الأرباب اليوم..! لا يبدي حتى غضبه المعتاد.. من هرب هرب .. هذا هو موقفه.. وقد سررت بذلك لثلاثة أمور.

الأول : لقد تحرر الشبح الرهيب من هذه المعاناة كيفما استطاع. والثاني: يمكن لي أيضًا أن أتحرر يومًا مثله. والثالث: وهو الأهم ، سأحصل على السرير الذي كان يستأثر به الشبح الرهيب.. وستنتهي لاحقا معاناتي من الاستلقاء على الرمال.

هرولت بإناء الحليب إلى «المَسَرَة» ظافرًا بروح الحماسة التي بعثتها في نفسي فكرة التحرر. حلبت عددًا من الأغنام. وقلة الخبرة كانت واضحة بشكل لافت.. غير أني لم أكن أسوأ حالًا مني بالأمس. وقد قل عدد الرفسات التي تلقيتها من الأغنام. لقد تطورت كثيرًا عن مرحلة العجز عن سحب قطرة حليب واحدة.. لا شك أن هذه طفرة كبيرة حققتها خلال يومين.. ولكن مع ذلك لا تظنوا أنني أصبحت مثل الشبح الرهيب في مهارته.

وكما هي العادة، أعطيتِ للأرباب نصيبه من الحليب. ووضعت الباقي في «مَسَرَة».. الصغار. وقد ألقِيت على عاتقي وحدي كافة الأعمال المتعاقبة التي كانت مقسمة إلى اليوم بين رجلين.

أطلقت الجمال بعد العلف.. وضعت التبن والبرسيم والشعير في «المَسَرَات».. ملأت الماء في الحاويات. وأثناء ذلك، جاءت شاحنة الماء.. ساعدت صاحبها على تعبئة الخزان. وجاءت شاحنة التبن.. أعنت على

تنزيلها. ولم أستطع التخلص من الأعمال مع أن ظهري قد انقصم بسببها.. حان وقت رعي الأغنام في الصباح (لقد اكتسبت ملكة تقدير الساعة نظرا إلى الظلال!) لكني لم أفرغ إلى الآن من توزيع البرسيم على نصف عدد «الـمسَرَات».

شتمني الأرباب على التخلف عن رعي الأغنام في وقتها رغم أنه كان يراقبني من الخيمة وأنا أجتهد قدر طاقتي.

«أنا رجل واحد، لا أطيق أكثر..» نعم.. فعلا أجبت عليه هكذا بلغتي المالايالامية.

ولم يكن جوابه إلا أن نزع حزامه وضربني على ظهري ضربة قاصمة. جواب لا يحتاج إلى لغة! وأتذكر أن رضوض تلك الضربة الموجعة بقيت على ظهري لمدة ستة أشهر..

وانصرف مضيفا بعض الكلمات.. فهمت بوضوح أنه قال: إن هذه الأعمال كان يقوم بها رجل واحد إلى أن وصلت هنا قبل يومين.. نعم، قد نفهم كل شيء بوضوح مهما كانت اللغة غريبة أجنبية. جريت باكيا إلى أعمالي المتبقية. واليوم لم يتسع لي الوقت حتى لتناول الفطور.. ولا دعاني الأرباب لأجله..

لم أكد أنتهي من رعي أغنام «المَسَرَتين» حتى دعاني الأرباب.. وقد حضرت شاحنة تنقل الأغنام الناضجة إلى السوق.. ومن واجبي تحميل الأغنام السمينة والكبيرة إلى الشاحنة. وكان أربابي الكبير هو الذي جاء بالشاحنة.. وليس هناك أحد يساعده غيري..

دخلت إلى «المَسَرة» والأربابان واقفان في الخارج.. يشيران إلى واحد من الغنم قائلين «هذه».. أحاول أن أمسكه ولكنه ينزلق من يدي كسمكة

رأس الأفعى ويتخذ سبيلها بين القطيع.. ولا أزال أطارده حتى أقبض عليه كيفما استطعت (وكيف أقبض عليه..؟! لو كان في نحره حبل لسهل عليّ القبض).. أجرّه إلى الشاحنة.. والشيء العويص تحميله إليها.. لا أقدر لوحدي على تحميله .. ولا يركب الغنم أبدًا بنفسه.. أدفع كل واحد إلى السيارة كيفما استطعت.. و لا أدري كم استغرقت هذه العملية من وقتي وطاقتي!.. أنهكت تمامًا عندما فرغت من اثنتين أو ثلاثة بنجاح.. ولكن الأربابان لا يزالان يُطاردانني إلى المَسَرَة بدون توقف.. يقولان مشيرين إلى واحد «هذه أبيض».. أحاول أن أمسك واحدًا قريبًا أسود متهمًا أنهما يريدانه.. «يا حمار..! ما في أسود! أبيض، أبيض» – يصيح الأرباب.. أتركه ثم أقبل على سمين آخر.. فيضرب الأرباب على رأسي قائلا: « يا حمار..! مخ مافي.. هندي.. هده أبيض» ولا أفهم أنه يريد ذلك السمين الأبيض إلا بعد ما أخطأت مرارا.أجذبه إلى السيارة حتى أحمّله فيها كيفما استطعت.. وأفر راجعًا إلى «المَسَرَة».. يقول الأرباب «أسود».. أكرر غباوتي مرة أخرى.. حتى أهتدي في النهاية إلى الذي يريده الأرباب..

وعندما فرغت من القبض في هذه الصورة على عشرين خروفًا، ارتميت فعلًا على الأرض منهوك القوى.. لعنت نفسي والناس أجمعين.. هذا جزائي عن هروب رجل كان معي..! أعمال تقصم الظهر..! ضربة قاصمة لن أنساها..! وهذا إلى جانب حرمان الطعام إلى منتصف النهار.

***

16

كنت أعلّم نفسي كيف أواجه الحياة لوحدي!. وأتهيأ لمهنة غريبة.. وأتأقلم مع مناخ غريب.. وأربي قطعانا من الحيوانات بمفردي. ولم يكن ذلك بموجب قرار باسل صممت عليه.. بل إنما كان بموجب عجزي الكامل.. إذا اضطر أحد إلى عمل يقصم الظهر من أجل شربة ماء لا شك أنه سيسرع إليه، بل إلى عمل يقضى عليه.

وعندما كنت أتقاسم العمل مع الشبح الرهيب في اليومين الأولين، كنت واثقا من أنه سيمكنني أن أتعلم الأعمال اللازمة بسرعة حيث إنها متكررة رتيبة وليست مما تمثل تحديا كبيرا عند القيام بها.. وإنما وجدت نفسي في حاجة إلى التدريب فقط على فن الحلب ورعي القطيع في البادية.. أما ما سواها فكلها يسيرة يمكن للأعمى القيام بها بشرط أن يتمتع بشيءٍ من الصحة.. هكذا كانت تخميناتي.. ولكن كلما تقادمت الأيام تعلمت بنفسي أشياء عديدة تتعلق بعادات الجمال وحياة الغنم وتربيتها.. والظروف تقوّي لإنسان على كل شيء.

وذات يوم، كنت أرعى الغنم كالعادة.. ولم يمر على يوم وصولي أكثر من أسبوع.. وكانت في القطيع عنزة حامل.. كنت ألاحظ لها فتورًا وبطئًا منذ البداية.. لكني أهملت ذلك مفسرًا ذلك بأنه ليس إلا بسبب تعب الحمل كما شاهدته على زينب الحامل.. وقد استشرت الأرباب قبل أن آخذها معنا.. نهز رأسه آذنا لي في أخذها.

ولما وصلنا إلى منتصف الطريق، ابتعدت العنزة عن القطيع إلى ناحية ورقدت على الأرض. وقفت إلى جانبها مرتبكا متحيرا.. لم تلبث أن تلوّت وزحرت.. ولم يقع في ذهني إلا حين ذاك أنها قد ألمّ بها المخاض.. فشلت كل محاولاتي في الرجوع بها إلى «المَسَرَة» حيث إنها كانت تخطو خطوات ثلاث أو أربع وسرعان ما تسقط في أحضان الصحراء.. وقد سبقنا القطيع خلال ذلك بمسافة كبيرة وبدأ يتشتت شمله.. والغنم تظل على سكينتها طالما كانت متجمعة في القطيع.. ولكنها ما إن تختلف الصفوف ويتفرق القطيع، سرعان ما تظهر غريزتها الوحشية. وعلى الرغم من ألفتها مع الإنسان منذ حوالي ستة آلاف سنة، إلا أنها هي الوحيدة من بين الحيوانات المستأنسة التي تُظهرغريزة تعود بها إلى طبيعتها الوحشية كلما سنحت لها الفرصة. ولسبب ذلك، كان واحد من التوجيهات الصارمة التي تلقيتها من الشبح الرهيب في اليوم الأول ذاته هو أن أحافظ على لم شعث القطيع واتحاد صفوفه.

تفرقت كل واحدة من الغنم الخمسين إلى خمسين جهة..! وواحدة ترقد هنا في الطريق تنتظر ولادتها.. وقعت فعلًا في مأزق حرج بين أن أتركها حتى أذهب وراء بقية الغنم وبين أن أقف بجانبها مهتمًا بأمرها تاركًا بقية الغنم تنتشر في البادية. قررت أخيرًا أن أقف بجانب التي هي على وشك الولادة متذكرًا مَثل الراعي الذي خرج يبحث عن الواحدة تاركا وراءه تسعا وتسعين نعجة.

ما شاهدت أبدا ولادة أي حيوان فضلًا عن الغنم.. ولا أدري كيف أتعامل معها.. ولا ما ينبغي فعله عند ولادة حيوان.. لم نكن نربّي في بيتنا حيوانات داجنة بما فيها البقرة، والغنم، والكلب، والقطة.. ولم أذهب إلى الجيران لمشاهدتها. ولذلك، لم يكن حينئذ أمامي إلا أن أقف بجنبها موقف المتفرج.. وبعد قليل، ظهر رأس الوليد يطل.. شاهدت ذلك في رعب..

واستمر يخرج بالتدريج وأمه تتجرع أشد الألم.. ولما أشرف على السقوط إلى الأرض، وجدت نفسي أهرع إليه على غير شعور مني لآخذه بين أحضاني.. ولكن، قبل أن أتمكن من شيء، انزلق من يدي إلى الأرض بلزوجة السوائل الجنينية.

وجدتني حينها أحتفظ في ذاكرتي بعلم قديم اكتسبته من أحد ما.. أنه يجب إزالة المشيمة من جسم الوليد.. قمت بإزالتها عن وجهه وجسمه.. ولكن أمه كانت أوعى مني.. قد غسلته باللعق وجففته خلال لحظات.. وما أسرع ما يكبر الغنم! أخذ الحمل الوليد في اللحظة التالية يحاول أن يقوم على أرجله.. وقد نجح في محاولته.. توجه على مهل نحو ضرع أمه.. اكتشفت حينها أن الوليد ذكر..!

وفي تلك اللحظة، خرج قلبي عن طوره مطلِقًا كل عنانه.. وهرع إلى الوطن بسرعة فائقة لا تصفها الكلمات.. ضربت على جدران القلب أمواج عاتية من ذكريات منسية منذ أيام.. زوجتي زينب حامل.. ودّعتها وهي في حالة تتوقع فيها الولادة في كل لحظة.. ولم يبلغني بعد خبر من أخبارها.. ولعل هذا بشرى من الله إليّ مباشرة.. زينب.. زوجتي الحبيبة.. قد ولدت اليوم..! أنجبت لي ولدا كما كنت أتوقعه.. بناء على هذا الاعتقاد، سميت هذا الحمل الوليد نبيلا، الاسم الذي كنت اخترته لإبني المنتظر.. نبيل..!

لقد تلوثت يدي وثوبي بدم المشيمة.. أين أغسلها..؟ إذا ذهبت إلى «المَسَرَة» لوحدي بدون الأغنام فتوبيخ الأرباب محتوم.. وبدون أي تردد، مسحت في ثوبي القذارة كلها. وأخذت بين أحضاني ذلك الحمل الجميل الذي كان يتوجه إلى ضرع أمه بخطوات غير مستقرة. «أهلا بك يا بنيّ الحبيب...! أنت هدية الله إليّ..!» قلت وأنا أقبله.

أخذت نبيل إلى أمه.. قربت وجهه إلى ضرعها.. ولحظتها، فوجئت بشيء عات أسقطني بعيدًا على الأرض.. بقيت فاقد الوعي للحظات.. أدركت أن الشيء العاتي لم يكن إلا ركلة قوية من الأرباب.. وقف ناظرًا بعينين محتدمتين بالغيظ.. وهو يصيح مشيرًا إلى البعد.. نظرت إلى حيث أشار.. كانت الأغنام تجول في أحضان الصحراء منتشرة عن القطيع بشكل تام.. تمتمت بعض الكلمات مثل «عنزة» «ولادة» «حمل» «مشيمة».. لكن صدره لم يكن رحبا حتى يستمع إلى كلمات توسلي.. تقدم على امتعاض إلى ولدي نبيل يبعده عن ثدي أمه. ثم عاد إلى «المَسَرَة» حاملا إياه على كتفه.. مستهترًا بموقفي المستضعف ونظرات أم نبيل المسترحمة بلا وازع من الضمير.

انطلقت أجري على إثر الأغنام تاركًا العنزة الوالدة في مكانها. ولم أقدر على جمع شمل القطيع إلا بعدما بذلت جهدا جهيدا معها.. ولما رجعت بها إلى «المَسَرَة» انضمت الوالدة أيضا إليها حينما رأت أنه لم يبق أمامها غير ذلك.

وكان الأرباب بانتظاري ليسلمني الهدايا الباقية. استلمتها في صورة الضربات القواصم وقذائف الشتم. وقدّم إليّ لائحة الاتهام التي تشتمل على تهمات أربع. الأولى : محاولة سرقة الماء لغسل الدم وأقذار المشيمة عن يدي وثوبي. الثانية : تأخر الرجوع بالقطيع. الثالثة: تمضية الوقت بالتفرج على ولادة عنزة لا داعي لمراقبتها حيث إنها تستطيع أن تلد إذا حانت ولادتها دونها تدخل بشري. الرابعة : وهي الغليظة، محاولة إرضاع الحمل الوليد من ضرع أمه.

وقد كنت أعرف أن حملان «المَسَرَة» تشرب الحليب المسحوب في الدلو. ولكني ما فكرت أنها تحرم من ضروع أمهاتها حتى في اللحظات الأوائل من ولادتها.

كافأني الأرباب على محاولة تقديم الخدمة لعنزة عند ولادتها بباقة الشتائم، وجلد الحزام، والركلات والبصاق وحرمان الغداء.

ولكني لم أكن حزينًا ولا مكروبًا.. بل كنت على يقين من أن الله سيجازيني عن صبري الجزاء الأوفى في ابني وزينب في الوطن.. أو كنت أحاول أن أقنع نفسي بذلك الاعتقاد. ولو لا هذا الاعتقاد فكيف كانت حالتي عندذاك...!

***

17

أعطيت لنبيل من العناية والمودة ما لم أعطه لبقية الغنم في «المَسَرَة».. ربما لم يكن في حاجة إلى ذلك.. سيعيش هنا كغيره من الأغنام.. لكنني لم أستطع أن أهمل أمره.. لأنه وُلد بين ذراعي كهدية من الله نيابة عن فلذة كبدي. ولذلك كنت أرضعه من ضرع أمه في أحيان غفلة الأرباب.. وهو حظ سعيد لا يحظى به حمل من الحملان فى تلك «المَسَرَة». وهل يمكن لي أن أمنحه شيئًا أغلى من إتاحة هذه الفرصة السعيدة ليرضع من ثدي أمه؟ وعند الشرب الجماعي من الدلو، كنت أسقيه لوحده.. خصصته بنواعم البرسيم.. وفي وقت الرعي، لا أدعه يبتعد عني.. لكنه كان يتقافز عني أحيانا على حين غفلة مني.. ينطلق ليجري إلى الأمام كولد مشاغب.. ثم يلتفت إليّ فأسرع إليه لأمسكه.. ولكنه ينفلت مني متسللًا إلى القطيع.. وأستمر ألاحقه حتى أمسكه.. أغمره بالقبلات.. لأنه بالنسبة لي، لم يكن واحدا من مئات الحملان.. بل كان ابني حقا.

كان مشاغبًا كبيرًا منذ صغره.. من عادته أن يناطح تيوسًا أكبر منه.. بعضها يستسلم لملاعباته المرحة حنانًا عليه.. ولكن البعض الآخر يطعنه بقرنيه في ثأر.. وكم من مرة عاد إليّ بجروح تنزف!. أسرق الماء من الحاوية وأغسل جروحه.. أرش عليها بالرذاذة الدوائية التي كانت عند الأرباب.. وكان نبيل يعرف ويقدّر هذه العناية والمودة التي خصصته بها.

وفي أحد الصباحات بينما كنت أتأهب لرعي الأغنام بعد تناول «الكبّوس»، ناداني الأرباب قائلا:

«لا تخرج.. عندك اليوم شغل آخر»

رجعت بالأغنام إلى «المَسَرَة».

وبعد قليل، خرج الأرباب من الخيمة بسكين حاد مشحوذ. أصابني الفزع كالبرق. يا الله، هل يريد أن يذبح تيسًا بين يدي ليأكل لحمه؟..

والأرباب يَسأل ولا يُسأل.. وقوله مسموع.. وأمره مطاع سواء كان مفهومًا أو غير مفهوم.. هذا هو النظام.. ولذلك خفت أن أسأله شيئًا.. واتبعته صامتا.

توجه إلى «مَسَرَة».. الصغار.. أشار إلى تيس يأمرني بقبضه.. أيقنت أنه يريد أن يذبحه.. قاتل..! لكني لم أتجرأ على الاحتجاج.. دخلت إلى «المَسَرَة» على مضض وجئت بالتيس الذي أشار إليه.. أمرني برفع رجليه الخلفيتين بعدما أمسكته مدبرًا بين فخذيّ.. ولم أدرك قصده بهذا الفعل.. والتيس الآن قائم على رجليه الأماميتين..

جسمه بين فخذي ورجلاه الخلفيتين بيدي.. حيث يستطيع الأرباب المقبل أن يرى بوضوح كل ما تحت جسمه.. يرتعش التيس خوفًا.. بل أنا أشد منه ارتعاشًا.. والأرباب يقبل وهو يتأكد من حدة السكين.. أمّا ما وقع بعد ذلك فلا أذكره.. إنما سمعت بعده صوت صراخ عال لم أسمع مثله أبدًا.. رأيت دمًا متدفقًا كأنه ينبجس من الصنبور.. وكان التيس يتلوى في يدي بشدة ويرفس بأرجله بكل قواه حتى خفت في لحظة أن يتملص من يدي.. «لا تخليه!» صاح الأرباب. وخوفًا من امتعاضه، تغلبتُ قوتي على قوة التيس.. استخرج الأرباب من جيبه رذاذة.. رشها على الجرح.. صدر من التيس ثغاء تكاد تفيض معه روحه.. أمّا النزيف فقد وقف للتوّ كما لو شدته ربطة. أخذ ارتعاش التيس يهدأ تدريجًا.. أشار الأرباب لإطلاقه إلى «المَسَرَة». ولم أضعه عند واجهتها حتى اندفع إلى الداخل بسرعة فائقة كخنزير أصابه الرصاص.

وا أسفاه.. تيس قد فقد «تيسيته».. وخصيتاه أُلقِيتا على الأرض أمام الأرباب قطعة لحم وقطرات دم. وقد لاحظت أنه لا يسمح لكل تيس أن يعيش برجولته وفحولته المتكاملة. ولذلك الغرض هناك تيوس مختارة.. وهم إذا بلغوا سنًا معينًا ينقلون إلى «مَسَرَة».. الإناث ليعيشوا معهن.. ولهم أن يضاجعوهن كلما شاءوا.. مستمتعين بفحولتهم بكل إمكانياتها.. أما غيرهم من التيوس فهم عاجزون جنسيا.. تم إخصاؤهم.. فإلى المسلخ مصيرهم. كنت قد لاحظت أن نموّ الأغنام المخصاة سريع جدًا. ولكني لم كن أعرف أن ذلك يتم بهذه الطريقة القاسية!

أشار الأرباب إلى تيس آخر. دخلت «المَسَرَة» وجئت به. والأرباب يعلم جيدًا سن ونموّ كل واحد منها.. ومتى ينبغي أن يتم إخصاؤها. ويكون ذلك في الشهر الأول لبعضها وبعد شهرين لآخر. وبالنظر إلى «مواهب» التيس الرجولية، استطاع الأرباب أن يخمّن بمهارة هل ينتج إذا كبر نسلًا جيدًا متصفًا بالنشاط والحركة؟. وهل ينجب عنزات حلوبًا؟. وهل يعطي عنزات ولودًا؟. وبناءً على تخميناته، يتم اتخاذ القرار بإخصاء التيس أو الإبقاء على فحولته.

ولم أزل أحضر واحدًا تلو آخر حسب إشارات الأرباب.. ولم يزل يقطع خصاها بنفس السهولة التي يقلم بها أظفاره. وبعد خمسة أو ستة، مدّ إصبعه إلى تيس آخر.. توقفتْ عندها نبضات قلبي.. لأنه أشار إلى نبيلي هذه المرة..! انكسر قلبي..! نبيلي..؟! أنت الذي أتمنى أن تمرح هنا بكامل رجولتك؟! ابني...؟! لا.. لا أدعك عرضة لسكينه.. ولن أطيق ذلك.. ومتجاهلًا بأن الأرباب يريده هو بالذات، قبضت على آخر دافعًا نبيل بقوة إلى ما بين الأغنام. ولكن للأرباب عينا نسر.. فبرغم أنه يجلس كسلانًا في الخيمة عادة، كان يستطيع أن يميّز كل واحد من الأغنام كخطوط كفيه..

«لا هذا.. ذاك» امتدت يده إلى نبيل مرة أخرى. لكني لا أستطيع القبض عليه.. لا أطيق تعذيبه بهذا العذاب.. قبضت مرة أخرى على رِجل تيس قريب آخر.

«حمار!» صاح الأرباب. وكان ذلك نهاية صبره القصوى.. وبعده تهبط على ظهري ضربة قوية.. أعرف ذلك جيدًا.. رغم ذلك قبضت على آخر في المرة الثالثة أيضًا.. هجم عليّ الأرباب رافعًا رِجله.. يضرب بها على ظهري ضربة طيّرتني إلى الأرض.. وقبض على رِجل نبيل.. وجرّه في امتعاض.. قمت إليه أهوي على قدميه متوسلًا للطفه.. «أرجوك أن تتركه.. لأني أحبه ولا أريد أن يساق إلى المسلخ.. دعه يعيش معي هنا..» استجديته بكل لغة أعرفها.

«حمار..» ضربني على رأسي.. «أنا أعرف انتقاء الفحول الجيدة التي تقدر على إنتاج نسل قوي ينمو بسرعة ونشاط ، هل تعرف شيئًا أنت، الحمار الهندي..؟ وهذا لا يلبث أن ينقل إلى المسلخ» جرّه الأرباب في استهتار، ثم أمرني برفع رجليه.. وبعد ذلك بلحظتين..! كانت خصيتا نبيل كغيره من التيوس ملقاة على الأرض متضرجة بالدماء اللزجة.

ولم تتحرر أذنيّ حتى الساعة من الصراخ الذي صدر من نبيل حينذاك.. وأحسست بأن هذا الصراخ يجرح قلبي كقطعة صوان حاد.. ولا أذكر بعده إلا أن نبيل أسرع إلى «المَسَرَة» وهو يبكي. ولما استيقظت بعده، وجدت نفسي مستلقيا على ربطات التبن. وكانت الشمس قد بلغت أشدها. أعطاني الأرباب شيئًا من الماء ثم أمرني بأعمالي اليومية. ويوم فقد نبيل رجولته، فقدت أيضًا حيويتي ونشاطي. ولم أفهم إلى الآن سر ذلك الاقتران وكيف سقطت رجولتي مع رجولة تيس!

***

18

رعي الضأن في البادية ليس بالأمر العسير. لعلكم شاهدتم صورها في الأفلام.. تمشي في مجموعات متكاثفة.. ويكون في طليعة القطيع واحدة قائدة تتبعها تلك التي بعدها، ثم تتبعها التي بعدها وهكذا إلى آخر القطيع.. وما علينا إلا أن نسوق القطيع من الجوانب. ولا نعيّن طبعًا قائدة إلا واحدة هي أشد القطيع ألفة معنا. وعليها مسؤولية قيادة جدد القطيع وصغارها. وكانت عندي في «مَسَرَتي» قائدات ثلاث، سميتهن بهذه الأسماء: «لَلِتَا»، «بَاتَمِنِي»، «رَاكِنِي».

وفي الوقت نفسه، رعي الماعز مهمة عويصة.. فهي لا تسير ولا تجري إلا بشكل مجنون.. إذا توجهت واحدة إلى اليمين تتوجه الأخرى إلى اليسار. والقطيع التي أرعاها تتكون من عدد يتراوح بين خمسين ومائة من الماعز. تخيلوا، يا إخواني، حالتي مع قطيع تتضمن هذا العدد من الغنم المجنونة.. أظن أنني قد سبق لي أن أوضحت لكم طبائعها الغريزية.. لم يكن من بين الحيوانات التي رباها الإنسان ما تظهر غريزتها الوحشية كلما سنحت له الفرصة كالماعز، على الرغم من أنها تعيش مثل الضأن مع الإنسان منذ حوالي ستة آلاف عام. والسيطرة على الجداء التيوس أمر شبه مستحيل. فتيس كبير قد يكون في مثل قامتي. وأما التيوس التي تُضم إلى قطيع العنزات من أجل التلقيح فالسكوت عنها أفضل.. لا همّ لها سوى المتعة والأكل..إذا هاج واحد منها يبدي بأسًا يأخذ أنفاس الناظرين.

ذات يوم، ضربت واحدًا منها من خلفه أثناء الرعي.. توجه إلى الوراء كأنه حقًا فيل هائج.. نخر بقوة شديدة حتى رأيت البخار يخرج من منخريه.. وفي اللحظة التالية، هجم عليّ لينطحني على صدري دون أن يتيح لي فرصة للإفلات.. شعرت بأنه قد وقعت على صدري مطرقة حديدية يزيد وزنها على ألف طن.. رأيتني أطير إلى بعد حوالي عشرة أمتار كالغريم الذي يسقطه البطل في الأفلام الهندية.. سقطت حالاً فاقد الوعي.. ما أدري كم طالت بي تلك الرقدة؟. ولما أفقت وجدت الأرباب جالسًا أمامي.. وما إن فتحت عيني حتى سكب على وجهي ماءً ساخنًا. «يا حمار» أخذ يصيح بالشتائم.

وقمت من هناك بصعوبة بالغة.. مددت بصري إلى الصحراء.. رأيت الأغنام متناثرة في مساحة أرضية تبلغ حوالي خمسة كيلومترات. انتفخت يدي اليسرى.. شعرت بألم فظيع بها.. «أشعر بأن يدي قد كسرت» - قلت للأرباب. فضربني بحزامه وصاح في وجهي آمرًا بجمع الأغنام. وأنذرني بأنه سيكون اليوم آخر أيامي إذا ضيعت واحدة منها.

جريت في الصحراء بيدي المفعمة بالألم.. كانت الأغنام تستمتع بحريتها الغير متوقعة.. قد أظهرت طبائعها الوحشية بحذافيرها.. مثلها كمثل أمة نهضت بغتة بالثورة من العبودية والاحتلال.. فصارت إلى فوضى تامة. وقبل أن آتي بواحدة إلى ناحية، تفر منها الأخرى التي كانت هناك.. ولا أجري وراء الثانية حتى تتخذ الأولى سبيلها في البادية.. بعد محاولات كثيرة، تبين لي أنه من المستحيل أن أجمع بين الجميع وأقودها إلى «المَسَرَة» في قطيع واحد.. انتهى بي الأمر إلى أن أنطلق مسرعًا إلى «المَسَرَة» بما اتفق أن وقع في يدي من الأغنام فأغلقت بابها عليها.. أعود أجري إلى البادية وأرجع إلى «المَسَرَة» مرة أخرى بحوالي عشرة أغنام تمكنت من قبضها. تواصلت العملية هكذا. وكانت المسافة بين «المَسَرَة» وأقرب رأس إليها بين تلك

الأغنام المتناثرة تبلغ كليومترين على الأقل.. وتمتد المساحة التي تتوزع فيها الأغنام حوالي خمس كلومترات من حيث وقوف الغنم الأقرب.. ولا عداد لمرات ركوضي قاطعًا كل هذه المسافة.. ولا أذكر شيئًا سوى أنني كنت تعبت إلى حد الخوف على نفسي من الهلاك.. ومع ذلك، أوسعني الأرباب ضربًا حينما توقفت هنيهة لأشرب قليلًا من الماء.. انتزع مني الكوب ورماه بعيدًا.. واستمررت أركض هكذا لاهث اللسان بحلق يابس..

أثناء الركض، كنت أرفع بصري إلى السماء.. أشكو إلى الله بثّي وحزني.. يا الله.. يا مولاي... ما زلت أدعوه بصوت عالٍ.. كنت أرى الأغنام ترعى على بعد بعيد.. لكني كيف أصل إليها! عطش متلهب.. حر حارق.. قدمان منتفختان من الإعياء كما لو أصابهما داء الفيل.. يد يمزقها الألم.. ركضت وراء الأغنام وصوتي يعلو بالصراخ والبكاء.. لكن السماوات بدت هادئة ساكنة غير أنها واصلت إرسال لفحات الحر الشديد.

وقد زال الظهر حينما وصلت بآخر الغنم إلى «المَسَرَة».. وها أنا ذا اليوم أتعجب من نفسي كيف استطعت أن أبقى حيا تحت لسعات الشمس اللاهبة بدون لحظة إستراحة ولا قطرة ماء على مدى تلك الأوقات الطويلة! وما ساعدني على البقاء في تلك اللحظات إلا الإيمان القوي بالله والرغبة في الحياة مهما كانت الظروف قاسية. وبعد أن أدخلت الرأس الأخير إلى «المَسَرَة» انطرحت على السرير في تعب مفرط.

جاء الأرباب يجلس بجواري.. صب في فمي قليلًا من الماء. «الماء.. الماء..» تفوهت بالكلمة طالبا مزيدا من الماء. «المبذّرون أمثالك.. لا يعرفون الاقتصاد في استعمال الماء.. مسرفون حقا أنتم» سمعت صوت الأرباب وأنا في شبه غيبوبة. ولم ألبث أن فقدت شعوري.. ولما استرددت وعيي في وقت لا أذكر متى كان من الليل، وجدت يدي منتفخة بشكل غير طبيعي..

أحسست فيها بألم فظيع لا أكاد أطيقه.. تأكدت أنها قد كسرت.. مع ذلك كنت أعاني من ألم شديد في القفص الصدري الذي دمرته ضربة التيس تماما.

كنت عطشانًا جدًا. قمت بخطوات غير ثابتة وشربت الماء. ذهبت إلى خيمة الأرباب متحملًا آلامًا عارمة.. رمى إليّ بثلاثة «كُبُوس» وهو يعاتبني على تمضية الوقت في نوم طويل.. أكلت في شراهة تلك «الكبُوس» كلها بعد غمسها بالماء لأني لم أعد أطيق الجوع. ولم أستطع النوم في تلك الليلة من شدة الألم. أتيت مرارًا أمام الخيمة باكيًا أستجدي الأرباب لينقلني إلى مستشفى.. لأن يدي قد كسرت.. لكن ندائي لم يلق آذنا صاغية.. وفي الصباح أتى إليّ يوقظني.. حاملًا معه دلوَ الحليب، يأمرني بحلب الأغنام.. عرضت عليه يدي.. لم يكن جوابه إلا أن ضربني ضربة قوية على رأسي..

لم يذهب شيء من الألم من القفص الصدري.. بقيت يدي منتفخة كما لو أصابها داء الفيل.. آلام لم أطق احتمالها.. توجهت إلى «المَسَرَة» في خطوات مترنحة حاملًا يدي المكسرة.. كيف أحلب الغنم بيد واحدة..؟ عادة، أحلب عنزة مطيعة بلا صعوبة كبيرة مستخدمًا كلتا اليدين واضعًا الدلو على الأرض.. لكن بالنسبة للمتمردة فلا بد من الملاطفات على جسمها.. وماذا أفعل بيدي المكسورة هذه؟ وإذا رفست العنزة ينقلب الدلوعلى الأرض بالحليب الذي جمعته فيه بيد واحدة. دخلت إلى «المَسَرَة» على عزيمة متوكلًا على الله.. وكانت أول عنزة وقعت عليها عيني تلك التي سميتها بـ«بُوتْشَاكَارِ رَمَنِ». وهناك قصة من وراء تسميتها بذلك الاسم، وسأقصها عليكم فيما بعد.

قلت لها ناظرًا إلى عينها: «حبيبتي رَمَنِ.. لا أقدر أن أحرك يدي.. وذلك هدية استلمتها من أحد رجالك.. لكن الأرباب لا يملك إلا أن يشرب الحليب في الصباح.. سواء إذا كسرت يدي أو سقطت السماء على رأسي..

مهما كان، إنما يريد الحليب في الصباح.. فلا بد أن أحلب له.. وإن تعاونتِ معي، لتخلصتُ من بقية ضرباته.. فبِيديك أمري اليوم».

والحق يقال، وجدت الأغنام في أحيان كثيرة أكثر فهما لي وأشد تعاطفا معي من الإنسان. وقفت «رَمَنِ» اليوم هادئة ساكنة من أجلي. استطعت أن أحلب ما يكفي للأرباب.. وضعت الدلو أمام الخيمة وأنا ألعنه في نفسي بألذع الكلمات «اشرب يا خنزير! اشرب حتى يشبع نهمك».

بعد شرب الحليب، جاء إليّ يأمرني أن أحلب نصيب الحملان الرضيعة.. وكنت فعلا منهوك القوى .. ولحظتها، وجدتني أصارحه قائلًا: بل أظن أنني كنت أصيح في وجهه «لا أقدر! لا أقدر! لا أقدر!» اندهش من ذلك الأسلوب الجديد الذي لم يسمعه مني قط.. وانطرحت على السرير على بطني منتظرا أسواط حزامه على ظهري.. ربما سيقتلني.. خليه يقتل.. خلّه يقتلني ويأكلني، سيكون ذلك أرحم بي من هذا العناء.. وما الذي يقوى على تخويف الإنسان إذا كان على استعداد للقاء الموت! يا الله، لقد تعهدت لك ولشريعة دينك أنني لن أقتل نفسي أبدا. ولكني لا أظن أنك ستؤاخذني إن خليت بين نفسي وبين هذا الأرباب القاتل.. أنا المحروم الذي لم يُقدّر له رؤية ولده.. ولكني لا أتحسر على ذلك إن أنقذتني من هذه المعاناة وأذنت لي في الموت بيد الأرباب..

على خلاف ما ظننت، لم يأت الأرباب إليّ بعد ذلك. وأخذت الأغنام تبدي احتجاجها على اختلال عاداتها.. هكذا هي.. تعيش على نظام.. إذا حدث شيء من التغيير في نمط حياتها، تنقلب الأمور كلها رأسا على عقب.. خلِّ كل شيء يذهب إلى الجحيم.. لا يهمني شيء.. استلقيت مسمرًا على سريري..

وبعد قليل، عرفت أن الأرباب الكبير قد حضر بسيارته. لكنني تجاهلت قدومه. وبعد أن تحدثا قليلًا، أتى إليّ الأرباب الكبير.. فحص ما بيدي وهو يجس مكان الورم.. كنت أصرخ من شدة الألم.. أتوسله أن يأخذني إلى المستشفى.. إلا أنه انصرف ذاهبًا إلى سيارته.. مستهترًا بصرخاتي المتواصلة.. ولم أبرح السرير.. بعد قليل عاد الأرباب إليّ ببعض من الأدوية العشبية.. هرسها في آنية.. وضعها في المنطقة المتورمة من يدي.. لف حول يدي قضبانا وقماشا وجعلها كضمادة.. عرضت عليه تورم صدري.. وضع الدواء عليه أيضا.. وما زلت أتوسل إليه ليأخذني إلى المستشفى.. وكان يجيبني قائلا: «ما يهمك.. سيتحسن فورا».. لكنني لم أطمئن إلى كلامه.. خفت أن يزيد التورم ويتقيح الجرح حتى يؤدي الأمر إلى بتر يدي.

أعطاني الأرباب بعض الكُبّوس.. ابتلعتها فورا بكل شراهة بعد غمسها في الماء. وأمرني برعي الأغنام منبهًا بأنني قد تأخرت الآن كثيرا.. ولم أكن أملك عصيانه.. هرولت إلى «المَسَرَة» حاملا يدي المكسورة.

أحسست مع الظهر بأن الألم قد أخذ يزول عن يدي.. وما جاء الليل حتى غادرها الألم تماما. انخفض تورم الصدر واليد في غضون يومين.. وبعد مضيّ حوالي عشرة أيام.. فككت الضمادة الخشبية.. خلال هذه الأيام، كنت أقوم برعي الغنم وحلبها بيدي الصحيحة.. أتذكر اليوم مستغربا كيف أن الأغنام لم ترفسني طيلة هذه الأيام ولا قلّبت دلو الحليب وما همت أن تنطحني!

والحق يقال: كانت الأغنام في كثير من الأحيان أفهمَ لي من الأرباب. ربما كانت تعرف أنني لن أوذيها مهما آذتني.. ومع ذلك، احتفظت ببعد عن التيوس.. إذا قفزت عليّ أفلتت منها أو أوسعتها ضربًا بعصاي.. ولذلك لم يسقطني على الأرض تيس فيما بعد.

دعوني الآن أخبركم شيئًا لم يرد في حكايتنا إلى الآن.. هل تصدقونني إن قلت لكم: إن أقصى ما طمحت إليه في طفولتي هو أن أكون راعي غنم؟ وربما تكون تلك الرغبة ناتجة عن تأثير قصيدة «رَمَنْ» الشعبية[1] في نفسي والتي كانت أمي تحبها كثيرا.. أتجول من بلد إلى آخر.. أمشي الهوينا مع القطيع في السهول والوديان.. أخيّم في كل يوم في مكان جديد.. أحرس الأغنام في الليالي الباردة إلى جانب موقد نار.. كان رعي الغنم بالنسبة لي تجربة خيالية نسمع عنها فقط في الحكايات الغريبة والعجيبة.

ويوم أصبحت راعي غنم في الواقع، أدركت مع استياء البعد الشاسع بيني وبين حلمي.. إنما أقول لكم: إنه لا ينبغي أن تحلموا ولو عبثًا بالأشياء البعيدة عنكم أو الأمور التي لا علم لكم بها.. وأنذركم بأن تلك الأحلام إن تحققت يومًا في حياتكم ستكون أرهب مما تطيقون النظر إلى وجهها.

***

(1) قصيدة مالايالامية مشهورة تتناول قصة راعي غنم.

19

لولا شاحنة الشعير التي تحضر مرة في الشهر وشاحنة التبن التي تجيء مرة في الأسبوع وشحنة صهريج المياه التي تأتي مرتين في الأسبوع، لتيقنت أنني أعيش هنا في كوكب آخر.. لا يوجد فيه أحد سواي ما عدا الأرباب ومجموعة من الغنم. وهذه الشاحنات هي صلة الوصل الوحيدة بين كوكبي هذا وبين أرجاء الكون الأخرى. وكان سائقوها كلهم باكستانيين «بَطّانِيّين». ويتمثل اتصالي بالعالم الخارجي في اتصالي بهم. وعلى أقل تقدير، يمكن لي أن أحيطهم علما بوجودي هنا. وهم وحدهم يقدرون أن يشقوا لي يوما طريق النجاة لأخرج من هنا.

خبأت في نفسي أملًا خفيا أن تسنح لي فرصة أو أخرى في يوم أو آخر. لكن الأرباب كان يبدّد تلك الفرص كلها.. حيث يرسلني مبكرًا إلى البادية في أيام مجيئهم.. ويشترط عليَّ أن لا أعود إلى «المَسَرَة» إلا بعد ذهابهم. وليس لي حق إلا لأساعدهم في تعبئة الماء في الخزان وتنزيل التبن والبرسيم والشعير من الشاحنات.. رغم ذلك كله، تمتلئ في قلبي الفرحة كلما جاءت شاحناتهم ، نفس الفرحة التي نشعر بها حينما ينزل في بيتنا ضيوف مقربون.. وفي تلك الأيام أتحدث إلى الأغنام بصوت عالٍ فوق العادة.. لكن حينما أرى تلك الشاحنات تبتعد عني مخلفة وراءها غبارًا ثائرًا، أحس بأن العالم كله يبتعد عني. ولحظتها يغمرني فتور كأن قلبي استنزفت دماؤه.

وذات يوم، وصلت شاحنة وليس عليها عمال لإفراغ الأغراض التي تحملها. واضطر الأرباب أن يدعوني من البادية. وكان سائقها - وهو أيضا باكستاني - ثالث إنسان أراه عن قرب بعد زمن طويل.. أحسست بأنه كان يحمل معه رائحة طاب لي معها حتى ريح عرقه مما نبهني إلى مدى النتانة التي استوطنت جسدي.. لم أتمالك حبس فرحتي بلقاء إنسان حتى حاولت أن ألمسه.. وقد شعرت حينها بخيوط الفرحة تتضافر في أعماق قلبي..

وأثناء عملية التفريغ، حاولت أن أفضي إليه بمأساتي مصاغة في جميع وسائل التعبير التي أملكها.. ظللت أتوسل له؛ لينقذني من هذا الجحيم كيفما يستطيع.. لكنه لم يكن يستمع إليّ.. وقد فجعتني اللامبالاة التي أبداها وجهه.. حينما لوّح إليّ الأرباب بيده يدعوني إلى الشاحنة، كنت أطير نحوها على أكتاف الأمل والفرح.. مخلفا الأغنام كلها.. مدفوعا برغبتي العارمة في الحياة والتفاؤل بها. أيقنت أنه قد حانت اللحظة المنتظرة.. لكن نظراته الميتة قضت على آمالي كلها.. كنت أنظر إليه نظرة من يستجديه كلما وضع على رأسي حزم التبن والبرسيم أثناء تنزيلها من الشاحنة.. حاولت لفت انتباهه بالتلويح المتكرر.. توسلت له حتى ينقذني من هذا السجن بينما كنت أمشي بجانبه أثناء العمل على هيئة تبدو للناظر طبيعية تماما.. بل إني هويت على قدميه متظاهرا بأنني كنت أنحني لآخذ حزمة برسيم وفي الحقيقة ألقيتها إلى الأرض متعمدا.. وحتى حينها أبى أن يتكرم عليّ ولو بنظرة واحدة.. آه.. أنا وحدي أعرف كيف تحطم قلبي حينذاك!.

ولما انتهت عملية التفريغ، رجع بشاحنته حتى بدون ابتسامة عابرة.. انتشر الظلام على آمالي.. لعنته حينها بألفاظ أستحيي أن أذكرها الآن.. لا أظن أحدًا في العالم قد لعن رجلًا غريبًا أشد مما لعنته حينذاك.. وما حقد أحد على أحد كما حقدت عليه.. ضربت على صدري ضربات قوية لتسكين هذا الحقد الثقيل ولو قليلًا وأنا في طريقي إلى البادية لجمع الأغنام..

والآن أفهم جيدًا أن ذلك السائق المسكين الذي يعرف أربابي منذ سنوات كان عاجزًا تمامًا عما رجوته له.. ولا يمكن لأحد أن يخمن كيف يكون رد فعل الأرباب إذا رأى سائقا يتحدث معي! وذات يوم، ما إن همّ سائق شاحنة الشعير أن يتحدث إليّ حتى جاء الأرباب يجري حاملًا في يده مسدسه.. وأذكر كذلك سائق شاحنة المياه الذي ضربه الأرباب بعقب مسدسه ضربة أسقطته على الأرض عقابًا على جريمة التحدث إليّ. ومن يدري كم من «الأغنام» مثلي قد احتجزوا هنا في هذه «المَسَرَة»!. ربما لم يتحرر ذلك السائق الباكستاني إلى الآن من ذكريات العقاب الذي تلقاه من الأرباب بسبب محاولاته لإنقاذ بعض من هؤلاء «الأغنام».. ومن يدري ربما يكون الآن يبكي في سيارته بكاء شديدًا متحسرًا على تركي هنا بلا رحمة. وأحببت أن أؤمن بأنه ما تركني متعمدا. و قبل مضي ذلك اليوم، نجحت في إقناع نفسي بذلك الاعتقاد.. وهكذا كنت أتغلب على كثير من آلامي.. يا الله..ربي الرؤوف الرحيم.. أنت الذي كتبت عليّ مكابدة تلك الأيام لتبتليني بها وحدي .. غفرانك من حقدي ولعني شخصا آخر بسببها.

في البداية، شعرت بالرائحة النتنة تنبعث من كل شيء في «المَسرة».. رائحة تثير الغثيان.. تجتمع فيها عفونة جميع فضلات الغنم بالإضافة إلى التبن والبرسيم المبللين ببولها. ولا عهد لي بمثل هذه الرائحة إلا في خيمة السيرك.. حتى الحليب لم يسلم من تلك الرائحة.. كلما غمست فيه «الكُبوس» كانت الرائحة النتنة تخترق أنفي.. كم تقيأت في الأيام الأولى! لكن شيئًا فشيئًا توقفت عن التقيؤ.. أو ربما بدأت أنسى تلك الرائحة.. فيما بعد، ورغم أني حاولت مرات عديدة إلا أنني لم أستطع أن أستعيدها.. لقد أصبحتْ جزءًا مني في واقع الأمر.. ولم أكن أصدق أن رائحة نتنة مثل هذه كانت موجودة أصلا.. وهذا إلى جانب أنني أصبحت اليوم قادرا على التمييز بين روائح الأغنام..

إن للتيوس رائحة وللضأن أخرى والضأن تتنوع إلى مئات الأنواع ولكل نوع منها رائحة خاصة به.. وكذلك للأغنام الحوامل رائحة تتغير إذا اقتربت ولادتها.. وبناءً على ذلك، استطعت حتى أن أقدّر يوم ولادتها. وللمولود رائحة غير تلك التي للحمل الرضيع. وتختلف رائحتها في أيام الضراب. وأما الجمال فرائحتها مختلفة عن كل هذه الروائح. والجمال نوعان، نوع ذو سنام واحد وآخر ذو سنامين. ولكل منهما رائحة خاصة. وهناك حيوان وحيد في «المَسْرَة» بلا رائحة مميزة.. هذا الحيوان هو أنا..!

وذات يوم استبدّت بي رغبة في كتابة رسالة إلى زينب.. لم أفكر حينها كيف ستصل رسالتي إليها!. «اكتب...اكتب» أمرتني نفسي.. سحبت حقيبتي من تحت السرير أثناء الفسحة الضيّقة بعد تناول الغداء في الظهر، أعني «الكبوس» والماء.. استخرجت منها القلم والورقة اللذين اشتريتهما من «مُمْبَاي».. لم يكتب القلم إلا بعد خربشة كثيرة.. ولم أكن أعرف كيف تُكتبُ الرسالة لأني كنت أكتبها الآن لأول مرة.. رغم ذلك، أخذت في الكتابة جامعا كل المشاعر التي تختلج في نفسي..

حبيبتي زينب،

وصلت هنا بالسلامة، ولم أقدر حتى أن أكتب لك رسالة بسبب كثرة الشغل. وأعرف جيدًا أنك هناك قلقة عليّ.. لا تقلقي.. حبيبك هنا على ما يرام.. أشتغل هنا في شركة تنتج الصوف والحليب.. والشغل سهل.. وغير مرهق.. الماكينة تقوم بكل شيء.. وإنما أشرف على الشركة.. وأربابي معجب بي وبعملي.. وهو يهدي لي الهدايا من حين إلى آخر.. وسكننا هنا في غرفة واسعة جدًّا.. جميلة المنظر.. يمكن لي أن أرى جميع المناطق المجاورة وأنا مستلقٍ على ظهري في سريري.. وأما الطعام فيقدم لي الأرباب ألوانا من الأطعمة التي ما طعمتها إلاّ اليوم. وأكتب الآن هذه الرسالة بعدما

شربت كوبًا من الحليب الطازج فوق ما تناولت «الكبوس» ولحم الخروف والدجاج. وأظن أنه قد زاد وزني كثيرًا خلال هذه الأيام القلائل. والآن أنا في استراحة بعد الظهر.. عادة أنام في هذا الوقت مستمتعا بالنسيم العليل إلى أن يستأنف الدوام بعد قليل.

ومعي هنا من بلادنا أصدقاء مثل «رَاوُتَـرْ» و«رَاكَهاوَنْ» و«وجَبَنْ» و«بُوكَّر».. هم أصدقائي كثيرًا كثيرًا لأن أربابي لا يحب مني ذلك.. وله بنت صغيرة تُدعى «مِيْرِي مَيْمُونَة».. هي جميلة كالحور العين.. أتمشى معها في المساء انقيادًا لدعوتها الملحة.

هذه هي أخباري هنا وأرجو كذلك أن تكوني وأمي على ما يرام.

و إن شاء الله سأكتب لك الرسائل كلما سنحت لي الفرصة.

حبيبك نجيب.

طويت الورقة ثم بكيت كثيرا وأنا مغمض العينين. ولم يكن حالي متمثلا في تلك الرسالة بل في بكائي وعويلي.. ولم يطلع أحد على حالي البائس.

***

20

وذات يوم، بينما كنت أرعي الغنم، لاحظت زاوية السماء الشرقية تتلبد بالغيوم السوداء. وكنت قد لاحظت طبيعة الصحراء.. تهب ريح محملة بالغبار كتنبيه سابق على تغير الموسم.. تتغير على إثرها ملامح الطقس. تغيرات الصحراء دائمًا سريعة الحدوث.. كأنها لا تحب التأني والتدرج في شؤونها. قد تصير الليلة الحارة إلى صباح بارد.. وقد ينتهي بغتةً البرد القارس الذي يجبرنا أن نتغطى ببطانية الصوف ويتلوه يوم حارق. وقد يكون الجو نقيًا صافيًا من الغبار فتأتي في اللحظة التالية عواصف تعكر صفوه. وها هي قد أتت الآن هكذا، بعد لفحات الحر طوال النهار، تراءت على إثرها فجأة غلالات الغيوم السوداء في وديان السماء النائية، لم تلبث أن تناثرت في أرجائها حتى صارت السماء كلها معتمة كبطانية سوداء تغطي الصحراء. هبت النسمات الباردة التي أحسست بأنها تتسلل إلى قلبي وجسمي.. خيل إليّ أنني انتقلت فجأة من الصحراء إلى القطب الجنوبي. وبدأت الأغنام تجري على غير هدى. وأثارت تغيرات الطقس في نفسي نشوة كالأغنام تمامًا.. جريت باسط اليدين في الفضاء البارد تاركا الأغنام تجوب الصحراء.

وما زلت على هذه الحال إلى أن جاء الأرباب يقذفني بغضبه.. جمعت القطيع ورجعت بها إلى «المَسَرَة».. وما وصلت إليها حتى أخذت السماء تمطر بشكل خفيف.

ولما هبطت على جسمي قطرة المطر الأولى، تلوّيت كأنني تعرضت لطعنة خنجر.. إن لم تخني ذاكرتي، فهذه أول مرة تمس جسمي فيها قطرة ماء منذ حوالي عشرة أشهر.. وكان ذلك تجربة أليمة. وبعد قليل، اشتدت زخات المطر وأحسست بكل قطرة طعنةً نافذةً في جسمي. ولم أقدر أن أصبر على الألم.. أسرعت إلى أخذ بطانية تحميني من تلك الطعنات. بدا أن الأغنام أيضًا تعاني من الألم.. ثغت بصوت غريب عالٍ. وفي تلك الأثناء، وصل قطيع الجمال التي تتسم بهدوء الطبع عائدًا في المطر من تجوالها في مجاهيل الصحراء وبدت هي الأخرى منزعجة من جراء وخزات المطر.

واصطحب المطرَ الرعدُ والبرقُ.. خفت لحظةً أن ينزل علينا لهاب البرق من السماء فيحرق «مَسَرتنا»..

ومع كل قطرة مطر تهبط على رأسي انتصبت كل شعرة من شعرات رأسي من شدة الألم.. أصابتني رعشة.. أخذ الألم والالتهاب يسريان في جسمي كله.. رغم أني وددت أن أتعرض للمطر وأغتسل فيه، إلا أني لم أكن لأتحمل ذلك. ولما تجاوز الألم حدود الاحتمال، هرولت نحو خيمة الأرباب.. ما أعجب المنظر الذي رأيته هناك..! كجبان، يقعد الأرباب جاثمًا في زاوية.. فكرت أنه لا يخاف شيئًا في العالم كما يخاف المطر والماء.. ولم أر طيلة حياتي أحدًا أشد منه خوفًا من المطر.. كما يفزع من لمسات الجن، أصابه الذعر مع كل قطرة ماء تهبط على جسمه.. وكلما قذف المطر بقطراته إلى داخل الخيمة، ازداد انسحابًا إلى الزاوية.. وتفكرت حينها أنه ربما لم يغتسل ولو مرة واحدة بعد أن ولدته أمه.

ولأول مرة، رحب بي الأرباب إلى داخل الخيمة.. أجلسني على سريره حينما هممت أن أقعد على الأرض.. انتزع يدي كطفل مفزوع.. انسللنا إلى تحت بطانية هربا من المطر.

وبينما نحن كذلك، تعثرتْ يدي بشيء تحت الوسادة.. عدت أتحسسه في شك.. كان ذلك مسدسه..! أمسكته بحذر.. سللته.. والأرباب لا يكترث بشيء.. إنما كان منغمسًا في الدعاء إلى الله ليتوقف المطر وهو يكرر اسم الجلالة «الله الله الله».. وفجأة استولت عليّ وحشية.. بدأت نفسي تحدثني: «حدّد الغرض واسحب الزناد وأنقذ نفسك.. السيارة موجودة في الخارج وفيها مفتاحها.. يمكن لك أن تتبع الطريق كيفما تستطيع حتى تفر من هذا المكان.. ها هي فرصتك قد سنحت.. فرصة أتاحها لك الله ربك الرحيم لينقذك من هنا.. وإن بدّدت هذه الفرصة فقد لا تعود إليك أبدًا.. ألا تعرف أن الفرص لا تتكرر.. افعل..! واهرب الآن من هذا الجحيم إلى مكان ما..» كنت على وشك أن أسحب الزناد. فجأة سمعت الأرباب يعلو صوته بالدعاء وهو يقول: «يا ربي.. قد أنجيتني.. ولولا نجيب، لمت من شدة الخوف..» وهذه أول مرة أسمعه فيها يتفوه باسمي.. وما كنت أظن أنه يعرف اسمي.. لأنه ما سمعته إلى الآن يدعوني إلا «حمار» أو«هندي» وغير ذلك.. قد رق له قلبي بهذا الدعاء والنداء.. فما رغبت في النجاة بعد قتل جبان يستجدى المعونة.. أعدت المسدس إلى مكانه الأول..

ولما أحسست بالحر أبعدت البطانية المبتلة عن جسدي.. وحرّرت يدي من الأرباب.. ثم تجردت من ثيابي.. نزلت بجرأة إلى المطر عريانا كما ولدتني أمي.. في البداية كان جسدي يعاني من ألم شديد.. صبرت على وخزات المطر.. بعد قليل، شعرت بالألم يتخفف شيئًا فشيئًا.. حتى أصبحت كل قطرة من قطرات المطر تبعث في الإحساس بالبرد والشعور بالمتعة.. كنت أحتفل بالمطر.. أرتع كحملان الغنم التي شاهدت غيوم المطر في السماء.. وقد غسلني المطر بعد عهد طويل.. وجلت جسدي زخاته عن الوساخة المتراكمة عليه.

ولما توقف المطر في وقت ما من الليل، أسرع الأرباب إلى سيارته وسار بها مسرعًا. ولم يرجع إلى «المَسَرَة» في تلك الليلة. وبعد قليل اشتد هطول المطر مرة أخرى. وكنت أتمتع بحرية كاملة طوال الليلة بدون أحد ليمنعني أو يوبخني.. لا شك أن هذه أنسب فرصة للهروب.. لكنني لم أهرب.. وكما في كل مرة، لم أكن أعرف اتجاهًا يوصلني إلى ملاذ آمن.. وأدت رغبتي في الهروب عندما سنحت له الفرصة الذهبية.. ورب فرصة مثل هذه يبدّدها كل واحد منا في حياته.. أليس كذلك..؟ نحن الذين يلقون بالكأس الذهبية مهجورة لحظة الفوز بها رغم اشتياقنا الطويل إليها.. نتخلف عن استخدامها في اللحظة الحاسمة وتلك مشيئة الله..

ولكن نفسي ألحت عليّ أن أفعل أي شيء في هذه الليلة التي تحرّرت فيها رقبتي من أغلال الأرباب.. كنت مستعدًا لإتيان أي فعل يثير غضبه وسخطه.. وإلاّ فكأنني ضيّعت لحظات الحرية النادرة التي حظيت بها الليلة.. وللتو خطرت ببالي رغبة في الذهاب إلى «المَسَرَة» التي كانت غير بعيدة عنا.. لعلي أوفّق للقاء عبد الحكيم الذي لم أره بعدما أنزله الأرباب هناك ليلة وصولنا هنا. ولا أدري هل لا يزال حيا أم قد انتقل من قساوة الأرباب إلى رحمة ربه أو قد لاذ بالهروب؟. ولدٌ مسكين قد صار بعيدا عني على الرغم من قرب المكان.. ما أضيق محبسي هذا!. تفكرت متضايقا..وقد استأذنت الأرباب مرة أو مرتين في الذهاب إلى تلك «المَسَرَة» المجاورة. ولكنه أعرض عن سؤالي كأنه لم يسمعني. وفي تلك الليلة التي أمطرت فيها السماء مدرارًا خرجت متجهًا إلى «مَسَرَة».. عبد الحكيم.. طرقت بقلق على البوابة المقفلة بقفل حديدي. أفزعني احتمال أن يكون هناك أربابه.. ورغم ذلك، فقد واصلت طرقاتي.

عبد الحكيم.. يا عبد الحكيم.. هل أنت تسمعني..؟ هذا أنا نجيب بالباب.. الذي جاء معك إلى الخليج.. أنت هناك..؟

ولما ردت إليّ طرقاتي من غير أن تجد أحدًا يجيبها، تأهبت للرجوع مبتئسًا.. عند ذلك لفت نظري شبح يتحرك على البعد.

«يا عبد الحكيم.. أأنت هذا..؟ هأنذا نجيب» هتفت قائلا بأعلى صوتي.

شككت أن يغلب المطر على صوتي بفحيحه.. ولكني قد رأيت ذلك الشبح لا يزال يدنو مني شيئًا فشيئًا.

«يا عبد الحكيم.. أهذا أنت..؟ تعال هنا.. هذا أنا نجيب..».

ولما اقترب مني الشبح أكثر، نظرت إليه بمجامع عيني.. شبح رهيب آخر.. إنسان مشوّه نحيل أسود ذو شعر طويل.. هذا ليس بعبد الحكيم.. لم يكن بهذه الهيئة.. كان رشيقا شديد البياض فائق الحسن مفتول العضلات بشكل يليق بعمره.. كنت أضحك منه يوم كنا في «مُمْبَايْ» قائلا: «لا داعي أن تسافر معي إلى الخليج.. ربما تحصل على فرصة في الأفلام الهندية هنا..».

«هل يوجد هنا أحد يدعى عبد الحكيم..؟ أنا صديقه.. جئنا معا من البلاد.. ولم أره بعد ذلك قط.. هل تعرفه..؟ هل تعرف أين هو..؟». ألقيت على الشبح الرهيب المقبل بوابل من الأسئلة في نفَس واحد..

وقف طويلًا وراء البوابة يحدق في وجهي كما لو كنت أتحدث إليه بلغة غريبة.. فجأة، بدأ يضرب برأسه على البوابة وصوته يعلو بالصراخ.. أوجست منه خيفةً.. وأثناء الصراخ، سمعته يناديني باسمي بصوت يتقطع له القلب.. صدّقوني أنني عرفت لحظتها فقط أنه هو عبد الحكيم.. اكتشفت مفزوعًا أن الظروف قد تقوى على إعادة رسم خريطة جسد الإنسان بشكل

لا يقدر على تمييزه أحد.. تصورت حينها صورة جسمي الذي لا بد أن تلك الظروف قد غيرته.. وما نظرت إلى مرآة قط بعد ما وصلت إلى هذه الصحراء.. ولو نظرت، لما عرفت نفسي.

بكى عبد الحكيم طويلًا وهو يدعو ربه وينادي والديه وأهله.. وما كنت أملك جوابًا له.. إنما كان كل ما في وسعي هو أن أشاركه في البكاء محتضنًا يده من بين القضبان الحديدية. وذرفت الدموع طوال تلك الليلة.

***

21

أمطرت السماء ليومين آخرين. ثم فتحت الصحراء شبابيكها السماوية لنستقبل الشتاء. وأصبحت الليالي شديدة البرودة متبوعة بصباحات حافلة بالضباب.. لا أرى حولي في الصباح حينما أستيقظ إلا غلالات بيضاء من الضباب تخفي في طياتها كل شيء بما فيها الأغنام و«المَسَرَة» والأرباب والخيمة.. ولا يتلاشى الضباب لتتضح الأشياء إلا بعد أن يبلغ التاسعة صباحًا.. (وتوقيتي كله مبني على التخمين.. وبالنسبة لحيوان متشرد مثلي، فلا وسيلة لمعرفة الزمن والوقت إلا ما يقترحه الخيال)..

فطبعا تأخرت الأعمال اليومية عن مواعيدها في الصباح. وما أطول النهار في موسم الصيف!. تطلع الشمس عند الساعة الثالثة صباحا.. ولا تغرب إلا مع الساعة الثامنة مساء. وأما في موسم الشتاء فتكاد الشمس التي يتأخر طلوعها حتى الساعة التاسعة في الصباح تضمحل ونحن لم ننته من تناول الغداء.. تنتشر العتمة مع الساعة الرابعة مساء. ولذلك، قصرت ساعات العمل في أيام الشتاء.. فاضطررت أن أتمّم الأعمال كلها في غضون ست أو سبع ساعات.. وهي نفس الأعمال التي كانت تستغرق حوالي خمس عشرة ساعة في أيام الصيف.. إضافة إلى ذلك، فقد أوجبت عليّ شدةُ البرد حالةً من «لا مِساس» مع كل شيء.. يتسلل البرد القارس إلى عمودي الفقري حتى في منتصف النهار.. لم أقدر أن أضع يدي في الماء.. ويا له من برد..! لو غمست يدي في الماء هنيهة لهلكتُ.. في تلك الفترة اكتشفت أن الماء البارد أيضًا يقدر على حرق الجلود. وذات مرة، احترقت كفي اليسرى بسبب غمسها في الماء البارد وامتلأت بالبثور المنتفخة كما لو وضعتها في الماء المغلي.

إنما سمعت عن البرد بهذه الشدة في القطبين.. تعجبت كيف اتخذ سبيله إلى هذه الصحراء!. وليس عندي ملابس شتوية تحميني من البرودة.. كلُّ ما عندي هو ذلك الثوب القديم، القميص الطويل الذي أعطانيه الأرباب في اليوم الأول.. والذي لم يفارق جسمي بعده أبدا.. ولا حظي بالغسيل بعده ولو مرة واحدة.

ما عدا ذلك، كانت عندي بطانية خلفها الشبح الرهيب عند هروبه.. كنت أتلفع بها في بداية أيام الشتاء.. ولكنني شعرت بانزعاج بسبب ذلك.. خاصة أثناء الشغل مثل الركض وراء الأغنام وتوزيع التبن والبرسيم في «المَسَرَات».. فتوقفت عن استخدامها فيما بعد.. وعوّدت نفسي على لبس ثوب واحد في أيام الشتاء.

حتى لدى بلوغ البرد ذروته، كان هناك شيء دافئ إلى جواري.. إلا أنني تأخرت عن اكتشافه.. الضأن..! ما أروح المشي في الشتاء وأنا بين قطيع منها..! كلما أقبلت الريح الباردة بصفيرها، أسرعت إلى معانقتها.. وفي الليالي التي يلسع البرد جسمي متسربًا بألسنته من بين ثقوب خيوط البطانية، التجأت إلى «مَسَرتها» لأنام فيها معها.. وهكذا قضيت أيام الشتاء كخروف بين قطيع الضأن.

وفي هذه الأيام، كنت أستطيع - لو أردت - أن أهرب مع عبد الحكيم مستترا بالضباب الكثيف.. ولكن التردد الذي منعني ليلة المطر، لم يزل مكانه يحبسني هنا.. وهو يتمثل في السؤال : إلى أين أهرب؟

لا أعرف شيئًا عن هذا البلاد، ولا حتى أين أنا الآن؟. إلى أين أهرب..؟ إلى الشرق أم الغرب..؟ أم الجنوب..؟ أم الشمال..؟ إلى أين أهرب في سبيل النجاة..؟ وليس لي هنا طعام ولا ماء ولا ملابس ولا مضجع للنوم ولا أجرة للعمل ولا حياة ولا أحلام.. وإنما يبقى عندي شيء واحد.. هو أنني بقيت حيا.. نعم، استطعت البقاء على قيد الحياة كيفما اتفق.. كيف لو عجزت عن ذلك أيضا في مكان غريب أهرب إليه!. فما الفائدة من الهروب..؟

ولا شك أن الموانع والحواجز تمنحنا شيئًا من الأمن والحماية.. وما سمحت لي نفسي بتجاوز حدودها.. قررت أن أنتظر حتى تسنح الفرصة المناسبة.. حتى أستوثق من الوصول إلى ملجأ آمن.. أليس ذلك بقرار صحيح؟ لا أدري.. أتركه إلى الله.. ومن ذا الذي يقدر على تصحيح أقداره؟!!

ومع حلول الشتاء، تأتي إلى «المَسرة» شاحنات بمزيد من الضأن. وموسمها الأشهر قبل مجيء الصيف.. والضأن في الحقيقة خليقة بالحياة في برودة قمم الجبال الشامخة.. فتربيتها في هذه الصحراء ظلم لها.. وسيبيع الأرباب تقريبًا أغلبها قبل حلول الصيف تاركًا البقية في أسوأ الأحوال.. كلما يشتد الحر ، تكاد تموت من الحرارة داخل بطانية الصوف الطبيعية التي تلتحف بها.. وكم نفقت هكذا!. ولكن الأرباب لا يضيع شيئًا.. يجر النعجة الميتة إلى السيارة لنقلها إلى السوق حيث تتحول إلى مرقة الضأن اللذيذة في بعض المطاعم.

والماعز هي الأصلح للصحراء.. لأنها قوية على مقاومة الحر مهما اشتد.. وإنما يربي الأرباب الضأن طمعًا في الأرباح الهائلة التي يكتسبها من جز صوفها.

وبعد انتهاء أيام المطر، تحولت «المَسَرَة» إلى مستنقع للأقذار.. تولدت فيها رائحة جديدة نتنة، شاركت في تعفينها رواكد الفضلات والبول مع التبن والبرسيم المبللين. وتنظيف «المَسَرَة» من هذه الأقذار كان عملًا قصم ظهري واستغرق حوالي أربعة أيام.

وإضافة إلى ذلك تطفّل على «المَسَرَة» أسراب من الذباب كضيوف غير مرحب بهم منذ بداية الشتاء..! الذباب في كل مكان..! أجلس لتناول «الكُبّوس» فإذا بها متلفعة بآلاف الذباب فأوظف يدي اليسرى كمروحة دائمة الحركة لمطاردتها.. وعند الدخول إلى«المَسَرَة»، يستقبلني طنين الذباب كأنها أصبحت وكرا للزنابير.

ما أقبح هذا الذباب البائس..! أتذمر منها تارة.. وأخرى أهدئ نفسي قائلا: «هي أيضا تستحق الحياة.. ربما تكون «المَسَرَة» أحب مكان إليها.. دعها تعيش فيها حياتها».

ولما اقترب الشتاء من نهايته، حضر لجِزّ صوف الخراف الناضجة رجلان سودانيان ترتسم على وجهيهما ابتسامة ممتلئة. ومندفعًا بالسرور المفرط بلقاء إنسانين بعد زمن طويل، تبعتهما ملتصقًا بهما ككلب مطيع. ولكنهما لم يفهما أغلب ما قلت لهما.. ولا فهمت ما قالا لي.. وكانا يرحبان في ضحكات عالية بكل ما قلت لهما مع أنهما لم يدركا مغزاه.

وقد جاءا في هذه المرة بماكينة كهربائية لجز الصوف مع مولّد لتشغيلها. وكانا يستخدمان من قبل مقصًا يدويًا. ولما بدأت المكينة والمولّد يشتغلان، أخذ الأرباب يتخبط مضطربًا كما لو أنه رأى جنيًا.. كان يخاف في البداية أن تقضي الماكينة بتيارها الكهربائي على أغنامه.. واجتهد الرجلان كثيرًا في إقناعه بأن المكينة لا تقتل الأغنام بتيارها. وكان يخاف أيضًا أن تجز المكينة

صوف الضأن فوق الحاجة.. الأمر الذي يؤدي إلى هلاكها من شدة الحر في موسم الصيف القادم أو إلى ركودها دون أن تجد من يشتريها في السوق. ووافق الأرباب بنصف قلبه على استئناف العمل فقط بعدما أقنعاه من خلال عرض تجريبي على نعجة بأن المكينة مصمّمة بحيث تجز قدرًا معينًا من الصوف. ورغم ذلك كله، كان الأرباب لا يزال يتذمر إلى أن ذهبَ، مبديًا امتعاضه من استخدام المكينة.

وكان واجبي إمَساكُ الضأن أثناء عملية الجز وذلك بعد القيام بجميع الأعمال المعتادة الأخرى. وكما كنت أمسك التيوس للإخصاء، فقد أمسكت الضأن للجز ونحرُه مزروع بين فخذيّ. والعملية لا تستغرق أكثر من دقيقتين. ولكن إمساك حوالي ستمائة من ضأن كان عملًا قاصمًا للظهر. تجز المكينة جميع الصوف ما عدا شيئًا قليلًا في الذيل.

«هذه طريقة الجز في بلادنا، وشعر الذيل هدية نهديها للضأن لمطاردة الذباب» - قال السوداني وهو يبتسم كاشفًا عن أسنانه البيضاء.

وبعد ظهر اليوم التالي، انتهت العملية وبدا كل كبش ونعجة بمنظر جميل. ومع العصرِ، رجعَ السودانيان بسيارتهما بعد أن حمّلا فيها الأكياس المحشوة بالصوف. تستولي عليّ بعدهما كآبة بلا عنوان.. لأني كنت حقًّا أتمتع برائحة البشر طالما ظلا هنا.. وقد ذهبا تاركين إياي مع الأغنام.. نزل عليّ الحزن كمطر هطول..

وفي تلك الأيام أيضًا تبين لي أن الإنسان رغم مكائده فلن يقدر على استئصال بذور الحياة من الكرة الأرضية. كانت هذه الصحراء تتوقد تحت الشمس الحارقة على مدى أشهر كثيرة.. وكان سطحها المفترش عليه ذرات الرمال المحترقة خاليًا من أدنى خلايا الحياة.. ولما هبت الرياح الباردة مبشرة بانتهاء أيام الصيف، افترشت الأرض الميتة للتو بفراش أخضر. وقع ذلك

خلال يومين بعد المطر بسرعة فائقة. وإذا تأملنا هذا الطلوع، يخيل إلينا أن عبير الحياة بأكمله كان يهجع تحت هذا التراب متربصًا بيوم بعثه. نبات الصبار، والنباتات المتسقة وفطريات الصخور، وبعض نباتات خجولة كنبتة لا تلمسني وبعض شجيرات ذات أوراق لامعة، وأسراب الطيور التي تحلق في أرجاء السماء باسطة أجنحتها الطويلة إلى فضاء السرور كطيور السنونو وببغاوات تطير بصفيرها، وأزواج الحمام التي تهمس إلى بعضها بهديلها... من أين تأتي كلها؟!

تثلج صدري معرفة أن هذه النباتات كانت تحت الأرض طوال أيام الصيف تكافح رمضاء الصحراء ورياحها النارية من أجل البقاء. وقد شهدت بعينيّ هاتين كيف تنمو تلك النباتات الصغيرة وتكبر وتزهر وتثمر ثم تدخر خلايا الحياة للغد في رحم الأرض ولا يستغرق ذلك كله إلا أيامًا قليلة. ما أشد ما أحببتها! كنت أجلس إلى جنبها أتحدث إليها.. أفضي إليها بأحزاني وهي تفضي إليّ بأحزانها. وقد علمتني دروسًا تشجعني على الحياة.. كأنها تهمس إلي «يا نجيب، يا من تبتّه الصحراء، كن قويا وكافح مثلنا هذه الصحراء من أجل البقاء. ستأتي عليك لسعات الشمس والرياح النارية تتحداك.. فلا تستسلم لها ولا تستكن أمامها.. وإن حاولتْ هي أن تختطف روحك فتمسّكْ بها راقدًا بلا حركة شبه ميت متظاهرًا باللاشيء وأنك لن تستفيق أبدا. وادع الله وحده في سرّك لأنه يراك ويسمع صراخك. وفي النهاية سيأتي لك يوم ترحل فيه هذه الرياح النارية ويتخفف هذا الحر. سينبعث من تحت الأرض نسيم الدهور يلوّح لك بيديه وعندها فقط ارفع رأسك بالحياة وسجّل حضورك على سطح الأرض وفي اللحظة التالية انطلق مسرعًا نحو النجاة وأثمر وتفتح للغد»

أرهفت مسامعي إلى كلمات تلك النباتات الصغيرة. وانتظرت أن يحين يومي المنتظر بصبر جميل.

22

رغم أنني كنت أخاف التيوس وأكرهها إلا أنه قد اتفق يومًا أن ينقذني أحدها من الهلاك. ذات يوم كنت أرعى الأغنام كالعادة.. تسلقت على كثيب.. قعدت فوقه تاركًا إياها تتجول في البادية. فوجئت بنفسي لحظتها أحن إلى وطني بلا دوافع مباشرة. نهضت كل المشاعر الهاجعة في ردهات النفس تنفجر كالبركان. وتاقت نفسي توقًا ملحًا إلى الهروب إلى وطني حتى أرى أمي وزوجتي زينب وابني نبيل.. وألتقي بأصدقائي وأتمشى في قريتي وفي طرقاتها الترابية.. أشاهد نهرها وماءها ومطرها وأرضها.. في تلك اللحظات، أحسست فعلًا بما يقال: إنه الحنين إلى الوطن. وذلك شوق تجفف به القلوب كالصحراء.. شوق يجعلنا نكره واقعنا وظروف حياتنا أشد الكراهية. وفي اللحظة التالية نرى أنفسنا نلوذ بالفرار كيفما اتفق كخنزير يفر إلى حقل قصب السكر إذا أصابه الرصاص. ولكنها حالة نفسية نادرًا ما تستولي علينا.. وإذا استولت، فلا نملك التحكم فيها أبدًا.

بحثت عن الأرباب.. كان فوق السيارة مع منظاره. ولكنني الآن خارج نطاق تغطية المنظار حيث إنني أقعد على الجانب الآخر من الكثيب.. ها قد حانت فرصة النجاة.. حدثتني نفسي أنه إن تريثت الآن فلن يتحقق حلمي أبدًا.. وكأن الله كان يلهمني ذلك.. انتفضت واقفًا.. لم أفكر شيئًا.. انطلقت أجري في الصحراء.. وللأسف، انطلق معي يتابعني تيس كان بجانبي.. ولم ينصرف عني رغم أني حاولت أن أطرده بأن أضربه وأطعنه بعصاي.. لكنني لم ألتفت أبدًا إلى الوراء.. منعتني من ذلك رغبتي العارمة في النجاة. لم يهمني

حينها إلا تغطية المسافات قدرما استطعت.. لكن إلى أين..؟ ما أدري.. إنما الهدف هو النجاة. والتيس لم يزل يتبعني.. كاد يسقطني على الأرض في كل لحظة.. والخوف من ذلك ضاعف سرعتي..

فجأة، سمعت من ورائي زئير سيارة.. اندلعت في داخلي شرارة الخوف.. لا بد أن الأرباب قد رآني أهرب..! فلن يلبث أن يلاحقني لينهال عليّ ضربا حتى يقلتني.. سمعت من خلفي صوت إطلاق النار.. لكن لم يصبني الرصاص لحسن حظي.. رغم أني كنت على يقين من فشل محاولتي، ضاعفت سرعتي.. وما سمعت صوت الرصاص مرة ثانية حتى سقط التيس على الأرض بصراخ عال.. ارتمى على الأرض وأنا تحته.. انبجس من صدره دم متدفق كماء المضخة.. تلوّى جسمه من شدة الوجع.. انتفض قائمًا ومشى إلى مسافة يسيرة ثم تهاوى على الأرض.. والأرباب قد وصل قريبًا مني.. لقد فشلت.. هويت على قدميه ملتمسًا عفوه.. فخلع حزامه يجلدني به.. بكيت بكاءً مرًا.. أمرني بركوب السيارة.. ركبت مسرعًا في الصندوق الخلفي كجروٍ مضروب يئن ويهرع إلى قفصه وذيله مغروس بين ساقيه.

قد مات التيس.. جلب الأربـاب جسده إلى السيارة.. رمى به في الصندوق.. وضربني ضربة أخـرى.. صرخت بصوت عال.. قعدت القرفصاء في الصندوق مطرقًا رأسي.

التيس المقتول يرقد بجنبي مفتوح العينين.. اشتد بكائي عندما تذكرت أنه قُتل من أجلي.

يا أيها التيس... من أمرَك أن تلاحقني حينما فـررت..؟ وأن تقاوم بصدرك الرصاص الذي كان يستهدفني..؟ كنت مخطئًا حينما حسبت أنه قد حان لي الهروب. أخطأت حين اعتقدت أن الله يلهمني ذلك. يقع مثل ذلك

في أحيان كثيرة.. ندعي أن اندفاعات النفس المستعجلة هي إشارات من الله. والله وحده يعلم متى يحين للعبد يومه المنتظر.. لكنه تعالى لا يطلع على سره أحدًا.. ينبغي أن أوفق إلى طاعة الله حتى أكون من مقربيه الذين ينعم عليهم بإلهاماته.. ورغم أني لم أكن على تلك الدرجة، إلا أنه تعالى قد أنقذني اليوم..! أيها التيس، هل تكون أنت الذي فداني به الله كما فدى بتيس آخر ولد سيدنا إبراهيم؟

وقفت السيارة أمام الخيمة. جرّني الأرباب إلى إحدى «المَسَرَات».. شدني فيها.. أوسعني ضربًا حتى شبعت شهيته.. تفجرت ينابيع الدماء من كل جسمي.. غير أني ما بكيت قط.. ولا ذرفت دمعة.. صبر جسمي على تلك الأوجاع كلها.. تيس فدى بحياته حياتي.. وإن بكيت بعد ذلك أو صرخت بسبب أوجاعي، ربما لا يغفر الله لي.

سلخ الأرباب التيس الميت مسرعًا دونما تأخير. قطّعه بسكينه قطعًا كثيرة.. شواها على النار التي أوقدها في العراء.. تناولها حتى امتلأت معدته.. قدم لي الباقي.. رفضتها.. ضربني مجبرًا على الأكل وأقحم في فمي قطعة منها.. كمن يُكرَه على أكل لحم أخيه، شعرت بالاشمئزاز والغثيان.. ظللت أبكي.. لم أقدر أن آكل شيئًا منها.. أمّا ما دخل منها إلى بطني فتقيأته فورًا بكامله. فيما بعد، لم آكل لحوم الغنم قط.. ولم أشتهيها..

ظللت ليومين مقيدًا في «المَسَرَة». لم يأذن لي الأرباب بالخروج أبدًا.. حرمني حتى قطرة ماء أوقطعة «كُبّوس».. قضيت يومين هكذا أتجرع المضاضة.. كنت أواسي نفسي بأن ذلك كله لقاء تضحية التيس الذي قتل من أجلي.

ولما كانت الليلة الثانية شعرت بجوع لا يطاق. وبعدما تأكدت من أن الأرباب قد نام، فككت الحبال الملفوفة حولي على حذر.. زحفت من بين الأغنام حتى وصلت إلى حاوية الماء.. عببت الماء حتى ارتويت.. لكن الجوع بقي مكانه.. فاكتشفت في حاوية الشعير بجانبي ما أبقت الأغنام من حبات الشعير المتناثرة.. جمعتها بيدي.. تناولتها بشراهة.. شعير طازج..! غير مقشور..! وكان بالقرب دلو فيه ملح.. أكلت الشعير مع الملح..عرفت حينها لذة الشعير الطازج.. وشربت فوقه ماء كثيرا.. شبعت وارتحت.. نمت مع الأغنام مرتاح البال.. لقد أصبحت مثلها فعلًا.

***

23

كاد الحر يقترب من ذروته.. ما أشد هذا الحر..! كنت أتعجب في الأيام الأوائل.. ولكنه كان بداية أيام الصيف. لاحظت أن الحر يشتد شيئًا فشيئًا مع الأيام. هبت الرياح المشبعة بلفحات الحر.. كلما هبت، أحسست أنني داخل فرن.

ماذا تظنون أن يكون أقصى ما كنت أطمح إليه أو أحلم به أو أدعو الله به في تلك الأيام..؟ أن أتحرر من هنا..؟ أن أحصل على شيء من الماء..؟ أن أحظى بشيءٍ من طعام لذيذ..؟ أن أرى ابني..؟ أن أتصل بزينب..؟ لا.. لا شيء من ذلك.. وإنما كانت رغبتي العارمة في أن أستريح هنيهة في ظل.. تخيلوا شدة عناء الرجل الذي أصبح الظل حلمه.. خلعت قميصي وحاولت أن أتخذ تحته ظلًا.. بل بحثت – أتصدقونني إن قلت؟ – تحت عصاي في يدي عن خط ظليل آوي إليه.. كنت سمعت عن منطقة ليس بها ظل قدر جناح الغراب.. واليوم قد عشت ذلك في الواقع.

مع بداية الصيف جعلت بطانيتي خيمة تظللني فوق سريري. استجرتُ بها من الشمس فمنحتني شيئًا من الراحة.. لكنني كنت محرومًا من الاستمتاع بها.. إذ يبدأ العمل في الساعة الخامسة صباحًا ولا ينتهي إلا في العاشرة ليلًا. لا أرجع بالأغنام بعد رعيها في البادية حتى يطلق الأرباب قطيع «مَسَرَة».. أخرى. ولا يتسع وقت الراحة بين الأعمال إلا لشرب كوبين من الماء، الماء المغلي في الخزان الحديدي.. قبل أن أكمل الشرب، تبدأ الأغنام تنتشر بكل اتجاه.. إن تأخرت عليها أكثر فستشرد في أرجاء الصحراء.. وجمعُها بعد ذلك شبه مستحيل.. فلا بد من الإسراع بدون تأخر ولو للحظة.

ما زلت أركض هكذا حتى خرج من فمي زبد ككلب أصابه داء السعار.. أنظر إلى السماء مشتكيًا إلى الله وأقول: ما هو الإثم الذي ارتكبته في حقك أو في حق والديّ حتى تتركني في هذه الصحراء أتجول مع البهائم كما في قصة الولد المبذر؟ فنظرتْ إليَّ الشمس الملتهبة من أعالي السماء.. كأن الله يقول لي: إنَّ أيام الابتلاء التي عليك أن تجتازها لم تنته بعد.. أنظر إلى السماء أدعو الله جاثمًا في الرمال المتوقدة كأني رسول الصحراء.. يا الله، خلصني من هذه المعاناة في القريب العاجل، أرسل لي منقذًا كما أرسلت موسى إلى قومه بني إسرائيل، وانصرني أن أتحرَّر من هذه العبودية.

لم أعلم إن كان الله قد سمع دعائي أم لا.. لكن إيماني بالله كان يحميني ويزرع في نفسي ثقة جديدة.. أنتم أيها الملحدون..! المتنعمون بعيش رغيد بفضل نعم الله التي أنعم بها عليكم.. قد تظنون أن الدعاء مجرد مراسيم وشعائر سخيفة.. لكنه بالنسبة لي هو ملاذي الأخير في سبيل المكافحة من أجل البقاء. لقد أبقاني إيماني قويّ الروح على الرغم من تدهور قواي الجسدية. ولولا ذلك لتلاشيت محترقًا مثل العشب اليابس في تلك الرياح النارية.

تبرد الرمال بأسرع مما تسخن.. حتى تصبح باردة تمامًا عند الساعة الثامنة أو التاسعة في الليل فتصير مضجعًا مريحًا بالنسبة لمن يريد النوم عليها.. أحس بأن ينابيع باردة تنفجر في أعماق الأرض وتشرئب بأعناقها فوق سطح الأرض لتتنمل تحت جسمي. و يا لها من راحة..! تنسيني إعياء النهار بأكمله. لا أصدق القائل إن قعر الأرض منصهر بسخونتها الشديدة.. ولا من قال: إنَّ الصحراء خالية من الماء. وصممت على إيماني بأن هناك نهرًا يجري صامتًا تحت أطباق الرمال التي أستلقي فوقها.. كأنني أنام على طوف يسبح فوق تيار جار.. الفكرة ذاتها ضاعفت متعتي ومنحتني نومًا عميقًا..

ولكن حادثة رهيبة أنهت هذا الاستلقاء الرملي.. سأخبركم بها..

دخلت يومًا إلى «المَسَرَة» كالعادة، فإذا بأغنام أربع قد ماتت..! وقفت محتارًا.. قد رأيت تلك الأغنام تجري إلى أمس ممتلئة بالنشاط والحركة.. كانت إحداها حاملًا قد اقتربت ولادتها.. لم أفهم ماذا حدث لها.. إذا كان ذلك بسبب مرض فكيف تموت أربع معًا دفعة واحدة..؟ يا الله، هل يكون مرضًا مُعديًا..؟ ولكن، إذا كان كذلك، ألا تسبقه أعراضه الظاهرية..؟ جريت مرتبكًا إلى خيمة الأرباب.. ألقيت إليه بالخبر كيفما استطعت.. لا بلُغته بل بلغتي المالايالامية.. لا بد أنه قد تعلم لغتي ولو بعض الشيء خلال هذه الأيام.. حتى ولو لم يكن كذلك، فإن تجربتي قد أثبتت لي أكثر من مرة أن المخاطَب قد يفهم أية لغة إن كان في حاجة إلى فهم الخبر، وبالعكس، إذا كان المتكلم في حاجة إلى إفهام المخاطب الخبر فقد لا يفهم شيئًا في أية لغة من اللغات.

جاء الأرباب معي إلى «المَسَرَة».. فحص الأغنام الميتة.. حام حولها يقلبها ذات اليمين وذات الشمال ويفتح جفونها الهامدة. وقفت أنتظر اللحظة التي تنسب فيها مسؤولية الحادثة إليّ، وتهبط على ظهري ضربة قوية.. لكن لم يحدث شيء من ذلك.. دار الأرباب حول «المَسَرَة» يحاول كشف ملابسات الحادثة.. أخذ من السيارة مجرفة.. مدها إليّ.. أمرني بحفر حفرة. لما فرغت من الحفر، قام بنفسه بسحب الأغنام الميتة إلى الحفرة وأهال عليها التراب. أخذتني دهشة عظيمة من فعله هذا.. لأن الأرباب على رأس هؤلاء البخلاء الذين يعبدون الدرهم والدينار.. وهو الذي يقبر الآن أغنامًا غالية الثمن..! لم أفهم سره قط.. ولا أخبرني به. رجعت من هناك وانشغلت بأعمالي اليومية.. حلبت الأغنام.. أعطيت الحليب للأرباب.. وشربت نصيبي منه.. والباقي أعطيته للحملان.. رعيت الأغنام.. أكلت «كُبّوسين».. كنست «المَسَرَة»..

ألقيت في الحاويات الماء والشعير والتبن والبرسيم والملح.. تكرّرت عاداتي هكذا.. وبالنسبة لي، لا فرق إن عاشت الأغنام أو ماتت.. لا أربح ولا أخسر.. إنما الأرباب هو الذي يخسر أو يربح.. ورغم ذلك قضيت ذلك اليوم أعاني من ألم مرير كما لو بقيت في جسمي شوكة أصابتني.. كررت على نفسي أن أقول: «تعيش الأغنام أو تموت، الأرباب يخسر، لا أخسر ولا أربح». ولكن فشلت محاولاتي أن أبقى على اللامبالاة.. باتت تلك الوفيات تطاردني.. خاصة موت تلك العنزة الحامل التي كانت تستعد لولادتها الأولى.. كلما تأملتها، كنت أحس بأنها تبدي افتخارها بحملها في حركاتها ونظراتها.. قد تكون الأغنام تحلم تماما كالإنسان.. ربما حلمت تلك العنزة كثيرًا أن تكون أمًّا ترضع حملها الذي يرتع حولها.. مسكينة..! قد انتهى كل شيء في ليلة..! هذه هي الحياة التي نشيدها بالأحلام..!

أيتها العنزة المحبوبة..! إنما حياتنا هدية أُهدِيت لنا.. وليس لنا حق أن نزيد يومًا واحدًا على ما حدّد لنا مَن أهداها لنا.. ولا نملك أيضًا أن ننفلت منها قبل أن نكمل معاناتنا من كل ما قدّر لنا فيها.. كم كان سيئًا حظك أيتها العنزة..! شاءت المشيئة الإلهية أن تموتي قبل أن ترى مولودك.. ولكن حظي أسوأ.. اضطررت أن أعيش هذه الحياة الجهنمية بشكل دائم.. وألّا أرى ولدي ولو مرة.. هذه هي الحياة الملعونة!

جاء الليل.. أكلت الكُبّوس.. استلقيت على الأرض العارية متوسدًا حجرًا. وعلى غير العادة، رأيت أن الأرباب يشغّل السيارة.. تمنيت أن يذهب إلى مكان ما.. يكون ذلك من حظي السعيد.. استلقيت كمن لم ير شيئًا.. أرهفت كافة حواسي في فضول.. أخذ الأرباب يدور بسيارته حول «المَسَرَة».. كأنه يبحث بدقة فائقة عن شيء ما.. بعد أن طاف بـ«المَسَرَة» تقريبًا خمسة أشواط أوقف السيارة أمام الخيمة.. دخل إليها.. طمست كواكب الأمل التي طلعت في أفق الرجاء.. غمرني غيظ وحزن شديدان..

في تلك الليلة، عاد الأرباب يدور بسيارته حول «المَسَرَة» مرات كثيرة. لم درك قصده. وما قال لي شيئًا ولا سألته.. أما الأغنام فطبعًا لا تتحدث إلى الإنسان.

نمت مرتاحًا على مضجعي الرملي.. في ساعة متأخرة من الليل، صحوت على أصوات الأغنام.. كانت تثغو وتتقافز داخل «اَلْمَسرة». نظرت فإذا بالأرباب يركض حيران حول السياج.. يناديني باسمي من وقت إلى آخر.. يهتف بي «هيا.. هيا».. انتفضت واثبًا.. هرعت إليه.. وضع الأرباب عصى في يدي.. دفعني إلى «اَلْمَسرة».. وقفتُ مذهولًا داخلها.. لم أفهم شيئًا.. شغّل الأرباب مصابيح السيارة على استعجال، ألقى الضوء إلى «المَسَرَة».. يقول «شوف.. شوف.. هيا..هيا..» كانت الأغنام لا تزال ثاغية ومتقافزة في انزعاج.. أبعدت الأغنام إلى الجانب واحدة بعد أخرى لأرى ماذا يجري هناك.. أخيرًا رأيت المنظر..! كشفت عن سبب ثغاء الأغنام وتقافزها.. حية التفت بقوة حول ساق عنز..! صدر مني صراخ في ذعر.. اندفعت إلى الخلف.

حينما كنت ببلادي، كنت لا أقترب من المنطقة التي يُعثر فيها على ثعبان طين أو ثعبان ماء على الأقل لمدة ثلاثة أيام.. وكنت أفزع بمجرد سماع أحدهم ينطق بكلمة «الحية». توليت متقهقرًا خارج «المَسَرَة».. أقبل الأرباب غاضبًا.. أقحمني إلى الداخل ثم أقفل الباب من الخارج.. لا يبقى أمامي إلا أمران.. إما أن أقتل الحية كيفما كان وإما أن تقتلني الحية مع الأغنام بلدغتها. الضرورة تفتق الحيلة.. لمعت في قلبي أحلام لم تتحقق بعد.. لا بد من أن أكون الآن شجاعًا.. لأني أريد الحياة.

استرقت الخطى بين الأغنام.. ضربت على ساق الغنم الذي التفت حوله الحية. يُقال: إنَّ الحية لا تُقتل إذا تجمهر الناس على قتلها.. أظن أنها لا تقتل أيضًا وسط جَماعة من الأغنام.. كيف يمكن لي أن أضربها وهي وسط قطيع كثيف..؟ لم تقع ضربتي عليها إلا كلمسة خفيفة بعصاي..

أقبلت الحية نحوي بسرعة وهي تفحُّ.. حاولت الفرار إلى الخارج.. لكن الباب كان مقفلًا. وكمن جنّ جنونه بفعل نوبات الفزع، أمطرت عليها وابلًا من الضرب بعصاي يمينًا وشمالًا. كثير من الضربات وقعت على الأغنام.. ركضت داخل «المَسَرَة» متناثرة وهي تثغو بصوت عال.. وما زلت أضرب حتى انفلتت الحية المفزوعة من مكانها.. غير أنها ربما لم تتعرض لشيءٍ من الضرب.

انهال عليّ الأرباب بالشتائم.. ماتت إحدى الأغنام فورًا من ساعتها.. فقدت راحة البال..انتهت الليلة هكذا. وبعد تلك الحادثة توقفت نهائيًا عن الاستلقاء على الرمال والاستمتاع ببرودتها. ورب ليلة قد نمت على تلك الأرض العارية.. ربما زحفت إحدى الحيّات في إحدى الليالي لتلدغني وتقتلني قتلة بشعة.. وقد سمعت أن حيّات الصحراء ذات سم مميت، تقدر أن تقتلني بمجرد مسها وهي تزحف على جسمي. ولكن لم تأت حيّة زاحفة إليّ.. لا شك أنه تنحّى عن طريقه حينما وجدني راقدًا فيه.. إن ربي الرؤوف الرحيم قد كتب في الأزل كل شيء ولا يقع شيء إلا كما كتب وقدر.. لا يزحف ثعبان عاصيًا ربه.. لك الحمد كله يا الله..

وفي صباح اليوم التالي، كانت في «المَسَرَة» جثث ثلاثة حملان.. وكان «نبيلي» واحدًا منها..!

***

24

إذا سألتموني ما هو أروع منظر رأيته، لقلت لكم إنه منظر غروب الشمس في الصحراء.. كأن الشمس في تلك لحظة سلحفاة تنسل تحت الرمال.. تسير على مهل نحو أكداس الرمال لتنغمس في طياتها. تمنيت مرارًا أن تكون معي زينب لتملأ عينيها من هذا المنظر الرائع. صحيح أنه قد بهُت في قلبي لون كل شيء بما فيه وطني وبيتي وزوجتي زينب.. ولكنها قد تسطع في القلب أحيانًا خاصة في مثل هذه اللحظات. وحينها تتوقف نبضات قلبي.. ومن أعظم الأحزان أن ألّا نجدَ أحدًا نستمتع برفقته في اللحظات الجميلة والتجارب الرائعة. صرفت نظري عن المنظر واستلقيت فوق السرير كجثة هامدة.

رقدت أتصيَّد النوم في تلك الليلة المرصعة سماؤها بالنجوم المتلألئة. واستيقظت والجو مشبع بغبار كثيف.. ولا توجد عوارض الرياح.. وقد حف الغبار بالجو بغتة كأنه جاء مسترقًا خطاه.

كان مظهري حقًّا مضحكًا.. كأنني فنان كوميدي في بعض الأفلام.. يبدو على جسمي حراشيف من غبار كثيف متراكم.. بدت الأغنام مغبرة اللون.. اغبرَّ كل شيء، الجمال والسياج والحاويات في «المَسَرَات» وخيمة الأرباب والسيارة والسرير وحزم البرسيم.. منظر يشبه ثلوج البلدان الباردة كما شاهدنا في بعض الأفلام. نفضت رأسي فثار منه غبار غزير ربما يكفي لمصانع الطوب. مررت أصابعي فوق رأسي فإذا بها لا تتسلل تحت الشعر المتصمغ بالغبار والوساخة.

لقد بلغ طول شعري إلى كتفي تقريبًا.. وكانت لحيتي طويلة جدًا. قصصتهما يومًا بالمقص الذي يستخدم لجز الصوف وإن كان ذلك بشكل عشوائي.. تخلصت من حكة شديدة ناتجة عن عدم غسل شعري ولحيتي..

تلبدت بشرة مناطق العانة والإبطين كقروح تبعث على الاشمئزاز.. واستوطنها القُمَّلُ والبق وما لا أعرف اسمه من الحشرات الصغيرة التي تحملها أجساد الغنم.. ولا يأتي الليل حتى تستولي على تلك المناطق حكة متواصلة بفعل العرق المتلبد جراء مجهود نهار طويل.. أصبح جسمي ملجأ للحشرات فعلًا.. كانت القُمّل والبق والحشرات الأخرى ترعى في جسمي.. أظن أن الأغنام ربما كانت أنظف مني بكثير..

***

25

ألم أقل لكم: إنني سوف أقص عليكم قصة «بُوتشَّكَّار رَمَنِ».. دعوني أقصها عليكم الآن.. ما عدا «بُوتشَّكَّار رَمَنِ»، فقد قمت بتسمية كل غنم استطعت تمييزها في «المَسَرَة» بأسماء تدليل مختلفة تسهيلا لتقريعها والتحبب إليها.. وكان عندي في «المَسَرَة» (أسماء) بسطاء الناس في حارتنا مثل «أَرَوُ رَاوُتَّرْ»، «ميرِي مَيْمُونَة»، «إِنْدِه بوكَّرْ»، «نَنْدُو رَاكهاوَنْ»، «بَربُ وجَيَنْ»، «نشَاكِّي»، «أمَّنِي»، «كَوْسُو»، «رَوْفَةْ»، «نَبيلْ»، «بينكِي»، «أَمَّ»، «رَسِيَ»، «نَاهرَار» إضافة إلى شخصيات مشهورة في كيرلا مثل «جَاكَاتِي» و «مُوهَانْ لَالْ» (ممثلان مشهوران) وحتى «إِي أَمْ أَسْ» (سياسي مشهور) نفسه. كل واحد منهم كان محببًا إلى نفسي بطريقة أو بأخرى..

هل سبق لكم أن نظرتم بتفحص في وجوه الأغنام؟ سترون أن كل وجه منها يشابه وجه واحد من الناس! سميت أغنامي بأسماء ليس فقط نظراً إلى تشابه الوجوه ولكن أيضًا إلى سلوكياتها أو طريقة مشيها أو صوتها أونظراتها أو حادثة تتعلق بها.. بالضبط كما يستقر لقب ما على شخص في قريتنا..

كنت أخبرتكم عن تيس نطحني يومًا نطحة شديدة وأسقطني على الأرض وكسر يدي.. سميته بـ«أَرَوُ رَاوُتَّرْ» (رَوُتّر السلاخ). وكما يلمح الاسم، كان أَرَوُ رَاوُتَّرْ في قريتنا رجلًا مشاكسًا شديد البأس. وذات يوم كان والدي يعبر جسرًا خشبيًا نحيلًا على جدول ماء.. لا يكاد الجسر يتسع إلا لعابر واحد بمشقة كبيرة.. ولما وصل إلى منتصف الجسر فإذا بـ«أَرَوُ رَاوُتَّرْ» يُقبل من الجهة المقابلة.. تقدم مستهترًا آمرًا والدي بالرجوع.. غير أن والدي

امتنع عن إطاعته.. كرّر «أَرَوُ رَاوُتَّرْ» أمره مرة ثانية فثالثة.. لم يطعه والدي. وفي المرة الرابعة لم يكن أمره بالقول بل بنطحة برأسه على صدر والدي.. سقط والدي مصطدمًا مرفقُه بحجر على حافة الجدول الذي يبلغ عمقه اثني عشر قدمًا. ورغم أنه تم نقله فورًا إلى مستشفى محافظة «آلَبْزَا» ذاته، إلا أن يده بقيت معوجّة شبه مشلولة. وبعد ذلك استقر عليه لقب «مُرِكَّايَنْ عَبْدُ» (عبدُ ذو اليد المكسورة). وسميت التيس بلقب «أَرَوُ رَاوُتَّرْ» لأنه نطحني بنفس الطريقة التي أتصور أنه نطح بها «أَرَوُ رَاوُتَّرْ» والدي، وأن يدي كسرت كما كسرت يده جراء تلك النطحة.

وتستقر بعض أسماء التدليل لأسباب غريبة ربما لا يعلم سرها إلا نحن.. فقد لا يكون وجه تسميتها مفهوماً لغيرنا..

وكان الاسمُ «ميرِي مَيْمُونَة» من هذا القبيل. وكانت «ميرِي» بطلة قصة حبي الأولى.. نبت حُبي الأول وأنا أدرس في الصف الخامس.. كانت «ميرِي» أشد البنات ذكاءً في صفي وأجملهن وأفضلهن غناءً.. لا حد ولا حساب للأحلام التي نسجتها حولها في ذلك العمر الصغير. بلغت القصة يومًا إلى أمي عن طريق ما.. ولا بد أن أخي الكبير «عَبْدُ»، المخادع الذي اطلع على سري بحيلته، قد باح لها بقصتي.. وكانت أمي كثيرة الضحك.. تستغرق في الضحك عند سماع أي شيء بشكل يهتز معه صدرها الممتلئ..

وجدت في قصتي أيضاً ما يضحكها.. سألتني أثناء ضحكها بوجه عابس «يبدو من اسمها أنها مسيحية»؟

«لا، بل هي مسلمة» قاطعتها بحماس.

«ميرِي..! مسلمة؟!» استغرقت في الضحك مرة أخرى.

فكرت حينها فقط أنها قد لا تكون مسلمة.

صححت قولي فورًا قائلًا: «اسمها ميري مَيْمُونَة.. ليس ميري».. ألقيت إليها باسم خطر على لساني في الحال.

«ميري مَيْمُونَة»..!؟ طيب.. سوف أزور مدرستك.. أريد أن أرى البنت التي تحمل هذا الاسم».

قالت أمي وهي تواصل ضحكها.

مات والدي في تلك السنة.. أنهيت دراستي قبل أن تتمكن أمي من زيارة المدرسة حتى ترى «ميري مَيْمُونَة».

وكان «ميري مَيْمُونَة» اسمًا كنت قد نسيته منذ عهد بعيد. ولكن حينما رأيت عنزة جميلة في «المسَرَة» عادت تلك الذكريات كلها إلى مقدمة ذاكرتي مسرعة في أمواج متلاطمة.. أحسست بأن تلك العنزة تتمتع بكل جمال «ميري مَيْمُونَة».

وهل تصدقونني إن قلت لكم: إنَّ في «المَسرة» تيس يضحك مثل «جَاكَاتي» (وهو ممثل كوميدي مشهور).. وآخر يمشي متمائلًا مثل «مُوهَانْ لَالْ» (ممثل مشهور عرف بمشيته المائلة) وثالث يتلعثم مثل «إي أمْ أسْ»..؟ ولا تبقى عنزة في «المسرة» إلا إذا غزر حليبها.. وكثرت ولاداتها.. وكذلك لا يبقى تيس إلا إذا كان يتمتع بصفات الفحولة. وإلّا فتنقل إلى المسالخ أو الأسواق متى ما بلغت حظها من النمو. والذي يستغرب له كثيراً أنه إذا انتقل من «المسرة» صاحب اسم لا يتلاشى معه اسمه بل يبرز آخر بعد قليل بنفس المواصفات. وهكذا يتعدد «جَاكَاتي» و«مُوهَانْ لَالْ» و«نَنْدُو رَاكَهاوَنْ» و«كَوْسُو» و«أَمَّنِي».. أظن أن الحياة قد تجسد الأجيال السابقة في الإنسان والأغنام على حد سواء.

أعطيت لقب «بُوتشَّكَار رَمَن» للعنزة التي حلبتها لأول مرة يوم جئت هنا. ومناسبة التسمية أنها هي أول عنزة داعبت نهدها! ولم أزل أتذكر إلى اليوم واقعة وقعت في طفولتي.. كان أحد أخوالي يزورنا من وقت إلى آخر.. كنت أدعوه «بُوكَر مامَن».. وإذا جاء، أخذني لأتمشى معه بعد الغداء.. وقبل أن نخرج، ينادي على أمي ويقول لها: «يا أختي، أعطيني ربع روبية.. أشتري به حلوى للولد».. كانت أمي تعطيه ذلك في كل مرة.. ولكنني ما حصلت أبدًا على حلوى.. كان يذهب بي إلى بعض الحقول المجاورة حيث يجلس بانتظار نسوة يأتين لِقصّ «بُوتشَّا» (الحشائش). وكانت بينهن امرأة تدعى «رَمَن».. يعطيها ذلك النقد الذي اكتسبه بحجة الحلوى مقابل أن تسمح له بمداعبة نهدها.

تفتح في نفسي، وأنا أشاهد المنظر كل مرة، أملٌ لمداعبة نهد «بُوتشَّكَارِ رَمَنِ»..!

«أحضر ربع روبية، فلك أيضًا حق المداعبة..» قالت «بُوتشَّكَارِ رَمَنِ».

«ما عندي فلوس» قلت لها.. فضربت رأسي وطردتني بعيدًا.

وما كنت جريئًا حتى أطلب الفلوس من بيتي.. لا شك أنهم سيضربونني إن سألت ذلك.. وفي الوقت نفسه، لم أستطع السيطرة على رغبتي في مداعبة النهد.. أخيرًا، سرقت ربع الروبية من صندوق الأرز الذي تدخر فيه أمي نقودها.. داعبت أنا أيضًا نهد «بُوتشَّكَارِ رَمَنِ»، وعرفت متعتها. لكن أمي التي حفظت حساب كل فلس في صندوقها، قبضت على السارق بسهولة.. عند الاستجواب، بُحتُ لها بكل الأسرار مع تفاصيلها. أدت القصة في النهاية إلى توقف «بُوكَر مامَا» عن زيارتنا بشكل نهائي.. وإلى استقرار لقب «مُولا ماما» (خال الثدي) عليه. وكانت بُوتشَّكَارِ رَمَنِ عاهرة معروفة في قريتنا!.

26

كل ألم يخف إذا تقاسمناه مع شخص آخر. ما أبشع هذه الوحدة..! ترتجف الكلمات في داخلي كسمكة فضية.. تختنق المشاعر التي لم أجد من يشاطرني إياها.. وهي تزبد في أفواهنا في العادة وتتفقع.. إذا لم نجد أذنين تسمعان أحزاننا.. وعينين تتطلعان إلينا.. وخدًا يفيض بالدموع عطفًا علينا.. سينتهي الأمر بنا إلى جنون أو انتحار. ولعله بفعل ذلك، قد يتحول المعاقبون بالحبس الانفرادي إلى مجانين.

إن راحة النفس الأعظم هي حرية التحدث قدر الحاجة، ومن يحرم من ذلك ربما يموت من كثرة الكلمات التي يبتلعها. كنت أيضًا سأموت كذلك لولا أن تقيأت كلماتي المبتلعة من خلال القصص التي قصصتها على أصحابي كـ«بُوتشَكّارِ رَمَن» و«ميرِي مَيْمُونَة» و«كَوْسُو» و«أَرَوْ رَاوُتَّرْ». وما زلت أتحدث إليهم أثناء الرعي والحلب وتعبئة الحاويات وعلف البرسيم كأنهم من أعز أحبابي، وكان ذلك الحديث خليطًا من دموعي وأحزاني ومعاناتي ومشاعري وأحلامي. لم أكن أعلم هل تفهم هذه الدواب ما أقول لها؟. لكنها كانت تسمعني.. ترفع إليّ أنظارها.. تذرف معي دموعها.. وكان ذلك يكفيني.

وفي تلك الحياة المتناسقة مع الأغنام، تقاسمت معها ليس فحسب أحزاني وآلامي بل جسمي أيضًا. ذات ليلة فشلت في اصطياد النوم. غمرتني رغبة حارة بلا عنوان لم تكد تهدأ أبدًا.. هبت الشهوة في كل جسمي كعواصف الصحراء.. كنت شبه عاجز جنسيًا منذ فترة طويلة.. لم أكن أظن أن الشهوة

ستعود إليّ تهيجني مرة أخرى.. لكنها قد تماوجت الليلة أمواجًا هائلة نهضت بعد ركودها زمنًا طويلًا.. محاولاتي لإشباع الذات لم تزدني إلّا التهابًا بالشهوة.. خيل إليّ أن نساء عاريات يتراقصن أمامي.. احترقتُ منصهرًا من الشهوة العارمة.. كنت في حاجة ماسة إلى جسم أضاجعه.. إلى غار أهرول إليه.. أصبحت مجنونًا حقًّا.. قمت أمشي مدفوعًا بهذا الجنون على غير هدى.. وجدتني داخل «المَسَرَة» حينما فتحت عيني المرهقتين في الصباح.. وكانت «بُوتشُكَّارِ رَمَنِ» ترقد إلى جنبي ملتصقة بي.

بعدما عرفت أن عبد الحكيم لا يزال حيًّا في «المَسَرَة» المجاورة، ازدادت رغبتي في زيارته.. شجعتني على ذلك عيني التي تاقت إلى لقاء إنسان.. وكان هو الآخر أيضًا يتحين فرص اللقاء. اكتشفنا أخيرًا لماذا لم نلتق إلى الآن.. كنا نرعى الأغنام في جهتين مختلفتين.. هناك تلال صغيرة تحول بين «المسرتين».. وهي التي تسدل الستار على كل احتمالات لقائنا.. في ما بعد، بدأتُ أذهب إلى ما وراءها.. رأيت عبد الحكيم يرعى أغنامه على البعد.. وهو أيضًا أخذ يقترب إليّ أكثر فأكثر يومًا بعد يوم.. وبّخني الأرباب مرارًا على هذا اللقاء، إلا أنني استخففت بتوبيخه.. كأنني غيرت موقفي من الأرباب.. لم أعد أبالي بإيذائه.. لطالما تعرضت له.. شتائم لاذعة.. ضربات شديدة.. أصبحت معتادًا عليها.

وكان أرباب عبد الحكيم أكثر جنونًا من أربابي بكثير.. يقول لي أحيانًا عن تسليات أربابه الذي كان يتفنن في تعذيبه.. يصب ماء مغليًا على وجهه.. يقلع الشعر من رأسه.. يدخل حديدًا في دبره.. يركله على صدره.. يغمس رأسه في الماء الذي تشربه الأغنام.. لذلك بدا عبد الحكيم مفزوعًا جدًّا عند لقائنا.. لا يقول كلمة أو كلمتين حتى يفر راجعًا.

هناك عقبة أخرى.. وهي افتعال السبب.. وقد أُدخِلُ عودًا في شرج غنم أو ألفّ ذيله حتى يفر كأنما جُنَّ جنونه.. ألاحقه متظاهرًا بأني أريد قبضه.. أضربه ليضاعف سرعته.. حتى أتوصل إلى عبد الحكيم كيفما اتفق.. إنما يبدو للأرباب الذي يراقبني بمنظاره من البعد أنني وصلت هنا بالاتفاق ملاحِقًا غنمًا نافرًا. كلمة أو كلمتين.. ينتهي بهما حديثنا بل ننهيه بهما.. والفرصة لا تتسع للمزيد.. إذا تأخرت أكثر، سيخرج الأرباب بالسيارة يلاحقني. تخيلوا كم شغلنا أذهاننا حتى نختصر الأحاديث الممتلئة بها نفوسنا إلى كلمات قليلة جدًا. ربما لا تدركون عناءه فورًا.. لأنكم تعيشون في وفرة من فرص الحديث التي تسنح لكم في كل يوم.

***



27

وذات يوم كنت أقعد على كثيب رملي تاركًا الأغنام ترعى.. رأيت عبد الحكيم بعيدًا يرعى أغنامه، شعرت حينها برغبة تدفعني إلى الحديث معه قليلًا من الوقت، لكن الأرباب لم يسحب عينيه من المنظار.. اشتدت مراقبته هذه الأيام.. وقد حذّرني مؤخرًا من زيارة عبد الحكيم أو محاولة الاتصال به تحذيرًا حادًا.. ربما يمنع عن لقائنا دائمًا خشية أن تغرس الزيارات المتكررة بذور فكرة الهروب في رؤوسنا.. لكنه يحتج بشيء آخر ويقول إن: الاتصال بأصحاب «المسرات» المجاورة قد يؤدي إلى انتقال الأمراض والجراثيم التي قد تكون عندهم.. فيتسبب ذلك في مرض أغنامنا.. والله!!! هذا مضحك جدًّا صراحة.. وهل صارت «مسرتنا» هي ملاذ الصحة والنظافة..؟!

وأدت رغبتي في صدري.. سأصبر على الضرب والشتم قدرما استطيع.. ولكن عبد الحكيم المسكين.. لِمَ أفتعل له المشاكل ؟

ولعله بسبب رؤية عبد الحكيم على البعد، استيقظت في نفسي ذكريات الوطن.. إحدى اللحظات النوادر في حياتي «المَسَرِية».. اشرأبت الأشواق كلها في ردهات نفسي.. زينب.. أمي... ابني.. بنتي.. داري.. أقاربي.. سمعت كثيرًا عن حنين المغتربين إلى أوطانهم.. لكنني أتعجب من نفسي أنني ما تحسرت على ضياع أحلامي حتى في تلك الأوضاع القاسية.. ولا يجد هذا الشعور إلا من يتوقع أن يجد أمامه مخرجًا.. وقد انقطع رجائي من النجاة من هذا العذاب إلى الأبد.. لقد أودعت في السجن.. واستسلمت لواقعي.. سأقضي فيه هذه الحياة.. لأن الميت طبعًا لا يرجو عودة إلى الحياة.

رغم ذلك، حينما يغريني التفاؤل بقواه العجيبة، تنفلق في دخيلة نفسي بذور أمل في النجاة من هنا في يوم من الأيام.

يا الله، الرؤوف الرحيم، إنك تُري عجائب قدرتك في كثير من عبادك.. تجعل فقيرا يتجول في الأسواق ثريًا في اليوم التالي بفضل اليانصيب.. تشفي مريضًا أصابه مرض مزمن فيعود ذات صباح إلى الحياة موفور الصحة.. تخرج رجلًا توقع الجميع أن يكون مدوسًا تحت الباص سليمًا بدون خدش على جسمه.. تنقذ واحدًا بينما يلقى مئات الناس حتفهم في حادثة تحطم طائرة.. توصل منكوبًا في حادثة غرق سفينة سليمًا إلى بر الأمان بعد سنوات.. تنتشل أحدًا من بين أنقاض المباني المدمرة في الزلزال بعد أشهر.. أمثال عديدة من هذا القبيل تتحدى عقل الإنسان العادي.. ألا تنعم عليّ يا ربي في حياتي بأعجوبة من هذا القبيل..؟ إذا أردت أنت، ألهمت سائق شاحنة التبن مثلًا أن يوقف لي سيارته.. أو سائق شاحنة صهريج المياه أن ينقلني من هنا إلى ملجإ آمن.. بل إذا أردت، رق لي قلب الأرباب نفسه حتى يطلق سراحي.. وكل ذلك مرهون بإرادتك ورحمتك.. نظرت إلى السماوات.. لم تظهر على وجهها عوارض مبشرة سوى قطع الغيوم العقيمة الباهتة التي كانت تطفو مهملة على أديمها.

وفي ذلك الوقت لاحظت تَيْسَين ينتطحان.. والتيوس أشد بأسًا على بعضها منها على أي حيوان آخر.. لا يخمد غضبها إلا إذا رأت دمًا ينزف من رأس غريمها.. بالضبط أنها مشاكسة الرجولة..! أسرعت إليهما.. فرقت بينهما بالضرب. انصرف أحدهما وهو ينخر غاضبًا.. وأما الآخر فاتجه إليّ.. حدد النظر فيّ.. وسّع منخريه ينفث منها النار.. استجمع غضبه على قرنيه.. وقفت مسمّرًا في مكاني.. فما هجم عليّ حتى وثبت عنه بسرعة.. تعلمت هذه الحيلة من تجرباتي مع التيوس في أيام كثيرة. والتيوس لا تهجم على العدو بشكل مفاجئ.. بل تقف هنيهة تحدد الغرض ثم تهجم.. دعوها تحدد

الغرض بألَّا تتحركوا من مكانكم.. وإذا وثبت انفلتوا عنها.. لا يمكن لها أن تغير هدفها بعد الوثوب.. هذه هي الطريقة الوحيدة للنجاة من نطحة التيوس.

فات التيس غرضه.. انكب على وجهه غير بعيد.. أخذتُ حميّته بضربات إضافية على وجع السقوط.. انتفض قائمًا كيفما استطاع وركض بعيدًا عني. بقيت حفرة صغيرة حيث سقط التيس. تأملت فيها عبثًا.. رأيت فيها شيئًا بالصدفة.. أمعنت النظر حوله.. فوجئت بعوارض تدل على احتفار حفرة في الماضي القريب.. اقتربت منه في هول شديد.. أفزعني المنظر الذي رأيت.. التفتُ إلى حيث يجلس الأرباب.. كان يستريح ساحبًا عينيه من المنظار.. لا يعود يحوم بالنظر إلا بعد قليل.

أخذت أزيل عنه التراب شيئًا فشيئًا.. تحققت نيران الشك التي اندلعت في نفسي.. انتفضت واثبًا من صدمة المفاجأة.. كان ذلك كف جثة متحللة لم يبق منها سوى عظام..!! واصلت الحفر في ذعر شديد مأخوذًا بفضول لم أستطع السيطرة عليه. ما حفرت طبقة من التراب حتى لاح لي هيكل كامل لإنسان.. كنت مفزوعًا فعلًا.. رجعت القهقرى فتعثر قدمي بشيء.. كان ذلك حزامًا جلديًا قديمًا لم يتحلل بعد.. شعرت بأني أعرفه.. بعثت تلك المعرفة في نفسي على رعد مجلجل مقرونًا ببرق خاطف.. كان ذلك الحزام في خصر الشبح الرهيب الذي هرب من «المسرة» في الليلة الثالثة بعد مجيئي..!!

وجدتني أهرول إلى «المسرة» تاركًا الأغنام في الصحراء.. ألقيت بنفسي على قدمي الأرباب أتوسل إليه : «لا أريد أن أذهب إلى مكان.. لا أريد أن أهرب من هنا.. لكن أرجوك ألَّا تقتلني.. لأني أريد الحياة.. وأخاف الموت».

وقف الأرباب متحيرًا وأنا أبكي بكاءً مريرًا. ولم يطلع أبدًا على سر هذا البكاء.

28

إن لكل تجربة في الحياة ذروتها.. سواء كانت الفرح أو الحزن أو المرض أو الجوع أو غيرها.. أود أن أسمي تلك المرحلة منتهاها.. إذا وصلنا إليها فليس لنا إلا خياران، إما أن نستسلم للتجربة وإما أن ننتفض بكل قوانا كمحاولة أخيرة للتحرر منها.. إذا نجحنا فيها نجونا.. وإذا فشلنا فلا شك أن مصيرنا إلى مستشفى المجانين إن لم يكن إلى الانتحار.. يبقى أمامي الآن الانتفاض الأخير.. محاولاتي في البداية كانت مجرد اندفاعات مستعجلة لكافح مبتدئ.. ليس في وسعي أن أقول: إنني وصلت إلى المرحلة المذكورة آنفاً.. بل ربما كنت أتكيف مع الواقع.. علمتني تجربتي أن الأحزان والمعاناة مهما كانت قاسية تصبح مع تقادم الأيام كجزءٍ من الحياة.. وقد أصبحت آلامي جزءًا من حياتي بعد ما اصطحبتني حوالي سنة في طريقي المفعم بالعذاب.. لم أعد أشعر بمرارتها.

قبل سنوات، كنت أتعجب عندما أرى المتسولين والفقراء البائسين والمصابين بمرض مزمن والعميان وذوي الاحتياجات الخاصة.. كيف يعيشون واقعهم المرير طيلة حياتهم!؟. كيف ترتسم الابتسامة والفرحة على وجوههم!؟. واليوم قد اكتشفت الجواب.. ليس من شيء سوى حياتي نفسها.. لا أحس اليوم بأنني أعاني من شيء في حياتي.. بل ما عليّ من بأس في الواقع.. استيقظ في الصباح.. أحلب الغنم.. أعلف الأغنام والجمال.. أرعى الأغنام في البادية.. أرجع بها.. أتناول قطعًا من «الكُبّوس».. أنام تحت أشعة الشمس المباشرة أو تحت ضوء القمر.. لا أفكار.. لا هموم.. لا

أحلام.. لا أعلم شيئًا يحدث في العالم.. فماذا ينقصني..؟ قد نسيت عائلتي وبيتي ووطني.. لا تهمني حياتهم ولا أحزانهم ولا آمالهم.. كل تلك الخواطر أصبحت غريبة عليّ كما هي بالنسبة لميت انتقل إلى العالم الآخر أو لمن يعيش في زمن آخر..

أنا هنا مرتاح.. وليست لديّ مشاكل..

تدحرجت الحياة هكذا.. جاء الصيف والشتاء.. جاءت الرياح وعواصف مغبرة.. جاء المطر وإن كان نادرًا.. جاءت الشاحنات مرة في كل أسبوع.. جاء كل شيء.. وذهب كل ما جاء.. لكني بقيت في «مَسَرَتي» مع الأغنام.. وبقي عبد الحكيم مع أغنامه في «المَسَرَة» المجاورة .. لم نذهب قط..

وبينما نحن كذلك، انضم إلى معزلنا شقي ثالث.. حضر إلى «مَسَرَة» عبد الحكيم، فصار له صديقًا يشاركه ليله ونهاره.. وجدتني أحسده على الحظوة بإنسان آخر لأول مرة.. أو ربما كنت أتأسف على نفسي.. حصل عبد الحكيم على شخص يتحدث ويستمع إليه.. أنا الوحيد هنا في «المَسَرَة» كإحدى الأغنام.

بدأت أكره نفسي..

***

29

بعد حضور الصديق، ظهرت على عبد الحكيم تغيرات ملحوظة. لم أكن أعلم اسم الصديق ولا جنسيته.. مهما كان ذلك، فقد خلق في حياة عبد الحكيم تغيرات كبيرة.. ارتسمت على وجهه أحيانًا ابتسامات عريضة.. وظهرت في حديثه فرحة عظيمة.. شعرت بالدونية.. كان ذلك مجرد حسد.. أحسست بحقد وكراهية للعالم كله.. أخذت ثأري من الأغنام.. ضغطت بقوة على خصية الحملان المولودة حتى أخصيتها.. طعنت بعود في ضروع العنزات المرضعة.. أدخلت العود في شروج النعاج..

في البداية... خاف عبد الحكيم أن يقترب من الناحية التي أرعى فيها أغنامي، لكن مجيء الصديق قد أمده بجرأة جديدة.. بدأ يقترب مني أكثر، وإن لم يكن قريبًا جدًّا.. جاء إليَّ حيث يسمعني إذا رفعت صوتي.. ضربه أربابه لهذا السبب عدة مرات.. لكنه لم يبال به.. لقد أصبح شجاعًا في رفقة الصديق الجديد.. وددت أن أرى صديقه.. لكنه نادرًا ما خرج من«المَسَرَة».. كان يقوم بالأعمال الداخلية تاركًا لعبد الحكيم أعمال الخارج..

وجاء به عبد الحكيم يومًا تلبية لإلحاحي الشديد.. كان رجلًا عملاقًا.. مفتول العضلات.. طويلًا جـدًّا..! أحسست في أول وهلة أنه إحدى شخصيات قصة موسى عليه السلام، ربما انحدر إلى زمننا هذا.. اعتقدت أنه باكستاني «بَطّاني»..

تعرفت عليه.. إبراهيم القادري.. صومالي الجنسية.. شجرة سميكة نبتت وترعرعت في صحارى أفريقيا.

وقفنا أمام تلك الشجرة الكبيرة كنبتتين ذابلتين. (وبسبب ذلك اللقاء، تعرض كل من النبتتين لوابل من الضرب).

ذات يوم، سمعت عبد الحكيم يهتف بي وهو فوق تلة : «أَتركُ لك هنا ورقة فاقرأها» ثم انصرف. بعد قليل ذهبت بالأغنام إلى التلّة.. وجدت الورقة تحت حجر.. قرأتها.

«إبراهيم القادري كان في هذه البلاد من قبل.. يعرف جميع الأماكن والطرق.. يريد الهروب.. يرحب بنا.. سنخبرك بالمزيد فيما بعد.. فتوكل على الله العظيم».

انفجر في داخلي بركان السرور.. بأي كلمة يمكن أن أصفه لكم..؟! كان كزهرة تفتحت فجأة في الصحراء.. كذبت عليكم حينما قلت: إنني نسيت بيتي ووطني.. كذب خالص.. كان في مفكرتي كل شيء.. كان يختبىء في سراديب نفسي لكن الظروف غمرتها برمادها.. لم أكد أفكر في سنوح فرصة حتى اشتعل لهابها.. أحسست بأنها تخلق وجعًا في صدري.. شعرت بحزن مرهق يغمر جسمي.. انفرطت بالبكاء.. عانقتُ «ميري مَيْمُونَة» التي كانت بجنبي.. قبلتها قبلة.. قلت لها: «إني راحل يا حلوة.. خليني أروح.. ولك رجال كثيرون مثل «أَرَوُ رَاوُتَّرْ» و «مُور وَاسُو».. وليس لي إلا زينب.. وليس لها إلا أنا.. أنا مشتاق إليها.. وهي أيضًا تشتاق إليّ».

سجدت شكراً لله على أنه حماني وسمع مناجاتي وأرسل لي إبراهيم القادري رسولًا منه لينقذني من هنا.. الله أكبر! الله أكبر!!

ما أشد ما كان فرحي في ذلك اليوم..! وما أنشط ما كنت في أعمالي..! لا بد أن الأرباب قد تعجب مما أصابني ذلك اليوم.

«يا أيها الأرباب، اعلم أن أيامي هنا معدودة.. لا يبقى لي إلا قليل.. أنا مسافر في القريب العاجل.. فابحث لك عن أحد آخر تشتمه وتجلده

بحزامك وتبصق في وجهه..سأرحل تاركاً إياك وحيداً مع هذه الأعمال الشاقة التي ستضيق بها ذرعًا.. عند ذلك ستعرف قيمة نجيب».

تمنيت أن يقع الفرج المنتظر في الساعة.. لكن ما وقع شيء في ذلك اليوم.. انتظرته بفارغ الصبر في اليوم التالي.. وقد ازددت رجاءً.. لكن اليوم انصرم دون أن يقع شيء.. جاء اليوم الثالث.. كان الرجاء باقيًا وإن تضاءلت كثافته.. والاستعجال لم يبرح مكانه. ومع الأيام، أخذت أمواج الرجاء تتراجع شيئًا فشيئًا.. ثم تحولت إلى الإحباط الشديد وكراهية الذات.. كرهت كُلًّا من إبراهيم القادري وعبد الحكيم.. خادعان لم يفيا بعهدهما.. بقيت على تلك الكراهية على مدى يومين. وبعد ذلك، تفتقت في النفس بذور الشك أنهما قد هربا.. وتركاني هنا وحيدًا.. لم أكن أطيق حتى أن أفكر بذلك. انتقامًا منهما، صممت على الانتحار يوم يتحقق شكي.. وفي كل صباح كنت أتطلع أثناء الرعي إلى جهة «مَسَرَّتِهما» بكل رجاء.. عندما علمت أنهم هناك أحسست براحة تثلج صدري.. راحة المعرفة أنني لست وحيدًا.

بعد ذلك استسلمت للفكرة أن الله تعالى قد قدر لي هذا.. يمتحنني اليوم.. أرسل رسولًا يرغّبني ثم يخدعني.. دعه يستهزئ بي ويخدعني.. ها هو ذا نجيب عرضة لكل شيء.. يا الله، ما كنت أظن أن تفعل بي هكذا. تظلمت إلى الله تخفيفًا عن نفسي..

جاءت بعد ذلك أيام اللامبالاة.. تبين لي أنه لا ينقذني من هنا القادري ولا «بُودَرِي» (كلمة محرفة للسخرية). وقد قدر الله عليّ أن أعيش هنا حتى أموت.

في النهاية، عدت إلى حياتي العادية.. أيام خالية من الرجاء والأحلام.. بالضبط كالإنسان الماعز..!

30

وقع ذلك أخيرًا في يوم غير متوقع.. فوجئت بعبد الحكيم يقبل إليّ مسرعًا وهو يسوق غنمًا.

«لدينا أمر بعد غد، كن متأهبًا له» قال ذلك ثم عاد يجري.. كأن يلقي جمرةً في نفسي.. ما هو الأمر..؟ ماذا عسى أن يكون..؟ كأن هناك إشارة مبشرة في قوله «كن متأهبًا».. أصابني خوف شديد.

فقدت الرغبة في الهروب إلى أي مكان.. الأغنام التي تربّت في قفص مغلق سرعان ما تعود إليه إذا أطلق عنانها.. بالضبط كنت في نفس الحالة.. أين أذهب وأنا بهذا المظهر وفي هذه الثياب..؟ إنما أنا ماعز قدّر لي أن أعيش في هذه «المَسَرَة».. ربما إلى نهاية الحياة.. أو حتى يقتلني مرض مبكر. لا أحب أحدًا أن يرى مظهري القبيح.. ووجهي المخيف.. وحياتي المقززة.. إنما أنا الإنسان الماعز..

ماذا حدث لي؟ كنت أتحين لهذه الفرصة.. ولما سنحت، أتردد متحيرًا عن انتهازها..! تُخفي الحياة كثيرًا من الأمور المتضاربة..!

مضى يومان ولم أجهز شيئًا للسفر.. ما شعرت بنشاط لعمل شيء.. وكم من مرة جهزت نفسي متأهبًا لفرص هروب عديدة.. وكان حظي فيها جميعًا أن أنتحب في النهاية كعروس تراجع عريسها عن الزواج بها في ليلة الزفاف.. كرهت أن أتزين لزفاف آخر.. ولم تجئني حتى المساء أية إشارة تبشرني باحتمال وقوع أمر ما.. لعنت عبد الحكيم الذي يرقص على أنغام ذلك الكذاب الأفريقي، إبراهيم القادري..

ولما اقتربت الساعة الخامسة مساءً، دعاني الأرباب إلى الخيمة على غير عادته.. ولدهشتي، رحب بي إلى الداخل.. أكرمني بالمجلس.. ثم قال:

«لدينا حفل زفاف بنت الأرباب الكبير.. لن نكون هنا الليلة.. عليك أن تحرس الأغنام ساهرًا.. قد تأتي الثعالب والثعابين وحتى اللصوص فعليك بها جميعًا.. وفي الصباح، سأحضر لك «الكُبّوس» والكبسة والمجبوس.. تمام؟ أنت خادم أمين.. وما وجدت عاملًا أحسن منك.. ما كانوا مخلصين في عملهم.. ولكنك طيب.. أنا أحبك. والله يحفظك».

سمعت كلماته وأنا أهز رأسي بالسمع والطاعة. هذا هو الأمر الذي أخبر به عبد الحكيم..! وإن كان كذلك فاليوم يومي المنتظر..! رفرف قلبي بين ضلوعي من شدة السرور كجناحي فراشة.. غير أني لم أظهر ذلك.. خرجت من الخيمة متظاهرًا باللامبالاة.. وكلماته تلك هي كل جزائي مقابل الأعمال المضنية التي قمت بها طوال هذا الزمن.. نعم، فقط تلك الكلمات.. لم أحصل على شيء آخر.

في الليل وصلت سيارة.. نزل منها رجل لم أره من قبل.. بياض ثوبه ونظافته شجعتني على النظر إلى نفسي.. ما أقذر ما كان المنظر..! كأنني تمثال مجسد للأقذار..

ركب الرجل والأرباب السيارة وسارا بعيدًا. امتلأتُ بنشاط غريب لم أتمتع به حتى اليوم.. فرحت كطفل سنحت له فرصة لعب غير متوقعة حين ذهب والداه إلى زيارة بعض الأقارب.. من فرط السرور جريت حول المَسرة وأنا أرقص وأرفع صوتي صاخباً ضاحكاً.. انطلقت أجري إلى مَسرة عبد الحكيم. كان هو الآخر في غبطة عارمة.. ما رآني حتى أسرع إليّ يعانقني ويقبلني.. بكينا معًا ونحن نتعانق.. قال في صوت أليم: «يا أخي.. أشتاق إلى

أمي.. أشتاق إلى أبي.. أشتاق إلى أختي «شاهنة».. يا أخي.. لقد بلغ السيل الزبى، ولم تعد بي قدرة على تحمل المزيد..».

«تطيق ذلك يا بُنيّ.. تطيق كل شيء إن شاء الله.. أوصلنا الله إلى هذه المرحلة.. ولا يبقى أمامنا الآن إلا ساعات معدودة.. كن جريئًا.. والله معنا..» حاولت أن أواسيه وأنا أربِّت على خده.

ذهبت إلى إبراهيم الذي كان جالسًا على سرير.. سألته في ولهٍ «ألا نتحرك..؟».

نظر إليّ مائلا برأسه.. ابتسم لي كاشفًا عن لثته ابتسامة طفل بريء.. ثم قال لي وهو يربِّت على كتفي: «اصبر يا نجيب قليلًا كما صبرت إلى اليوم.. دع الأربابين يصلان إلى مسافة يستغرق الرجوع منها وقتًا طويلًا.. ولا تنس أننا نمشي على أرجلنا.. فارجِع الآن إلى «مَسَرتك».. سننادي عليك عند الذهاب..».

كادت أيام المأساة السوداء تقترب من نهايتها.. سأتحرر من هذه الزريبة.. لا أدري ماذا ينتظرني في الغد.. مهما كان، لن يكون أسوأ مما أنا فيه.. أنا متأكد من ذلك..

لك الحمد كله يا الله.. ولك المجد كله.. وأنت أرحم الراحمين..!

فررت راجعًا إلى «مَسَرتي». كانت حقيبتي على السرير تحت الوسادة.. صارت مهترئة من تعرضها الطويل للشمس والمطر والبرد والعواصف.. كأن غبار القرون قد تراكم عليها. حاولت قدر استطاعتي أن أنفض الغبار عنها وأفتح سحّابها.. لكنه لم يتحرك.. بل تمزق سطحها بعض الشيء بسبب صراعي معها.. انبعثت من داخلها رائحة نتنة.. ما فتحتها على مدى هذا الزمن المديد.. ولا دعتني إليه حاجة.. وما زال فيها «الأتشار» الذي زودتني

به زينب مع حبها.. غير أنه تحول إلى شيء مجفف يابس لا تُدرَك ماهيته.. في البداية، كنت أتناوله مع «الكُبوس».. فيما بعد، بدأت أخشى أن ينتهي.. لأني تمنيت أن تبقى رائحة زينب ومحبتها معي دائمًا.. احتفظت بالباقي في حقيبتي.. وفيما بعد، ربما نسيت أمرها مع انقطاع رجائي من لقائها.

كنت أعلم أن في الحقيبة قميصًا وبنطلونًا فصّلتهما مجددًا قُبيل السفر إلى الخليج.. استخرجتهما.. تعجبت هل تعمل الصحراء أحيانًا كحيوان قارض.. صارت الثياب رثة ممزقة غير صالحة للاستعمال رغم أنني لم ألبسها ولا مرة.. كان ذلك بفعل رياح الصحراء التي هي أقوى في التآكل من ملح البحر.. فكم تعرضت لتلك الرياح وأثيابها على مدى هذه السنوات الطويلة..! تفكرت مندهشًا.. وليس عندي شيء آخذه معي.. سأرجع صفر اليدين.. رميت حقيبتي بعيدًا.

بدَتْ الأغنام منزعجة داخل «المَسرات» كأنها استشعرت رحيلي.. دخلتُ عليها.. جاءت كلها تلتف حولي بوجوه ارتسم عليها سؤال متلهف: «من لنا بعدك؟».. دنوت أكثر من تلك الأغنام التي قد لا أراها في الحياة مرة أخرى.

«أستأذنكم يا إخواني الأحباء.. إذا بقيت هنا على هذه الحالة سأموت لاحقًا.. لا بد من الهروب.. ليس منكم بل من أقداري.. أحب كل واحد منكم.. ولولا أنتم، لقد مت قبل زمان.. ولكنكم أحييتموني بحبكم لي إلى اليوم.. سأذكركم وأظل أحبكم حيثما ذهبت.. لأنكم إخواني.. كنتم معي في أيام المأساة. أرسلني الله إلى هذه «المَسرة».. وهو اليوم ينجيني منها.. أدعو الله تعالى أن ينجيكم أيضًا من هذا الجحيم.. أيها الأغنام، وداعًا لكم يا أحبابي وإخواني بل فِلذات كبدي..».

أتت الأغنام إلى جنبي واحدًا تلو آخر.. كان «أَرَوُ رَاوُتَّرْ» في مقدمتهم.. ربَتُّ على خده ونصحته قائلا : «عليك أن تتعامل بلين الجانب مع الإنسان السيئ الحظ الذي قد يأتي (لا سمح الله) بعدي.. فلا تصارعه.. ولا تكسر يده..» فهز رأسه.

أتت ثانية «بُوتشَكَّار رَمَن» وهي تبكي.. أبكتني ببكاءها. وأتت بعدها «ميري مَيْمُونَة».. قبلتُها وقبلَتْني.. طلبت منها أن تمنح حبها المتبقي لمن يجيء بعدي.. أطرقتْ حزينة. ثم أتى «إنْده بوكَّرْ» فـ «نَنْدُو رَاكَهاوَنْ» فـ «بَرَبْ وجَيَنْ» و«تشَاكِّي»، «أَمِّنِي»، «كُوْسُو»، «رَوْفَةْ».. كلهم أتوا.. ودعتهم جميعًا.

انخرطت في البكاء حين دخلت إلى «مَسَرَة».. الصغار.. كنت لهم مثل داية تودع رضيعًا ولد على يديها بلمحتها الأخيرة قبل المغادرة.. أغلب هذه الحملان وُلدت على يدي.. كنت أمًّا لهم منذ يوم ميلادهم.. أنا الذي علفتهم وأعطيتهم حليب أمهاتهم.. تذكرت لحظةَ «نبيل».. اختنق قلبي لفقدانه.. احتضنت «بِينْكِي» و«أُمُّ» و«رَسِيَ» و«تَاهِرَا» عانقتهم كلهم.. لكنهم لم ينتفضوا كما هي عادتهم كلما حاولت إمساكهم.. بل التصقوا بأحضاني.. وبصدري الدافئ.

«أبنائي، أعلم جيدًا كيف يكون مصيركم إذا كبرتم.. لا شك أنه إلى مسالخ الأسواق.. أدعو الله أن يقوّيكم على مواجهة ذلك المصير الأليم.. ولا يملك سوى الدعاء نجيب المسكين.. أضعف حيوان فوق الأرض». خرجت من «المَسَرَة» وأنا أبكي.

دخلت إلى «مَسرة».. الجمال.. بدَتْ كأنها حزينة لفراقي. والجمال لم تسبب لي مشاكل كثيرة.. كانت عادتها أن تذهب وتعود لوحدها.. وإنما كان

واجبي هو علفها بالبرسيم وسقايتها الماء عند رجوعها.. وكان ذلك كافياً جدًّا لاكتساب حبها.. والآن، علمت من تعابير وجوهها مدى حبها لي وتفاهمها معي. فاضت عيونها بالحب.. بكيت معها.. وعانق بعضنا بعضا..

ليس لي هنا إنسان أودّعه.. أنتم كل الناس لي.. أنتم الذين شجعتموني على الحياة طوال هذه الأيام.. امتناني لكم شديد بعد الله تعالى.. بكيت مرة أخرى.

الفراق أليم ولو كان من ظروف قاسية.. تملكني الحزن الشديد حتى في لحظات النجاة التي ينبغي أن يمتلئ فيها قلبي بالسرور.

سمعت عبد الحكيم يناديني من بعيد.. خرجت من «المَسَرَة».. تعالى ثغاء الأغنام كلها معًا بالصراخ.. لكنني لم ألتفت.. ولو فعلت، ربما لم أرحل من هناك.. كان عبد الحكيم وإبراهيم القادري بانتظاري في الطريق.. انطلقنا إلى عالم جديد.. وإلى حياة جديدة.

***

31

عدونا طوال الليل مطلقين أرجلنا للريح كأننا نهرب من حريق اندلع في السماء بأكملها. لم يكن هناك طريق معبّد إلى «المَسَرة» سوى ذلك الدرب الرملي الذي مهده المرور المتكرر للسيارات.. التزمنا به حتى لا نضل عن الاتجاه الصحيح.. ولم نكن نعلم إلى أين يؤدي ذلك الطريق الذي يختفي عن الأنظار وراء بعض الأودية بعد أن مر متعرجًا بين خواصر التلال الممتدة على مدى البصر!. ولم نر وراءه إلا دخانًا يعلو من السيارات المارة. ورغم ذلك، اعتقدنا أن الطريق سيصل في النهاية إلى طريق رئيس وإن لم نكن نعلم كم يطول بنا إلى ذلك.

كان القمر منيرًا جدًا في تلك الليلة، الأمر الذي سهّل علينا الفرار. خُيِّل إلينا أن الله تعالى لا يزال معنا آمراً أرضه وسماواته أن يحدبوا علينا. فررنا طوال الطريق بلا كلام ولا حتى لمحة إلى بعضنا بعضًا. جرينا وجرينا.. لكن لم يبدو أننا وصلنا إلى مكان آمن.. خفنا أن يكون وراءنا أحد لا يزال يلاحقنا.. اتهمنا حتى أزيز الرياح بأنه ضجيج سيارة الأرباب.. ولذلك، ضاعفنا سرعتنا في كل لحظة..

ظللنا نعدو هكذا وقتًا طويلًا حتى رأينا الدرب الرملي يتفرع إلى فرعين، فرع إلى اليمين والآخر إلى اليسار. وجدنا أنفسنا أمام مُعضلة الشك أيها سيقودنا إلى الطريق الرئيس. بعد تردد ومناقشات استغرقت كثيرا من الوقت والجهد، قررنا أن نتوجه إلى اليسار.. واصلنا العدو.. بعد مضي كثير من الوقت، لاح لنا على البعد بصيص ضوء. لما ركزنا النظر عليه تبين لنا أنه سيارة تشق طريقها متباطئة متأرجحة.

شعرت بأنها شيء عظيم يبرّد قلبي.. حدثتني نفسي «قد اقتربنا من الطريق الرئيس.. طريقنا إلى النجاة النهائية». لحظتها، فاجأنا إبراهيم يسحبنا ويخبئنا وراء كثيب.. كانت السيارة متوجهة نحونا.. لا نريد الآن أن نكتشف حظنا.. ربما يكون فيها الأرباب نفسه.. أو أحد معارفه من العرب.. وإن كان كذلك فلا نلبث أن نجد أنفسنا ننزل من سيارته أمام قاعة حفل الزفاف.. ابتعدنا عن الطريق مختبئين وراء الكثيب. زحفت السيارة تجتازنا ببطء.. كانت شاحنة صغيرة.. قد سارت بعيدة عنا.. وعلمنا أن سائقها كان «البَطّاني» الذي يحضر التبن إلى «مَسَرَتنا».. «واه، إنه يعرفني.. ربما أنقذنا الآن» قَال إبراهيم واضاعا يده على صدره في تحسر.. جرينا وراء السيارة وأصواتنا تعلو بالصراخ.. ولكنها كانت قد ابتعدت عنا كثيرًا حتى قبل أن نصل إلى الطريق.

ما أشد إحساسنا بالكآبة وخيبة الأمل.. من فرطها لعنت نفسي وحظي.. ومَن أشد حسرة من رجل يُحرم من حظه السعيد بعد أن رآه نصب عينيه..؟! من الغضب المفرط تعمدت أن أقلع شعر رأسي وأصفع على صدري.

«ما فات فات، لن يعود.. وليس في التحسر أدنى فائدة.. هيا ننتظر سيارة أخرى..» اقترح إبراهيم القادري. قررنا أن نقف هناك بانتظار سيارة أخرى.. لعلنا نلقى معها حظا أسعد.. وقفنا طويلًا بكل رجاء.. تمتد أمامنا الصحراء الميتة المُقفرة.. دعوت إلى الله بقلب منصهر «يا الله، ألهِمْ أي سائق أو أحدٍ أعرفه أن يأتي إلى هذا الطريق..» ولكن ما وصلت سيارة في ذلك اليوم..

وما كان في وسعنا أن نترك أنفسنا هناك وقتًا طويلًا حتى نكتشف حظنا السعيد.. واليوم حينما أتذكر ذلك، أفكر أنه كان ينبغي علينا أن ننتظر هناك أطول.. لكن حالتنا في ذلك الوقت لم تكن تسمح لنا به.. ظننا أن الانتظار

هو أحمق السفاهة وعلينا أن نصل في أسرع وقت ممكن إلى أبعد ما نستطيع.. إذا جاء الصبح، تأتي أشعة الشمس تسفر عن مخابئ الأرض.. فلا تترك لنا مخبأ على سطحها.. وسيخرج الأرباب في الصباح حاملًا مسدّسه ومنظاره سرعان ما يعود إلى «المَسرة» ليفاجأ بعدم وجودنا فيها.. ولا شك أنه سيعثر علينا أينما كنا في الصحراء.. فلا تكون نهايتنا مختلفة عن نهاية الشبح الرهيب.. فلنأخذ كل الحيطة حتى لا نتيح له فرصة لذلك.. وقد عزمنا على النجاة.. فلا نتراجع عن عزيمتنا أبدًا..

واصلنا الفرار. ودعوني هنا أقول لكم شيئًا.. إذا كنتم حقًّا أمام أنياب حظ تعيس فلن تأتوا إلا الأفعال الغبية.. هذه حقيقة عرفتها من تجاربي.. ولو كنا نفكر بعقل سليم، لفررنا باتجاه السيارة.. لكننا فررنا في الاتجاه المعاكس من فرط الحيرة. وكانت هذه السفاهة دليلًا ناطقًا على أن الفزع والحيرة قد تخمّر عقولنا. واليوم، أطمئن إلى فكرة أن ذلك كله كانت مكتوبة عليّ سابقًا في هذه الحياة.. وإنما كنت استعجل قدري..

فررنا ملتزمين بحافة الطريق بأسرع ما نستطيع.. لدى الأرباب سيارة ونحن نجري على أرجلنا.. يقدر أن يغطي في خمس دقائق مسافة نحتاج لتغطيتها إلى ساعة كاملة.. لا بد أن نصل بهذه الليلة أبعد ما نستطيع.. حتى نلتجئ إلى مخبإ آمن. وفي تلك الأثناء، اكتشفنا أننا ما كنا وحيدين في «المَسرَة» في تلك الصحراء.. بل هناك «مَسرات» أخرى وإن كانت بعيدة عن «مَسرَتنا».. لا بد أن فيها أشقياء مثلنا يسهرون حرسًا على الأغنام.. رأينا بجانب الطريق «مَسرة» أو «مَسرَتين».. وكان ذلك أيضًا خطرًا مهددًا لنا.. لأنه لا ينعقد طبعًا في هذه الليلة زفاف بنات أرابيب «المَسرات» جميعًا.. فلا بد أنهم موجودون فيها. وإذا رآنا أحدهم سيفهم أننا هاربون وإن كان أعمى.. هكذا كانت هيئتنا وحيرتنا.. ولذلك فررنا بمعزل عن الطريق. وكانت هناك

مشكلة أخرى.. ضوء القمر الساطع كان يكشفنا.. سيرانا حتى البعيد عنا.. لأننا الآن لا نزال نركض في أراض مستوية السطح.. ثلاثة أشباح مرعبة الهيئة.. ولا يظن أننا من جنّ الصحراء إلا من كان يخاف حتى من ظله.. ما زلنا نفر مستترين قدر الاستطاعة بخواصر التلال والكثبان.. ولكن ذلك أدّى بنا إلى خطر كبير..

وصلنا أمام تلة كبيرة.. تسلقناها.. كانت المفاجأة عندما انحدرنا منها مسرعين.. وجدنا أنفسنا نتجه إلى «مَسَرة» في أسفلها.. رآنا أحد قبل أن نقدر على الاختباء.. علاوة على ذلك، خبط عبد الحكيم بالخطأ أثناء العدو رجلًا كان يستلقي على الأرض.. انتفض الرجل قائمًا.. فوجئ بأشباح رهيبة تفر إلى جنبه.. أخذ يصرخ بأعلى صوت: «اللص...اللص!» ما كان الرجل وحيدًا في «المَسَرة».. استيقظ على صراخه زملاؤه من «حيوانات المَسَرَة».. انطلقوا وراءنا مسرعين ليقبضوا علينا.. أطلقنا أرجلنا إلى الريح.. سمعنا أثناء ذلك صيحات بالعربية، ربما استيقظ أربابهم أيضًا على هذا الصخب. لم نزل نفر هكذا حتى دفعني أحد ما في ظهري دفعة شديدة أكبّتني على وجهي.. سمعت اللحظة صوت الرصاص من الخلف.. لولا أني انكببت على الأرض، لاخترق الرصاص ظهري حتى يخرج من صدري.

«لا تقوما..»، أمر إبراهيم ونحن نستلقى ملتصقين بالأرض.. فوجئ هؤلاء الذين كانوا يلاحقوننا بأن الأشباح الثلاثة قد اختفوا عن أنظارهم توًا.. وقعوا في حيرة من أمرهم.. ربما اعتقدوا أننا من الجن حقًا.. أخذنا نزحف على الأرض بحذر.. أما هؤلاء فتقدموا خطوات قليلة ثم انصرفوا بعد أن أطلقوا الرصاص إلى كل الجهات الأربع دونما غرض.. استمررنا نزحف إلى أن اختبأنا وراء تلة أخرى. وما واصلنا العدو إلا بعد أن تأكدنا من رجوعهم.

وأثناء العدو، شكرت إبراهيم على ذكائه المتوقد وإيثاره حين أسقطني على الأرض في تلك اللحظة الحاسمة. لكنه أبدى استغرابه متسائلًا: «أنا..!؟ ما كنت قريبا منك حتى أدفعك بيدي.. وفوق ذلك، لم أتوقع رصاصًا في تلك اللحظة.. ربما دفعك عبد الحكيم..» ولكن عبد الحكيم نفى هو الآخر قائلًا: «لم أدفعك، بل أفكر من الذي دفعني أنا..» فمن بعدُ..؟ نظرنا إلى بعضنا بعضًا.. لحظتها فقط تبين لنا وجود خفي لرابع معنا في هروبنا. كانت عيني تفيض بالدموع من فرط الشكر..





32

لم نزل نفر ساقطين وناهضين، متعثرين وقافزين، عابرين كثبانًا وتلالًا وسهولًا ووديانًا. أوشك الصبح أن ينبلج حينما انهينا الفرار بأرواحنا كخنازير أصابها الرصاص. وكان ضوء القمر قد تلاشى في أغوار العتمة في وقت ما من الليل.. رغم ذلك، ما زلنا نركض في تلك الصحراء القاحلة كمجانين. كان عبد الحكيم أول من وقف.. «كفاية.. لم أعد أطيق.. دعانا نستريح قليلا..» قال لاهثًا ثم سقط على الأرض..

تيقنًا أننا قد قطعنا مسافة تأمّننا من الوقوع في قبضة الأرباب بسهولة.. في ظل ذلك الاعتقاد، جلست أيضًا على الأرض.. ربما لم أكن أجلس بل أتهاوى على الأرض منهوك القوى.. والألم الذي كان يعصر رِجلي بدأ يدب إلى أعلاها.. كنت ألهث ككلب أكمل شوطا حول العالم.. جف الحلق حتى أبى لساني أن ينطق ولوبكلمة.. نبض قلبي بشدة حتى خفت أن يخرج من القفص الصدري في كل لحظة.. تعششت في عيني العتمة.. ما جلست قليلًا حتى ألحّت عليّ نفسي في الاستلقاء، غير مبال باحتمال اعتراض ثعبان أو عقرب.. استلقاء واستراحة.. لم أحتج إلى شيء أكثر.. تمددت على الرمال منشور الأطراف.

أوحت تعابير وجه إبراهيم أنه لم يصبه شيء من التعب.. إنما جلس إلى جوارنا كمن يجلس ليتلقى نسيمًا خفيفًا بعد عمل يسير.. استلقيت أنا وعبد الحكيم أمام قوته العظيمة ككلبين ملتفين حول جسميهما في هيئة مستديرة.

طلعت الشمس.. انتشر الضياء.. كأنها شمس الحرية التي تبشرنا بحياة جديدة. صحوت على نداء إبراهيم وأنا أحك عينيّ.. كنا قد استغرقنا في نوم عميق في وقت ما من الليل.. خطر لي لحظة أنني الآن في «المَسَرَة»، وأن الذي أيقظني هو أربابي.. فتحت عينيّ ولم أجد أمامي «المَسَرَة» ولا الأغنام ولا الجمال ولا الأرباب ولا الخيمة.. كان عبد الحكيم يستلقى إلى جنبي مستديرا.. عدت إلى واقع الحال مسرعًا.. وهززت عبد الحكيم أوقظه..

«يا عبد الحكيم، هل تعلم أين نحن الآن؟ قد خرجنا من الجحيم وانتهى العذاب.. أحرار نحن من الآن.. لك الشكر يا الله، يا رب السماوات والأرض، ليس أوسع من رحمتك، ولا حدود لحبك..» بكيت وأنا أنظر إلى السماء.

عدت أهز عبد الحكيم بقوة.. لكنه تقلب على الجانب الآخر مبعدًا يدي عنه.. ربما يستمتع الآن بحرية النوم ملء عينيه بعد زمن طويل.. تركته ينام. تلفتُّ حولي وأنا أنفض النوم عن ظهري وأطرافي.. لم أر إلا تلالًا وكثبانًا منتشرة فى مساحة أرضية واسعة تحجز العين عن الرؤية إلى ما وراءها.. بحثت عن إبراهيم القادري.. كان فوق كثيب ينظر إلى الأبعاد..

«يا إبراهيم، هل ترى طريقًا من فوق..؟» ألقيت إليه السؤال.. ما كان جوابه إلا أن لوّح بيده يناديني.. دفعني حب الاستطلاع لأرى الأعجوبة التي تنتظرني.. صعدت فوقه.. أدهشني المنظر فعلًا.. صحراء..! صحراء شاسعة..! تمتد مد البصر إلى اليمين وإلى اليسار.. وإلى الأمام وإلى الخلف.. بحار متمووجة من الرمال تمتد من الأفق إلى الأفق.. ولا شيء يحول البصر.. لا شجرة ولا نبتة ولا جبل ولا.. ولا شيء..

عندها فقط تصورت المنطقة التي وصلنا إليها تصورًا واقعيا.. لم نكن الليلة البارحة نعير اهتمامًا بأننا لم نعد نجري على أرض صلبة وأخذت أقدامنا تنغرس في الرمال الناعمة.. أصابني رعب خفي زحف إليّ كثعبان عظيم.. نظرت إلى وجه إبراهيم.. كانت الحيرة ملحوظة عليه.. أما عبد الحكيم فلم يكن حائرًا قط، لأنه لم يزل في سبات عميق. نظرت أنا وإبراهيم بعضنا إلى بعض.. يا الله، إلى أين وصلنا..؟ من أية جهة جئنا..؟ وإلى أي وجهة نتجه من هنا..؟ أين تقع المدينة التي خرجنا نبحث عنها..؟ في الشرق..؟ في الغرب..؟ في الجنوب..؟ أم في الشمال..؟ إلى أين نذهب حتى نصل إلى مقصدنا..؟ من ذا الذي يدري..؟ ليس حولنا إلا الرمال والكثبان.. منظر خلاب كلوحة فنية تلهم خيالي لو كنت أراه وأنا في موقف آخر.. ولكنه الآن يبدو لي كبحر هائج مرعب.. لا يكفيني لعبوره زورق صغير.. بل أحتاج إلى سفينة كبيرة.. يا الله، لا ندري كيف نخترقه وليس عندنا شيء من الوسائل..؟ إلى متى يطول السفر وليس عندنا قطرة ماء ولا لقمة طعام..؟ هل نصل إلى بر الأمان قبل أن يرتفع النهار وتنفث علينا الشمس لفحات الحر..؟ يا ربي، أنت الصاحب في السفر.. ونعوذ بك من وعثائه ولا زاد لنا إلا توكلنا عليك.

قلت: «يا إبراهيم، كنا نفر البارحة إلى الغرب.. أظن أن الأحسن أن نلتزم اليوم أيضًا بنفس الاتجاه.. سنتوصل إلى طريق عام بإذن الله..» مشى يمنة ويسرة في حيرة دون أن يجيبني.. وبعد تفكر استغرق كثيرًا من الوقت، اتخذ القرار هو نفسه، وقال: «أظن أنه تقع في الشرق أقرب مدينة إلينا، هيا نذهب إلى الشرق».

أيقظنا عبد الحكيم.. قام نافضًا ذرات الرمال عن جسمه.. لاحظت حين ذلك شيئًا.. انبعثت من جسمه تلك الرائحة النتنة التي اخترقت أنفي في أول يوم وصلت إلى «المَسَرَة».. فيما بعد، أصبح أنفي عاجزًا عن تمييزها.. والآن،

عدت أميّزها بعد أن رحلت عن «المَسَرَة». ربما كنت أيضًا أحمل تلك النتانة.. لكنني أخذت وقتًا أطول حتى أحسست بوجودها بجسمي..

أخذنا نمشي.. لحظات تستحق أن نطير فيها من شدة الفرح.. أخيرًا قد تحقق حلمنا.. نجونا.. ربما يكون الأرباب قد عاد الآن إلى «المَسَرَة».. وجعل يبحث عنا.. ولا شك أنه سيُجنّ حين يعلم أننا نحن الثلاثة قد هربنا معًا في آن واحد.. إلى أين يكون قد توجه بسيارته؟ مهما يكن ذلك لقد تجاوزنا يا أرباب كل الطرق التي عسى أن تسلك بحثًا عنا.. لقد انفلتنا من قبضتك..

وفي الوقت نفسه، لم يكن في وسعنا أن نتأكد أننا نجونا حقًّا حتى نخترق هذه الصحراء التي تمتد أمامنا.. وحتى نصل إلى طريق رئيس.. وحتى يرق لنا قلب سائق سيارة ليوصّلنا إلى مدينة.. قبل ذلك، لا يمكن لنا أن نقول إننا: قد خلصنا. وسينتهي كل شيء إذا رآنا أحد من العرب قبل ذلك.. ولا يخفى على أحد يرى هيئتنا وملابسنا أننا هاربون من «مَسَرَة» عند النظرة الأولى.. كانت حيرتنا قد استولت على أفراحنا.. رغم ذلك كله، أخذنا نمشي بقلوب محشوة بالرجاء. واستراحة الصباح أعادت نشاطنا بعد إعياء البارحة ولهاثها.. بالإضافة إلى ذلك، أمدتنا بمزيد من النشاط فكرة أننا أحرار ولم نعد عبيدًا لأحد.. واصلنا السفر.. ولم يخطر لي في تلك اللحظات أننا بصدد سفر صحراوي خطير جدًا.

***

33

مشينا منتعشين بدون الهواجس التي كانت تفترسنا البارحة.. لم نعد نحس بأن رمضاء الصحراء تمسنا.. أصبحنا متكيفين معه بفضل تعرضنا الطويل لها على مدى السنوات.. صرنا معتادين على هذا الحر والعطش. لا تستطيع الصحراء أن تهزم بسهولة رجالًا عاشوا في «المَسَرَة» سنوات من عمرهم.. إنما ينهزم أمام حرها الذي ينهك القوى سكان القصور الذين لا يخرجون إلى الصحراء إلا للتنزه أو لإشباع الفضول. سنصل بإذن الله إلى غايتنا قبل أن تبلغ منا الصحراء.. لأن الله صاحبنا في هذا السفر. ولا يرعانا في هذه الرحلة الصحراوية إلا إيماننا بالله وهمتنا المستمدة منه..

مشينا نستمتع بمناظر الصحراء ونستكشف أسرارها.. احتفينا بالسفر كأننا كنا نذهب إلى مهرجان.. وكان عبد الحكيم أنشطنا وأكثرنا حبًا للاستطلاع.. كان يبحث وراء كل شيء عن جواب «ماذا» و«لِمَ» و«كيف».. لم يزل يسأل إبراهيم عن ذلك كله كطفل بريء.. شرح له إبراهيم كل شيء في أسلوب مفهوم ميسّر.. وكان حقًّا متبحرًا في علوم الصحراء.

ظللنا نمشي هكذا حتى وصلنا إلى منطقة استوقفتنا مناظرها.. وادٍ من الأشجار قد تحول عبر توالي العصور إلى أحافير بفعل رياح رملية متكررة كستها أكوامٌ من الرمال..! منطقة تحسر عنها عيون الخيال.. تكثر فيها كثبان متناثرة تشبه الأشجار.. انحدر إليها عبد الحكيم مأخوذًا بالدهشة.. تحسس على واحد منها فإذا بالرمال المتراكمة تتساقط منه.. تساءلت متعجبًا كم من قرون قد مرت على هذه الغابات حتى تمكنت الرياح من تحويلها إلى كثبان

رملية!. تصورت مذعورًا كيف كانت هذه الصحراء بأكملها غابات في عصر من العصور! وكيف غطتها الرياح الرملية شيئا فشيئا!.

«لا ينبغي أن نقف هنا طويلًا.. يبدو أن المنطقة خطيرة جدًّا.. قد تهب الريح على حين غرة.. والنجاة صعبة جدًّا بعد ذلك» قال إبراهيم.

ما مشينا من هناك حوالي عشر خطوات حتى خطر لنا أن شيئًا يتحرك أمامنا.. ظننا لأول وهلة أنه سراب يخدع الظمآن.. ثم سمعنا فحيحًا مرعبًا.. شككنا أنه ربما كان ريحًا رمليًّا أنذرنا به إبراهيم قبل قليل.. أمعنّا النظر.. رأينا أشياء تتمايل أمامنا كأنها بستان يتعابث الريح برؤوس نباته.. أخذت تتقدم على مهل.. «الثعابين..!» قال إبراهيم وقد تملكه الرعب.. رأينا بوضوح مجموعة من الثعابين تزحف وتؤرجح رؤوسها.. ليس واحدًا أو اثنين.. بل حشدًا من الثعابين التي قد يبلغ عددها خمسمائة بل ألفًا.. منظر لم أره من قبلُ ولم يخطر على خيالي..! لا تزال تتقدم نحونا وهي تثير غبارًا كجيش كبير.. في مقدمتها ثعبان كبير مرفوع الرأس كأنه قائد الجيش وخلفه جنود عديدة.. «إغرسا رأسيكما في الرمل واستلقيا بلا حركة.. ليس في وسعنا غير ذاك..» قال إبراهيم.

استلقينا على الأرض كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال.. بعد قليل، سمعنا الفحيح يقترب منا.. كان جسدي يرتعش من شدة الفزع.. لا يستغرق أن تنتهي حياتي أكثر من عشر ثوان إذا خدش جسمي أنياب أي واحد من تلك الأفاعي الألف.. استلقيت داعيًا الله ربي في دخيلة نفسي بأعلى صوتي.. عبرَتْ جميعُها أمامنا تزحف فوق أجسامنا.. كلما لمسني واحد بعد آخر، أحسست بجسمي يحترق كأنه تعرض لدبيب الجمر.. رفعنا رؤوسنا بعد أن تأكدنا من عبور آخر الثعابين.. كانت جلودنا منتفخة في المناطق العارية من أجسامنا كما لو كانت مجلودة بالأسواط.

إذا كانت هذه تجربتكم الأولى فى الصحراء، ربما تساءلتم في دهشة هل هي حقًا صحراء.. لأنها غابات يتوفر فيها نظام بيئي لعدد كبير من الكائنات الحية بما فيها الثعبان، وأم أربعة وأربعين، والسحلية، والعنكبوت، والفراشة، والنسر، والذئب، والأرنب، وابن عرس وغيرها من الحيونات الكثيرة. ولكل منها طرقها ومُدنها وأوطانها وقوانينها في الصحراء.. لا قيمة هنا للإنسان وحياته وقوانينه.. ولا نفوذ لسلطانه.. إنما هؤلاء الحيوانات هم ورثة الصحراء.. قد أورثها الله لهم.. وخلقهم ليعيشوا فيها.. أما أنا فمقتحم متدخل.. وانتفاخ جلدي أيسر عقاب على تدخلي إلى عالمهم.

النهار هين.. لكن الليل خطير جدًا.. تخرج فيه الكائنات المختبئة في الجحور لتفترس فرائسها.. الثعابين سامة للغاية.. ولها خمسون نوعًا. وكم رأينا أثناء مشينا جلودها المنسلخة متناثرةً هنا وهناك..! كان إبراهيم يلتقط كل واحد منها ويحدّد نوعه بدقة فائقة.. ويقدِّر عدد الثواني التي يترك فيها الإنسان اللديغ على قيد الحياة.. بل فضلا عن ذلك، الموت محتوم في الصحراء بمجرد لدغة عنكبوت أو أم أربعة وأربعين.

هل تعلمون أن هناك سلحفاة في الصحراء..؟ سلحفاة كبيرة وإن كانت أصغر من سلاحف البحر.. تخرج إذا تخفف الحر.. تعيش حوالي مائة عام.. جسمها متكون من الماء بنسبة أربعين في المائة.. وحتى الجمال التي تُلقّب بسفن الصحراء لا تستغني عن الماء فوق ثلاثة أيام بينما تستطيع سلاحف الصحراء تخزين ما تحتاج إليه في مدة ستة أشهر من الماء في جسمها.

كانت النعامة هي الحيوان الذي لم أوفق إلى رؤيته في الصحراء رغم رغبتي الشديدة في ذلك.. وبقي مشهدها وهي تدفن رأسها في الرمال مجرد حلم لم يتحقق بعد.

الحكايات التي سمعتها عن عناكب الجمال كانت قد رسمت في نفسي صورة حيوان كبير الحجم كصحون العشاء العربي.. يتشبّث ببطون الجمال التي تجري بسرعة خمس وعشرين كلم في الساعة ويقضم بطنها شيئًا فشيئًا.. ولكن حينما رأيتها رأى العين اتضح لي أن كل ما سمعت عنها كانت مجرد مبالغات. كان إبراهيم هو الذي أراني واحدًا منها أثناء مشينا بخطوات مسرعة متباعدة.. ما أصغره..! ربما يكون هذا صغيرها.. تساءلت متعجبًا من صغر حجمه.. كنت تصورته أن يكون بحجم ديناصور صغير.. تبسم إبراهيم ضاحكًا.. أكاذيب وشائعات متناقلة حول هذا الحيوان المسكين.. كلها مبالغات سوى أنه يعيش كالجمال حياة باسلة في الصحراء القاحلة..!

رأينا في الصحراء أعجوبة أخرى.. وهي الحرباء الطائرة.. كنا نمشي بعد الظهر.. لاحظنا بالصدفة وميضَ شيء ذهبيّ اللون.. سرعان ما يتلاشى كروح أو جن يختفى عن الأنظار إلى عالم مجهول.. شككت أن يكون ذلك من تلك الصور الخادعة التي تصنعها عيناي المرهقة المحمرة الجافة أو لمعات مبهرة من ضوء الشمس المفرط.. يختفي ذلك الشيء في الرمال توًا ثم يرجرج عينيه يمنة ويسرة وهو يبحلق فينا كما لو أصابه الرعب.. أحيانًا عبرَ أمامنا يطير إلى البعد.. فشككنا أن أحدًا قد رمانا من الخلف فيما جعلني التفت مرارًا.. يتدفق خارجًا من بعض طيات الرمال.. ولكن لم يخطر ببالي حين ذلك كله أنها حرباء. فيما بعد، حينما تسلقنا كثيبًا، فوجئنا بمجموعة منها تتطاير فوقه.. ألوان ذهبية تتقافز.. إن رأيتموها، ستقولون: إنَّها طيور الحساسين تتطاير بين أغصان الأشجار.. سرب يربو عدده على المائة تسبح وتمرح في تلك البحيرة الرملية.. وددت أن أمسكها لأكتشف هل لها أجنحة أم هي تطير بأطرافها.؟!. لكنني لم أتمكن من الدنو منها فضلًا عن إمساكها.. لأنها تطير في الفضاء وتتسلل إلى الرمال بسرعة فائقة جدًا..

«هذه الحرباء لا تشرب الماء أبدًا..»، قالها إبراهيم.

أيتها الحرباء الذهبية.. قد أدخلتُنِ السرور إلى قلبي في لحظة مقتنصة من لحظات هذا السفر الأليم بجمالكن الخلاب.. أنتن تقدرن أن تعشن حياة كاملة بدون رشفة ماء.. هل لكن أن تتكرمن عليّ ببضع ساعات من حياتكن.. لعلي أبقى بها حيًا حتى ينتهي بي هذا السفر إلى مكان ما.

كان الظهر فاترًا مغبرًا حيث لا يصل البصر إلى أبعد من عشرة أقدام مما جعل السفر أكثر صعوبة بالنسبة لنا.. ولكننا استمررنا في المشي.. أحسسنا بأن السماء تصب علينا جام غضبها بدلا من مجرد الحر.. كلما اشتد الحر أخذت أجسامنا تذبل أكثر فأكثر.. فقدنا نشاطنا الذي شعرنا به في الصباح.. لم يزل إبراهيم يشجعنا في تلك الأثناء كلها.. «هيا نمشي ميلًا آخر.. عسى أن نصل بعده إلى طريق رئيس.. إنما يقود الإنسان إلى الأمام الرجاء..».

مشينا ومشينا.. ولم نجد حولنا إلا صحراء غير متناهية.. لا شيء سواها.. الرمال.. الرمال.. الرمال فقط.. انصرف عنا الضحى والظهر.. وأتى المساء.. ولم يأت إلى الآن ما انتظرناه.. الشمس التي كانت تدب فوق رؤوسنا نحو الغرب قد تركتنا وحيدين في الصحراء وانغمست في طيات الأفق.. أقبل الليل بعد نهار طويل لم تقع فيه على ألسنتنا قطرة ماء.. أقعدَنا التعبُ واللهاثُ على الرمال.. وجدتني أجهش بالبكاء قانطًا من الوصول إلى مكان حتى بعد مسيرة نهار كامل.. أبكيت عبد الحكيم أيضا ببكائي..

كنت أتمنى في أوائل الأيام قائلًا لنفسي: «لقد كُتب عليّ هذا السجن الصحراوي.. يا ليتها كانت صحراء متصفة بكل صفاتها.. حتى أستمتع بمنظر الرمال الممتدة مد البصر كالبحار». ولكن الصحراء الحقيقية قد أرهبتْنا بمنظرها قبل نهاية نهار واحد. وقد سمعنا قصصًا عديدة عن الذين اجتازوا الصحراء.. وكم قرأنا عنهم وجلودنا تقشعر من مغامراتهم.. لكنهم استطاعوا ذلك على ظهور جمال قوية برفقة البدو الذين يعرفون الصحراء كما

يعرفون الخطوط التي في أكف أيديهم.. وكانت حقائبهم تمتلئ بالزاد وقِربُهم بالماء. ومن حاول عبورها بدون أخذ هذه العُدد، لقي حتفه في أحضانها قبل أن يتمكن من أن يقص علينا قصصه.. يا الله، هل يكون مصيرنا مثلهم..؟ ولسنا ممن خرجوا إلى الصحراء للاستكشاف أو لإشباع الفضول.. إنما خرجنا نبحث عن طريق يعيدنا إلى الحياة.. حتى نرى وجوه أحبابنا المحبوبة مرة أخرى.. ونمسح عنها دموعًا انسكبت من أجلنا.. لكننا ضللنا الطريق ووصلنا هنا منقطعي الطريق.. يا الله، ليس لنا أحد سواك.. ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.. ولا نستهدي إلا بهديك.. لا يحمينا ولا يرعانا إلا أنت.. فلا تشوِ أجسامنا بنار الصحراء..

***

34

وفي اليوم التالي أيقظَنا إبراهيم القادري قبل طلوع الفجر. وقال: «هيا نمشي قبل أن تشتد علينا الشمس». استيقظنا فوجدنا أقدامنا متورمة.. كانت ثقيلة كما لو أنها أصيبت بداء الفيل.. رغم ذلك، مشينا فوق الرمال نجر أرجلنا.. بعد قليل طلعت الشمس من مشرقها معلنة نيتها أن تضرم النيران في الرمال في هذا اليوم الجديد..

في أثناء سيرنا، تخيلت عبثًا بأن السماء سلة زرقاء.. شاحبة الحواف.. مقلوبة علينا من فوقنا.. تبدأ حوافها من أحد أركان الصحراء.. ترتفع من هناك إلى قمتها فوق رؤوسنا ثم تهبط إلى أسفلها في ركن آخر.. ونحن فراخ دجاج محجوزة داخلها.. لا بد من رفع السلة لنخرج منها.. ولا يمكن لنا ذلك إلا بعد أن وصلنا إلى إحدى حوافها التي تبدو بعيدة عنا مهما مشينا إليها.. كأننا حوصرنا وسط اللانهاية.. لا ترى عيوننا إلا السماء الزرقاء والشمس المضطرمة والرمال.. الرمال فقط.. استولى عليّ رعب شديد..

وكان إبراهيم يواسينا قائلا: «لا تجزعا.. أبصارنا لا تبلغ أبعد من ميلين ونصف ميل.. ربما يكون وراءها الطريق الذي نلتمسه.. فلا تَهِنا ولا تستكينا بل امشيا في كل رجاء. وإذا تمكنت منا فكرة أننا تعبنا، سرعانَ ما نسقط على الأرض حتى نقضي بقية النهار عرضة لنيران الشمس.. فلا بد من مواصلة السير كيفما استطعنا.. فدعونا نبذل قصارى جهودنا حتى نصل إلى مكان آمن في أقربِ وقت ممكن».

وبعد قليل، رأينا آثارًا واضحة في الرمال.. نهر جف في أحضان الصحراء في قديم الأزل..!! اندهشت فعلًا من تلك الحقيقة صعبة التصديق أنه كان هنا يومًا من الأيام نهر جرى وسط هذه الرمال المتقدة برمضاء الصحراء.. تبقت علامات جريانه بارزة عميقاً.. تصورت عبثًا رجلًا وصل إلى شاطئه ومات غريقًا أثناء محاولة عبوره.. نقف اليوم نلهث عطشًا لرشفة ماء على نفس الشاطئ الذي مات الرجل غريقًا في نهره.. ما أبعد الفرق بيننا وبين تلك اللحظات التي ربما وقعت في سحيق الزمان..! وكم من حادثة ربما حدثت خلال ذلك!. كأنني أنظر إلى النهر حين يجف شيئًا فشيئًا قاذفًا سكانه من الكائنات الحية إلى أفواه الموت الذي يقترب منها بخطوات ثابتة.. أسمع صراخًا عاليًا للماء من أشجار ونباتات كانت على شاطئه.. أيها الدهر، ما أغرب وجوهك!!

مرت علينا ليلتان ويوم ونصف يوم ونحن لم نذق طعم الماء. كادت عيوننا تفقد البصر من فرط العطش والإعياء.. مشينا شبه نائمين.. لم يبق في قوس صبرنا منزع.. جعل عبد الحكيم يبكي وهو يتوسل للماء..

«إن المشكلة أنك شببت على الإسراف في استعمال الماء. يستطيع الإنسان أن يبقى حيًا بدون ماء ولا طعام حتى أربعة عشر يومًا.. هيا بنا نمشي متوكلين على الله..» شدد عليه إبراهيم. لكنه بقي يبكي ويصرخ طوال المشي وهو يردد: «الماء» «الماء».. بعد قليل انتزع يدي فجأة صارخًا: «لا أطيق.. يا أخي لم أعد أطيق.. اذهبا أنتما.. دعاني أرقد هنا..» حاولت أن أشجعه متظاهرًا بغضب..«لا تهن يا عبد الحكيم ولا تستكن.. كبّر ربك وتقدّم....» وبدأت ألقّن إيّاه.. «الله أكبر..! الله أكبر..!» ردد معي «الله أكبر..».

كأن الهتاف بتلك الكلمات الشريفة وصداها أمدانا بقوة جديدة.. تقدمنا غير قليل مستمدين منها العون والإلهام.. ولكن بدأنا لاحقًا نفقد تلك القوة

أيضًا شيئاً فشيئًا.. لم تبق في أرجلنا المرهقة طاقة حتى تسير بنا إلى أبعد من ذلك.. فأخذت تظهر إعياءها في صورة الألم والتخدر والانتفاخ.. تقرحت أقدامنا جراء صراعها المستمر مع الرمال الحارقة.. تورمت قدم عبد الحكيم بشكل واضح جدًّا.. رغم ذلك، مشينا مستجمعين كل قوانا.. جارين أقدامنا.. بعد لحظات تأكدنا بفزع شديد أننا لم نعد نطيق المزيد من المعاناة..

هوى عبد الحكيم إلى الرمال نافد القوى.. رقدت أنا أيضًا إلى جواره كأنني كنت أنتظر سقوطه..

أنبنا إبراهيم.. «قُوما.. لن يزيدكما هذا الرقود إلا إعياء.. لن يفيدكما أبدًا في تجديد قواكما.. ستمتص الشمس آخر قطرة ماء من أجسادكما.. اصبرا قليلًا.. لا تشويا أجسادكما فوق هذه الرمال.. ستبرد الرمال قريبًا.. ستبرد الصحراء قريبًا.. وسيهنأ الرقود بعد ذلك.. وقد صبرنا إلى هذا الحد.. ولا يبقى أمامنا إلا قليل..».

«إليك عني يا مخادع!!» تعالى صوت عبد الحكيم وهو يبكي.. «أأخرجتنا لتهلكنا..؟ أهذا ما وعدتنا به..؟ كانت المَسَرَّة خيرا لنا من هذا بكثير.. كان الأرباب أرحم بنا من هذا.. لا أقدر.. ولا أبالي الإعياء.. لا أبالي الموت.. اهرب أنت إن شئت..».

لأول مرة أثناء ذلك السفر، رأيت عيني إبراهيم القادري مغرورقتين بالدموع.. رفع يديه إلى السماء متضرعًا إلى الله.. ثم هوى داعيًا ربه في السجود..

كانت الصحراء تغلي كمرجل.. شعرت بأننا ملقون في مقلاة ضخمة .. إلا أن ذلك الرقود بعد مشي طويل أفاء عليّ بشيء من الراحة.. كان الحر غير محتمل في البداية.. رمال متقدة تحت جو لاهب.. ولكن، فيما بعد،

تكيف جسمي معه وأصبحت الحرارة في جسمي وفي الرمال والجو متساوية الدرجة. لكن العطش بقي مندلعاً في لساني.. لم أجد منقعًا لغلتي.. وقد جفت آخر قطرة من اللعاب في فمي. ضربت على صدري ألعن نفسي على حماقتي ألا آخذ معي عند الفرار شيئًا من الماء في قارورة أو وعاء.. ربما فررنا في لحظة تجردنا فيها من كل عناصر العقل.. لا يبقى أمامنا الآن إلا مقاومة الحر والعطش.. ماذا نفعل غير ذلك؟

اتضح لنا أن إبراهيم كان صادقًا فيما قال.. كلما رقدنا ازداد إعياؤنا.. ولم نسترد شيئًا من طاقتنا.. بل دفعني ذلك إلى الاسترخاء.. تسربت إلى عينيّ عتمة.. تحول ذلك إلى دوخة شديدة أدت بي إلى التقيؤ مرتين.. ولم يلبث عبد الحكيم أن تقيأ أيضًا.. خلع إبراهيم ملابسه محاولًا أن يصنع لنا بها شيئًا من الظل.. ولكن كان ظله محدودًا جدًّا فلم يفدنا.. حاول أن يُجلسنا على الأرض.. لكننا تهاوينا.. كنت في شبه غيبوبة.. رقدنا في أحضان الصحراء كجثتين هامدتين.. وكان في وسع إبراهيم حينها أن يبحث عن سبيل لنجاته لوحده تاركًا إيانا في مكاننا. لكنه جلس إلى جانبنا كحارس لنا حتى فتحنا عيوننا في وقت ما من الليل..

عندما فتحت عيني، شعرت بحلقي يتمزق من شدة العطش.. لكن أين الماء..!! يا الله، ما أكثر الماء الذي أسرفت في استعماله حين كنت في بلادي!. هأنذا الآن أتوسل لقطرة ماء.. عرفت اللحظة فقط قيمة وطني وثروته.. أهذا عقابك يا ربي على إسرافي في تلك الأيام..؟ غفرانك يا الله..! وقد علمتني اليوم قيمة الماء..

***

35

الكتاب في جميع اللغات والأديان يرون الصحراء منبعًا للهدى والنقاء والصحوة الروحية.. كتبوا عن الكثيرين من الذين عاشوا وتجولوا في الصحراء حتى انفجرت ينابيع المعارف في أذهانهم. لكن الصحراء لم تبعث فيّ صحوة الذهن. قضيت فيها أكثر من ثلاث سنوات.. والآن أحاول اختراقها.. لكنها لم تعطني في خلال ذلك كله إلا خيبة الأمل والآلام.. لعلها لا تؤتي ثمارها إلا لمن أتوها تلهفًا للمعارف الروحية.. أما أنا فما أتيتها بل اتفق أن وقعت بين مخالبها. لذلك ربما قررت ألّا تمن عليّ بشيءٍ من ثمارها.

وقد مر علينا يومان آخران ونحن نسير في الصحراء بخطوات تائهة.. ما وصلنا إلى مكان.. ولا جاء أحد لينقذنا.. قد بلغنا من الإعياء منتهاه.. أخذت الجروح في أقدامنا تتقيح نتيجة صراعها المستمر مع الرمال المتقدة.. اتسع نطاق التورم في أرجلنا حتى وصل إلى ما فوق الركبة.. التهاب ينفد الصبر.. ألم وتخدر..

كان الوقت يقترب من منتصف النهار.. كان عبد الحكيم يمشي معنا هادئًا.. فجأة، اندفع إلى الأمام كأنما جُنّ جنونه.. هتف بأعلى صوته «الماء.. الماء».. حدقت النظر مفزوعًا إلى حيث انطلق مسرعًا.. يا الله، الماء..!؟ من تجربتي خلال هذه الأيام الصحراوية، عرفت أنه لم يكن سوى سراب عادي.. صحت فيه آمرًا بالعودة.. لكنه لم يسمعني.. استمر يجري إلى الأمام وهو يصرخ كالمجنون «الماء...الماء..» لاحقته أنا وإبراهيم حتى أوقفناه.. رأينا رغوة تخرج من جانب فمه.. ودمًا يخرج من أنفه.. مسحتُها بقميصي..

أجبرناه على الجلوس.. قال: إنه يشعر بدوخة.. بعد قليل، جعل يحرك أطرافه بإيماءات جنونية.. كمن أصابه داء الكلب، وثب فجأة منفلتًا من بين أيدينا.. عاد يفر في الرمال ونحن نتابعه.. بعد أن فر قليلا ارتمى منهكًا على الأرض.. بكى أشد البكاء.. دنونا منه لنرفعه.. لكنه نفضَنا عنه بقوة شديدة.. بدت حركاته جنونية.. جعل يأكل الرمال الحارة.. حاولنا أن نمنعه من ذلك.. لكنه دفعَنا عنه بقوة غريبة جنونية.. استمر يأكل الرمال الحارة.. بدأ يتقيأ بشدة.. لم نجد شيئا نفعله حينها وأصبحنا عاجزين عن فعل أي شيء.. تقيأ عدة مرات حتى خرج الدم مع القيء.. تلوى في الرمال كحية مضروبة.. كادت عيناه تقفز من محجريها.. أخذ يسيل من فمه سائل خليط من دم غزير ورغوة.

«إبراهيم، افعل شيئًا لإنقاذه.. أخي عبد الحكيم، أغلى الناس عليّ على وشك الموت» بكيت متوسلًا إليه في جزع.

«يا الله، يا مولاي، خالق كل شيء، احمه بحمايتك واحفظه بحفظك وانقذه مما يلاقي » دعوت الله وأنا أضرب على صدري من شدة الجزع..

نظرت إلى السماء، لم يكن فيها سوى قرص الشمس المضطرم.. عدت إلى إبراهيم أتوسل إليه باكيًا «افعل شيئا يا إبراهيم..!!».

لكن إبراهيم جلس مسمّرًا في مكانه بدون حراك.. قذفته بالشتائم والحسرة الشديدة تطغى على نفسي.. بصقت في وجهه.. ضربته بيدي ورجلي.

«ليس في مقدورنا إلا أن نفوّض أمره إلى الله..» قال في صوت مذبوح.. لم أر إبراهيم أبدًا أضعف منه في تلك اللحظات.

وهنتُ تمامًا.. قعدت على الأرض مغمض العينين.. لم أكن قادرًا على رؤية عبد الحكيم وهو يتلوى لخروج روحه.. سمعته يشهق ويتلوى قليلًا..

لما سكن الصوت، فتحت عيني.. نظرت إليه.. رقد مبحلقًا فيّ كأنه يحاول أن يقول لي شيئًا.. أسرعت إليه أحتضنه وأردد: «يا بُنيّ، عبد الحكيم، لا بأس عليك.. لا تخش شيئًا». تحركت عيناه حركة دائرية ثم سكنتا بهدوء.. شعرت كأن كفنًا أسود يغطي عقلي.. يسيطر إنهاك عارم على كل جسمي.. ارتميت على الأرض.

لما فتحت عيني وجدتني محمولًا على كتف إبراهيم كجثة هامدة. كانت لفحات الرمضاء المشحونة بالنار تهب غاضبة.. تحاول بشدتها أن تعرقل كل خطوة من خطوات إبراهيم.. رغم ذلك، فر حاملًا إياي بأسرع ما أمكن.. لم أفهم لماذا يفر هكذا؟. لكنني كنت منهكًا تمامًا حتى عجزت عن النزول عن كتفه.

في ذلك الرقود، بدا لي أن شيئًا يتحرك وراء كثيب الرمل الذي كان أمامنا.. مأخوذًا بالدهشة، نظرت إليه بمجامع عيني.. لم يلبث أن اتضح لي أن الحركة ليست من وراء الكثيب بل كان الكثيب نفسه يتحرك.. كما تتقدم الأمواج المزمجرة المتجمعة في أقاصي البحار، زحفت أمواج رملية عاتية من زاوية الصحراء النائية واحدة تلو أخرى.. خُيِّل إليّ أنني لم أكن في الصحراء بل أنا واقف على شاطئ البحر.... تقدمت الأمواج تعيد رسم جميع المناظر التي كانت أمامنا.. ضربت أعناق التلال والكثبان.. أبادتها حتى تلاشت في الفضاء.

«أطبِق عينيك بقوة..» صرخ إبراهيم وهو ينزلني على الأرض عن كتفه.. ضمني إلى صدره وهو يقول: «لا تتحرك».. وقفنا متعانقين بشدة.. لم تمض لحظات حتى وصلت إلينا موجة تمسنا بشظاياها.. شعرت بمرور ذرات الرمال الساخنة في الوجه والأطراف والجسم كله كحريق يلتهمني.. ما أدري كم طال بنا الوقوف في ذلك الغار الغباري!. فتحت عيني عندما

أحسست بأن الرياح هدأت بعض الشيء.. فوجئت بشبح رملي يعانقني..!
والجو كان معكرًا محمرًّا بغبار كثيف.. ولم نر أمامنا سوى سحاب غباري يحيط
بنا.. قد غمرنا إلى الخصر. والذي استغربت منه أكثر هو أنه قد اختفى عن
أنظارنا كثيب كان قائمًا بين أيدينا.. بدلًا منه تشكل كثيب أكبر منه في الجهة
التي فررنا منها..! كأنما أعيد رسم خريطة كبيرة على مرأى منا ومسمع..
أجهشت بالبكاء بأعلى صوتي.. لقد وارى ذلك الكثيب الجديد جثمان عبد
الحكيم الغالي تحته إلى الأبد..!

***

36

أخرج إبراهيم نفسه من أكوام الرمل بعد مجهود شاق.. واستخرجني منها.. تأهب كي يواصل السير حاملًا إياي على كتفه.. انتفضت نازلًا من كتفه.. «يا إبراهيم، أنقذ نفسك واتركني هنا، لا أقدر أن أترك عبد الحكيم هنا.. ولا أريد النجاة بدونه.. جئنا معًا.. ولا أعود إلى البلاد بدونه.. لا أقوى على مواجهة وجه أمه.. ولا نظرات أخته.. أتركني هنا.. أنا ذاهب معه.. أنا ذاهب مع عبد الحكيم..».

كنت على وشك أن أفر إلى الكثيب الذي وارى جثمان عبد الحكيم.. اختطفني إبراهيم بسرعة وقال: «ما أرسلني الله إلى «المَسَرَة» لأتركك هنا في هذه الصحراء.. عجزت عن إنقاذ عبد الحكيم.. لن أدعك تموت قبل أن أموت أنا..» ألح أن يحملني على كتفه.. وما كنت أملك قوة حتى أقاومه.. حملني على كتفه كمنديل مبتل.. كنت أنتحب كطفل صغير.. مشى إبراهيم يحملني في تلك الصحراء القاحلة.. هاجني العطش والجوع والجزع.. كإبرة كان الألم يطعن في رموشي.. استشعرت نبضات قلبي.. أحسست بأنها تخف شيئًا فشيئًا.. تباطأ تنفسي.. جف لساني المتقرح حتى عجزت عن تحريكه ألبتة.. أحسست أن العالم قد اسودّ وأخذ يدور بي.. خرجت الرمضاء من رأسي كالبخار.. تبدد شعوري بما حولي.. علمت أنني أقترب من حالة عبد الحكيم.. لا يبقى لي في هذه الحياة الدنيا إلا قليل.. حان وقت الوداع.. حاولت أن أتذكر كل من أحبوني وأحببتهم.. لكنه لم يطف في رأسي المحموم كثير من الوجوه المحببة ما عدا أمي وزينب وعبد الحكيم.. وأما الأغنام في «مَسَرَتي»

فظهرت جميعها واحدة بعد أخرى.. «نَبيلْ»، «أَرَوْ رَاوُتَّزْ»، «بُوتشَّكَار رَمَن»، «ميرِي مَيْمُونَة»، «إِنْده بوكَّزْ»، «نَنْدُو رَاكَهاوَنْ»، «بَرَبْ وجَيَنْ»، «تشَاكِي»، «أَمَّنِي»، «كَوْسُو»، «رَوْفَةْ» وكلها.. لعل سببها أن تلك الأغنام ربما أحبتني أكثر مما أحبني أي إنسان.. كل أتى يودعني الوداع الأخير..

جاء المساء.. وتلاه الليل.. استلقينا على الرمال منهكين.. مر علينا ليل كامل بدون أن نتحدث بكلمة إلى بعضنا البعض.. لم أكن أظن أنني سأجتاز هذه الليلة.. لكنني فعلًا اجتزتها.. وجدت نفسي لا أزال على قيد الحياة في الصباح.

***

37

سكنت الرياح. كان الصباح بديعًا صافيًا. فتحت عيني لأرى كثبانًا أمامي.. امتدت الرمال كمحيط هاجع.. قمت على مهل.. ولم نتبادل أنا وإبراهيم كلمة واحدة.. لقد مات فينا الرجاء والأمل.. كدنا نقنط من الوصول إلى مكان ما.. اشتقت إلى الموت بأسرع وقت ممكن.. لم أعد أطيق هذا الحر والعطش.. اللهم أنقذني من هذه الجحيم فى أقرب وقت كما أنقذت منها عبد الحكيم.

مشيت على الرمال وأنا أجر قدمي في خطوات مترنحة.. أصبحت شبه ميت. كان إبراهيم يبدي مرارًا استعداده ليحملني على كتفه.. لكنني رفضت لأنني كنت على يقين من أنني سأموت قبل حلول الليل.. آمنت أنه لم يبق في جسمي من عناصر الحياة ما يحفظني حيًا أطول من ذلك.. قررت المشي مسرعًا استعجالًا لقدوم الموت.

حينما مشينا قليلًا لاحظنا آثار أقدام لحيوانات غريبة.. كآثار خفيفة لسراها مستترة بستار الليل! تتبعها إبراهيم ليرى إلى أين تقوده!. كانت تمتد إلى مجاهيل الصحراء.. توجهنا إلى الاتجاه المعاكس متأكدين من أن الاتجاه الأول سيؤدي بنا إلى قلب الصحراء.. مشينا إلى الظهر تقريبًا إلى أن رأينا بالصدفة سحلية كبيرة تزحف أمامنا في الرمال!!

«سحلية..!!» انطلق إبراهيم مسرعًا نحوها.. لكنني لم أجد فيها شيئًا يثير دهشتي.. كنت شبه نائم متوقعًا سقوطي على الأرض في كل لحظة.

«هل رأيتها يا نجيب..؟ إنها سحلية بلا شك..!» لاحظت أن كلماته كانت مفعمة بالسرور والبشر.

«وإن كانت...؟!» قلت بوجه عابس غير مبالٍ.

«هل تعلم أن السحلية في الصحراء تدل على وجود الماء القريب» قال ذلك في فرح شديد.

«حقًّا..؟!» قلت والرجاء الأخير ينهض في داخلي.

هز رأسه موافقًا. وحذرني قائلًا: «لا بد من أن تكون كل خطواتنا القادمة على حذر تام. على أي حال من الأحوال، لا ينبغي لنا أن نرتد إلى الصحراء. واعلم أن هذه هي فرصتنا الأخيرة».

لذلك كنا على حذر تام طوال سيرنا. كنا نبحث عن مزيد من السحالي في كل خطوة. توجهنا إلى حيث نفرت تلك السحالي. وما تسلقنا كثيًا حتى رأيت رؤوس الأشجار الخضراء تملأ عينيّ.. النخل، والشجيرات والجنبات. لقد اقترب الماء!! ولم أدر بعده هل كنت أطير أم أسير.. وصلت هناك متناسيًا كل الإعياء الذي كنت أعاني منه حتى الآن، وكنت أجري جارًا رجليّ اللتان كنت استثقلهما منذ قليل كرجلي فيل، وطرت بهما فوق الأحجار الحادة غير مبالٍ بقدمي المجروحتين الداميتين. وكان إبراهيم القادري من ورائي يتابعني. أستغرب الآن أنه رغم اشتياقي إلى الموت في تلك الساعات إلا أنني قد دفنت في ردهات نفسي بذور أمل قوية للحياة. ربما كان هذا الأمل هو الذي أبقاني على قيد الحياة إلى آخر المطاف. كنت واثقًا بأن هناك ماء على مقربة منا. ركضت بين الأشجار المتكاثفة ركوض مجنون.. أحسست بأني أسمع طنينًا لآلاف النحل التي تحوم فوق رأسي.. لاحت هالات بيضاء تتطاير أمام عينيّ.. انكشف لي كيف أصاب عبد الحكيم نوبات الهلع في

لحظات احتضاره.. عطش مذهل.. أنا أيضًا أتعرض له الآن..! استمررت أتلفت إلى كل اتجاه بحثًا عن الماء.. عدت أجري في كل الاتجاه. أما إبراهيم فكان يبحث عن الماء هادئًا، متتبعًا المناطق الأكثر خضرة أو البقاع الأكثر رطوبة.. فعلًا اكتشف في النهاية بركة صغيرة وسط الجنبات.. هتف رافعًا يده إلى السماء: «الله أكبر!! الماء! الماء! الماء! الله أكبر!!».

وكان رأسي كحريق ملتهب حينما طرق صوته مسمعيّ.. هرعت إليه كمجنون.. رأيت بعينيّ منبعًا زاخرًا بالماء بين الشجيرات.. ألقيت بنفسي قربه من شدة العطش.. فإذا بإبراهيم يبعدني عنه بقوة.. وهو يصرخ: «لا تشرب».. اندلع اللهب من عينيّ.. غلت بالجنون دمائي.. صفعتُه على قفاه مستجمعًا كل قواي المتبقية.. ترنح بالصفعة المباغتة.. توجهت إلى الماء مرة أخرى.. فجأة، أمسك برجلي يجرني.. ألقاني بعيدًا.. «دعني يا مخادع! أنا عطشان..أريد الماء!» كنت أصيح في وجهه.

لكنه لم يتركني.. بكيت وأنا أضرب صدري.. «يا هذا، لم تشعل الأمل في قلبي..؟ اللهم أهلك ببرقك ورعدك وجام غضبك هذا الظَالم الذي يحرمني من شرب الماء.. متحجر القلب هذا..! أهذا الذي كنت أرافقه منذ أيام؟ لقد قتل عبد الحكيم.. يريد الآن أن يقتلني.. يحتال أن يستأثر بماء الينبوع كله لنفسه.. لا يعطيني حتى قدر ما أبلل به لساني.. إني أشتاق إلى شيء من الماء قبل الموت.. وقد اشتهيت أن أذوقه» كنت أتلوى وأصرخ.. غير أنه ألقاني بعيدًا ثم مضى نحو البركة. ولم يبق لديّ قوة للنهوض من هناك.

رقدت مغمض العينين تجنبًا لرؤيته وهو يشرب الماء كله بنهم.. ففوجئت برطوبة على الشفتين.. فتحت عينيّ.. فإذا بإبراهيم جالس إلى جواري وبيده قطعة قماش مبللة يرطب بها شفتيّ على مهل.. فتحت فمي بكل شراهة.. وما إن وقعت منها قطرة على لساني حتى تلويت قائمًا كأنها حامض يلتهب

به لساني.. عاد يضع الخرقة في فمي.. تقاطر منها الماء في فمي قطرة قطرة. أحسست مع كل قطرة التهابًا يحملني على الصراخ.. عاد إبراهيم يبلل الخرقة.. ترشح الماء من لساني إلى جوفي.. ألهب مره حلقي ومعدتي.. بعد أن تكررت عملية التبليل عدة مرات، خمد الالتهاب شيئًا فشيئًا.. وشعرت بالعطش العادي.. قادني إلى الينبوع.. أخذ الماء بكفيه يسكبه في فمي شيئًا فشيئًا.. احتسيته حتى نقعت غلتي تمامًا.. شعرت بمتعة نادرة تدب بأنحاء جسمي حينما تسربت الرطوبة إلى خلاياه الجافة.. وأخيرًا، قلت له: إنني قد ارتويت ثم ارتميت بعد ذلك على الأرض في إعياء شديد. حينها فقط رفع إبراهيم الخرقة المبللة إلى لسانه. انتحبت شديدًا نادمًا على كفران هذا الإيثار الأعظم.



38

قضينا في تلك الواحة ثلاثة أيام.. نشرب الماء هنيئًا مريئًا.. نقطف الرطب من النخل.. ننام ملء الجفون.. حتى نسينا كل الإعياء الذي عانينا منه. لكن رجليّ بقيتا على تورمهما ووجعهما. وكان إبراهيم في هذه الأيام الثلاثة يقوم بجولات تفقدية حول الواحة.. لا يعود إلا في المساء.. كان يبحث عن جواب لأسئلة.. هل يوجد هنا إنسان..؟ هل لنا إلى النجاة من سبيل..؟ أين تقع هذه الواحة التي وصلنا إليها..؟

منعني في اليوم الأول حين أبديت استعدادي لمرافقته.. وقال: «أنت زهرة سريعة الذبول في الصحراء.. لا تغادر الواحة إلا بعد أن أكتشف طريقًا آمنًا». ولم أكن أثق في عودته إلا إذا رأيته عائدًا خشية أن يضل طريقه أثناء جولاته.. إن لم يعد، فيعني ذلك أنني أصبحت وحيدًا في هذه الصحراء.. كلما تأخر عن العودة اضطرمت في داخلي نيران الخوف.. ولم أكن أطيق حتى أن أتصور نفسي وحيدًا.. وما كان بالي ليهدأ إلا إذا لاح رأسه من فوق هذا الكثيب أو ذاك.

وبعد ذهابه، كنت أتمشى في أنحاء الواحة. الواحات عادة تبلغ مساحتها عدة فدادين.. يتوفر فيها نظام بيئي يشمل مجموعة كبيرة من الحيوانات.. وعادةً ما يتخذ البدو وعابرو السبيل الواحات مأوى لهم.. لكن هذه الواحة ما كانت من ذلك القبيل.. كانت صغيرة إلى حد كبير حتى أود أن أصفها بأنها أصغر واحة في العالم..! مساحتها فدان واحد على الأكثر.. تشتمل على بركة صغيرة ومجموعة من النخيل وجنبات من أنواع الصبار مجهولة الاسم

بالإضافة إلى بعض الشجيرات.. تحيطها الصحراء الشاسعة.. واحة لن يعثر عليها أحد..! جنة من جنان الله المكنونة في الأرض يدخرها لمن يشاء من عباده! تساءلت من فرط السرور آلله قد خلقها من أجلنا؟.

عند ظهر اليوم الثالث، عاد إبراهيم فرحًا مغتبطًا كأنه عثر على بعض المعالم.. أسرعت إليه الخطى متسائلًا: «هل عثرت على شيء يدلنا على الطريق؟»

قال: «نعم، لسنا بعيدين عن شاطئ الحياة. لقد عثرت اليوم على ثلاثة أحجار في هذه البحار الرملية.. أحجار استخدمها ابن آدم.. لا بد أن أحدًا قد وصل هنا قبلنا وأوقد نارًا تحت هذه الأحجار ليطبخ طعامه. لا شك أنها إشارة مبشّرة.. »

وفي صباح اليوم التالي، خرجنا قاصدين تلك الأحجار. كنا نعرف أنه لا طائل تحت إطالة مكثنا هنا. قررنا أن نفوّض أمرنا إلى الله.. مشينا.. رأيت تلك الأحجار التي استوقفت إبراهيم أمس. كانت المنطقة تحوي القليل من الرمال الناعمة.. كانت أرضًا صلبة بعض الشيء.. قمنا بجولات تفقدية في المنطقة حتى تراءت لنا آثار خلفتها السيارات كشواهد على مرورها المتكرر.. أقوى دليل على وصول الإنسان إلى هنا.. ربما كانت المنطقة من تلك المناطق التي يقصدها سكان المدن للتنزه والترفيه. إن كان كذلك فإن هذه الآثار ستوصلنا بلا شك إلى بر الأمان! بُعثت الحياة في قلوبنا الميتة.. قامت على قوائم الرجاء مرة أخرى. تابعنا تلك الآثار في غاية الاهتمام واللهفة متوقعين وجود إنسان وراء كل كثيب أو منعطف نمر به.. لكنها قادتنا إلى المجاهيل عابرين الأراضي القاحلة المقفرة. وبالصدفة، اكتشفنا خطًا طُوليًا يعبر فوق كثيب كأنه خط على ظهر سنجاب! استطاعت عيناي التواقة اكتشافه ونحن فوق كثيب ناءٍ آخر. هرولت إلى هناك بخطى مسرعة. لقد تحقق ما كنت

أشك فيه. نعم، كان ذلك آثارًا رسمتها إطارات السيارات..! يا الله، رب السماوات والأرض، ماذا يعني هذا الخط..؟! أوَلا يدل على مجيء إنسان إلى هنا..؟ فلا شك أننا لسنا بعيدين عن مدينة أو قرية.. إننا ندنو شيئًا فشيئًا من درب مطروقة سلكها البشر .. ومن منطقة يقطن فيها الإنسان.. برق الأمل كفتيل ضئيل يضيء عوالم القنوط كثيفة الظلام..

قررنا أن نتتبع آثار الإطارات.. كنا على يقين تام من أنها ستقودنا إلى ملجإٍ آمن.

آمنت أنها ما كانت آثار إطارات سيارات الإنسان.. بل رسمتها لنا إطارات سيارات أرسلها القدر ليدلنا بها على طريق نجاتنا.. لك الشكر يا الله.. أشكرك عدد الرمال في الصحراء.. بل أكثر.. لكننا ظللنا خائفين.. إذا تنفست الريح نفَسًا خفيفًا، ستتبدّد طموحاتنا كلها.. لو تقلبت الريح في رقودها إلى جانبها الآخر فستمحو الآثار كلها حتى تتلاشى إلى الأبد.. لكن الله لا يزال معنا اليوم.. لن يدع الريح تتحرك ولو حركة طفيفة.. تناسينا كل الإعياء.. بدأنا نعدو.. ما كنت أبالي برجلي الموجعة التي كانت مجروحة منمّلة، ملتهبة، منتفخة. إنما يعنينا الآن أن ننهب الطريق قبل أن تستيقظ الريح.. وكلما تقدمنا، امتدت الطريق ملتوية إلى آفاق بعيدة.. استطالت معها أشواقنا..

لم نعلم كم عدونا هكذا متتبعين فتيل الرجاء الذي لا يخبو!.

أتذكر أنه كان قد قرب المغرب عندما توقفنا عن العدْو.. تيقنّا أننا غير بعيدين عن غايتنا.. ولكن الريح التي كانت هاجعة إلى الآن كجثة هامدة استيقظت للتو في أسوأ لحظات حياتي حظًّا.. أخذت تهب مزمجرة.. محت الآثار كلها.. ذهبت بها إلى أقاصي الصحراء.. توقفنا عن العدو متحيرين

أمام تلك الرياح. بعد قليل، هدأت الرياح تاركة لنا اللاشيء الذي يمتد أمامنا منبسطًا على مدى البصر.. أجهشت بالبكاء من شدة الكآبة.. رفعت بصري إلى السماء.. «هوّن علينا يا ربي، أرجوك أن ترحم حيرتنا، لم أعد أطيق هذا العذاب..».

انطرحت فوق أمواج الرمال ممدد الأطراف كبعض أنقاض سفينة محطمة غير مبالٍ بدعوات إبراهيم القادري الملحة لمواصلة السير.. ذرفت دموعًا غزيرة طوال ليلة أخرى.

***

39

في اليوم التالي، صحوت قبل طلوع الفجر على صوت غريب اختطفني من نومي.. أرهفت له مسمعيّ غير أنني لم أسمع بعده شيئًا.. ربما سمعت الصوت وأنا أحلم.. بقيت راقدًا مغمض العينين.. سمعت الصوت مرة أخرى.. قمت.. وكانت الصحراء تنام هادئة صافية بعد أن تجردت من ثياب غضبها.. يسمع الواحد منا بوضوح أخف صوت ينبعث من أقاصيها.. فإذا بي أسمع الصوت مرة أخرى.. ألقيت إليه بسمعي بأكمله.. صوت مميز لإطارات الشاحنات الثقيلة التي تسير بالطريق الرئيس البعيد.. يوم كنت في بلادي، كنت أسمعها مرارًا في بعض الليالي الصامتة. ولا شك أن هذا الصوت الذي يأتي حينًا ويتقطع حينًا آخر، منبعث من إطارات ناقلات أو مقطورات تسير في بعض الطرق البعيدة.

أمامي جبل غير صغير. وإن كنت على وعي صحيح أو لم يكن ذلك رؤيا كاذبة تراءت لقلبي المرهق، فلا بد أن هناك طريق رئيس يعبر وراء الجبل.. وهناك سيارات تسير عليه. انتفضت قائمًا من تلك الرقدة.. «إبراهيم.. إبراهيم..» صحت مناديًا عليه.. «لقد وصلنا.. نعم قد وصلنا أخيرًا» كاد قلبي يقفز من صدري من شدة الفرح.. هرعت إليه حيث رقد إبراهيم.. لكنني لم أجده هناك.. أدرت النظر في كل اتجاه غير أنني لم أعثر عليه..

«إبراهيم.. إبراهيم..» كررت النداء.. انطلقت أنادي عليه باحثًا عنه في المنطقة كلها.. لكن ندائي ذهب صيحة في واد.. «أين ذهب...؟ هل استغرق في النوم إلى هذا العمق..؟».

«إبراهيم...إبراهيم» لم أزل أحوم هنا وهناك وأنا أهتف باسمه. لكن هتافاتي تلاشت في طيات الصحراء اللانهائية.

أطلت أشعة الشمس الأولى تبدد طبقات الظلام من زاوية الأفق الشرقية.. تبينت الرمال والكثبان.. عدت أبحث عن إبراهيم القادري في كل مكان وقتًا طويلًا.. لكنه لم يكن هناك.. تسلقت كثيبًا وتلفتت حولي.. لم أعثر له على أثر.. بعد محاولات البحث التي استغرقت كثيرًا من الوقت، أرغمت نفسي أن أتأقلم مع الحقيقة المرعبة وهي أن إبراهيم القادري، مرشدي ومنقذي طوال هذه الرحلة قد اختفى نهائيًا من حياتي من غير أن يترك أثرًا يشير إلى أين ذهب! تملكتني الكآبة والوحدة كما لو كنت آخر إنسان بقي على وجه الأرض.. بكيت جاثيًا على الأرض «إلى أين ذهبت يا إبراهيم..؟ كيف استطعت أن تتركني هنا وحيدًا..؟ كنا معًا طوال هذه الأيام نتشاطر الأحزان والآلام فيما بيننا.. ها نحن الآن على وشك معانقة النجاة.. الطريق الرئيس لا يبعد عنا إلا مسيرة ساعة مشيًا على الأقدام.. لكن أين أنت..؟ أين اختفيت في الليلة البارحة..؟ ليتَك أخبرتني بذلك سابقًا.. أو ودّعتني قبل الرحيل..؟».

وعندما اشتد الحر قمت أمشي.. أحسست بثقل المشي في هذا اليوم أكثر من الأيام الماضية بمائة مرة.. كأنني لا أبرح مكاني مهما مشيت.. أو كأنني أمشي إلى الخلف. تجرّح قلبي من الوحدة بصورة لا يحيط بها تصور.. ولما قرب المساء، وصلت إلى الطريق الرئيس. ولم يكن طريقًا مزدحمًا بالسيارات.. ما سلكته السيارات إلا في ما ندر.. كانت أغلبها الناقلات والمقطورات.. أو تلك السيارات العادية التي نادرًا ما قطعته مسرعة كأنها تطير فوقه.. لم أزل واقفًا على حافة الطريق أرفع يدي لكل سيارة تمر.. لكنها تجاوزتني مسرعة إلى غاياتها ناشرة الظلام في آفاق الرجاء.. بعد كل سيارة تعبر، تمنيت أن التالية ستقف بجنبي ويأخذني من فيها.. لكن حظي لم يسعدني.. لم يرق لي قلب سائق أو لم يلهمه الله أن يوقف لي سيارته.. أقبلت ليلة أخرى لتتركني يتيمًا طريدًا..

40

أسفر الصبح.. استؤنف المرور الذي توقف في ساعات الليل الأخيرة.. أكثر السيارات العابرة ناقلات أومقطورات.. كدت أصل إلى وسط الطريق رافعًا يدي لكل سيارة مرت بي.. لكنها مثل الأمس أهملتني تمامًا.. سارت عني سريعًا.. ما استغربت ذلك.. لأن هيئتي كانت تنفّر الناس مني.. حياتي «المَشرَّدة» لمدة ثلاث سنوات وهيامي في الصحراء لأيام عديدة قد حوّلاني إلى حيوان بريّ لا يشبه الإنسان.. وكانت معاناتي من العطش والجوع تتفاقم في كل لحظة.. مضت ثلاثة أيام بعد ما غادرت الواحة.. لكنني لا أستطيع أن أضيّع الحياة بعد أن رأيتها نصب عيني.. أحسست بكراهية الذات.. أنا محروم من رحمة الله حتى في هذه اللحظات الحاسمة.. أي ذنب ارتكبته يستوجب هذا..؟ سألت الله باكيًا وأنا أضرب على صدري في يأس.. «يا الله، قد نبذتَ صديقيّ في الصحراء.. وأذنت للصحراء أن تختطف روح عبد الحكيم.. وتخبّئ إبراهيم في سراديبها.. بعد ذلك أوصلتَني إلى هنا.. ثم ماذا بعد..؟» يبقى السؤال في نفسي حائرًا بلا جواب. وكان الوقت يدنو من الضحى.. وما زالت السيارات تمر بي من وقت إلى آخر..

لاحظت سيارة فخمة جدًا قادمة من البعد بسرعة فائقة.. كنت أعلم جيدًا انه لا يفيدني أن أرفع يدي.. أنّى يكون لي أن أركب مثل هذه السيارة الفاخرة بينما تعبر أمامي حتى المقطورات وسائقوها يلقون عليّ بنظرات ساخرة..! لكن حينما اقتربت مني، رفعت يدي كما لو كان ذلك بدافع نفساني غريب.. عبرت أمامي كما توقعتها.. لكنها تقدمت قليلًا ثم توقفت تفرمل بصوت

عال.. اندهشت فعلًا.. تساءلت هل توقفت حقًا لإشارتي..؟ وقفت مترددًا قليلًا.. ثم أسرعت إليها.. كان فيها رجل عربي جميل في ثياب نظيفة جدًا.. فتح زجاج النافذة.. سألني شيئًا.. لم أكن أعلم ما أجيبه به.. بل ما كان عندي شيء أقوله له.. رجل عربي رقيق القلب.. كم من سيارة مرت بي منذ البارحة.. لم يفرمل لي أحد سيارته ليسألني: «ماذا تريد..؟ لماذا تقف هنا..؟ كيف وصلت هنا..؟» لكنك قد وضعت قدمك على المكبح فقط من أجلي.. يكفيني ذلك سرورًا..» انفجرت في البكاء بلا إرادة مني.. لم يسألني بعدها شيئًا.. فتح لي الباب الخلفي وألح عليّ في الركوب ثم سار سريعًا..

ترددت أن أجلس على راحتي في المقعد الوثير بتلك السيارة الفخمة وأنا بهذه القذارة.. بعد قليل، أغلق الرجل مكيف السيارة.. فتح زجاج النوافذ.. غطى أنفه بأصابعه.. كنت أعلم جيدًا أن سبب ذلك كله ليس سوى النتانة التي تنبعث مني.. كان باستطاعته أن يطردني اللحظة من سيارته.. لكنه لم يبد عليه أي علامة للاشمئزاز..

سألت ذلك الرجل العظيم شيئًا من الماء.. مد إليّ قارورة ماء.. عببتها في رشفة واحدة.. سألني هل أريد المزيد.. هززت رأسي.. أعطاني قارورة أخرى.. استنزفتها بسرعة.. بقيت على عطشي.. لكنني استحييت أن أسأله قارورة أخرى.. اتكأت على المقعد بهدوء.. انزلقت إلى نوم عميق من شدة الإعياء.. ولذلك، ما علمت كم استغرقت الرحلة من الوقت!. ولم أستيقظ إلا حينما وقفت السيارة في مدينة ما قُرْب المساء.. تلفتت حولي في دهشة.. عمارات كبيرة.. صخب الناس المحتشدين وازدحام السيارات.. تقدمت السيارة قليلًا.. ثم تنحت إلى جانب الطريق.. التفت إلىَّ العربي.. فهمت أنها إشارة للنزول.. كيف أعبّر عن إمتناني الشديد لهذا الرجل العظيم الذي صبر

على مرافقتي إلى الآن.. لم أملك في المقابل سوى دموعي المنهمرة.. لم أقل له شيئًا ولا هو سألني..

نزلت من السيارة.. أغلقت الباب من الخلف.. سارت السيارة مبتعدة بعد أن تركني وحيدًا وسط تلك المدينة.. كنت أبكي.. أدركت أننا ربما نلقى رحمة الله في سيارات الأثرياء أيضًا..

***



41

وقفت هناك قليلًا متحيرًا وسط تلك المدينة الغريبة.. لاحظت أن المارة كلهم يحملقون فيّ كأنني حيوان غريب.. أخذت أمشي على مهل ملتزمًا جانب الطريق.. كان ذلك سوقًا مُسرفةً في طولها وعرضها.. توزعت هنا وهناك أكوام من الخضار والفواكه.. يضج الجوّ برائحتها الطازجة.. يسير الرجال العرب مزدحمين كأنهم نهر جار.. بينهم نساؤهم عيونًا تطل من العبايات السوداء.. التجار الهنود.. صخب التجارة والضوضاء.. ها أنذا بين كل ذلك في هيئتي البدائية.. كلهم يحدق فيّ ويهرب مني خشية المساس.. لم أجد أي غضاضة في ذلك.. لأني صرت أميّز بنفسي تلك الرائحة التي انبعثت مني.

شعرت بجوع شديد.. لم أكن أملك شيئًا من المال لأشتري به طعامًا.. بعد سنوات كثيرة، أحسست بالحاجة إلى الفلوس.. لو كنت في «المَسَرَة» لحصلت على «كُبّوس» الأرباب مجانًا.. أو لاستطعت أن أسرق شيئًا من أعلاف الأغنام دون أن يراني أحد.. لكن في المدينة، لا بد من الفلوس للحصول على شيء آكله.. من ذا الذي يطعمني هنا مجانًا..؟ حاولت الدخول إلى مطعم أو مطعمين.. لعلهم يعطونني شيئًا كمتوسل.. لكن نهرني أصحابها ككلب أجرب نازلين إلى الشارع لمطاردتي..

استمررت أمشي في السوق مدفوعًا برجاء خفي.. مشيت طويلًا.. شعرت بدوخة تعتريني.. تقدمت قليلًا.. قرأت لوحة مطعم مكتوبًا عليها باللغة المالايالمية «مَلَبَارْ رَسْتُورَنْتْ».. أحسست بطمأنينة عظيمة.. هناك أحد

يتكلم بلغتي وسيفهمني إذا تحدثت إليه.. توجهت إليه عازمًا على لقاء أي عاقبة.. لم أكد أصل عند بابه حتى سقطت مغشيًا عليّ.

***

42

تجدون في كل مدينة من المدن الخليجية شجرة عظيمة تحب الجميع ويفزع إليها الجميع عند الشدائد ويعيش في ظلها مجموعة من الناس.. سقطت في ذلك اليوم فاقد الوعي أمام مطعم «كُنْجِيكّا»، الشجرة المجيرة للجاليات الكيرالية في مدينة البطحاء. انظروا كيف يشق الله تعالى سبيلًا حتى يوصلنا إلى رحمته.. حينما وصلت إلى تلك السوق الغريبة عليّ كل الغرابة، كان يمكن أن أتوجه إلى أيّ جهة.. أصل إلى أيّ مكان.. أسقط على الأرض حيثما اتفق.. لا يلتفت إليّ أحد وأنا على هذه الهيئة البدائية.. لكن الله قد قدر مسبقًا أن أصل أمام «كُنْجِيكّا».. انسقت في الطريق الذي شقه لي تعالى حتى وصلت أمام «مَلَبَارْ رَسْتَوْرَنْتْ» حيث سقطت مغشيًا عليّ.. أما ما بعده فقد كان الله قد ألهم «كُنْجِيكّا» لترتيبه كله.

لما فتحت عيني وجدتني في غرفة «كُنْجِيكّا».. قالوا هذا ثالث يوم بعد ما وصلت.. استرددت وعيي.. شعرت بألم شديد في رجلي وكل جسمي.. فوجئت بمحقنة موصولة بكفي.. شككت أنني راقد في إحدى المستشفيات..

بكيت حينما رأيت «الكيراليّين» الملتفين حولي.. أخذ «كُنْجِيكّا» بيدي يواسيني. وخلال هذه الأيام، أصبحت مضغة في أفواه أهل مدينة البطحاء.. يوم انتشر الخبر أنني فتحت عيني، أسرع إلى غرفتي كثير من الناس.. حاملين معهم الفواكه هدية لي.. التفاح والبرتقال والعنب والموز.. كان الكل متلهفًا لسماع قصتي.. كيف تحولتُ إلى هذا الهيئة الغريبة.. كيف وصلت إلى هنا.. كان هذا الفضول مرتسمًا على كل وجه.. غير أنهم لم يسألوني عن شيء.. إنما

سألني «كُنجيكّا» بهدوء عن ذلك كله فقط بعد مرور يومين آخرين، بعد أن جاء الطبيب يُعيد فحص ما بي ويزيل المحقنة الموصولة بكفي.

قلت «أحتاج إلى مرآة !»

«لماذا المرآة ؟» سألني «كُنجِيكّا» الذي كان يجلس بجنبي.

«أريد أن أرى نفسي» يحلق الآخرون في وجوه بعضهم بعضًا.

لقد وددت أن أرى وجهي وهيئتي التي يحملق فيها الجميع مستقذرين إياها.. أحضر لي أحدهم مرآة صغيرة. نظرت بعد عهد طويل إلى وجهي في المرآة راقدًا تلك الرقدة.. أمعنت النظر طويلًا.. حقًّا ما عرفتني.. والذي رأيته في المرآة كان رجلًا غريبًا تمامًا عني.. لقد قُص شعر رأسي حتى صار قصيرًا جدًّا.. جُزَّت لحيتي.. وليس الرجل الذي أراه في المرآة هو نجيب الذي خرج من بيته.. هذا رجل آخر..! رجل نحيل أسود غائر الخدين وبارز الأسنان.. ولو كنت في موقف آخر لما صدقت أحدًا يقول لي: أن هذا الشخص هو أنا.

سرد لي «كُنْجِيكّا» ما جرى لي بعد أن فقدت وعيي إذ أنه حملني إلى داخل المطعم من حيث سقطت بمعاونة عماله.. قدّم لي الماء والطعام.. ثم أرقدني في غرفته.. حمّمني ثلاثة أيام على التوالي بالتعاون مع جماعة من محبيه في سوق البطحاء.. أحضر لي مزيّنًا ليقص شعري ويحلق لحيتي.. وطبيبًا ليفحصني ويصف لي الدواء..

لم أملك سوى الدموع أمام كل ما قال.. لم أملك شيئًا غيرها لأبدي حبي لقاء حبهم الجارف.. وما كان يؤسفني إلا شيء واحد هو أنهم ما التقطوا صورتي قبل أن يزيلوا شعر رأسي ولحيتي.. ما رأيت نفسي أبدًا وأنا على تلك الصورة البدائية.. ولذلك لم يبق عندي لأعرض أمامكم كشاهد من بقايا

تلك الحياة سوى ذكرياتي.. حتى جوازي الذي يثبت وصولي إلى تلك الدولة كان محجوزًا عند الأرباب..

«ما تاريخ اليوم..؟» سألت لمن تجمهروا حولي.

«ثلاثة عشر».

«أي شهر هذا؟».

«أغسطس» قالوا والاستغراب بادٍ على وجوههم.

«أية سنة هذه؟» أثار سؤالي فضولهم.

«ألف وتسعمائة وخمس وتسعون»

«يا الله.. يا رب العالمين» وضعت يدي على صدري في تعجب. بدأت أعدّ السنوات في قلبي وعلى أصابعي..

«ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام..!».

كانوا مندهشين حينما سمعوا ذلك..

مضى يومان آخران.. قادني «كُنْجِيكَا» من غرفتي إلى غرفة مجاورة عندما وجدتني قادرًا على المشي على مهل.. كان هناك جهاز التليفون.. أجلسني أمامه.

«ألا تحب أن تتصل ببيتك..؟ ألا تحب أن تسمع صوت أمك وحبيبتك..؟».

وقد أبكاني سؤاله.. لم يوجد في بيتنا تليفون.. أعطيت له رقم جارنا.. تساءلت مستغربًا كيف بقي ذلك الرقم محفوظًا في ذاكرتي على أني لم أتصل به ولو مرة على مدى هذه السنوات الطويلة. (وكان من «مُومْبَاي» آخر مرة اتصلت به فيها).

قضى «كُنْجِيكَا» أمام التليفون كثيرًا من الوقت.. غير أن الخط إلى الوطن لم ينفتح بعد..

أخيرًا سمعنا الرنة في الطرف الآخر.. أعطاني السماعة.. اجتهدت كثيرًا أن أعرّف نفسي للجار.. حينما عرفني انقطع صوته قليلًا ثم سأل: «أين كنت يا نجيب طوال هذه السنوات..!؟».

ما كان عندي جواب لهم.. خمّنت الأقاويل والقصص التي عسى أن تُحاكى حولي في القرية..

وقال « اتصلْ بعد ربع ساعة.. سأنادي على زوجتك..».

أحسست بتلك الدقائق الخمسة عشرَ أطول من السنوات الثلاث التي قضيتها في «المَسَرَة».. انتظرت.. انتظرت بفارغ الصبر.. أخيرًا بدأ «كُنْجِيكَا» يكبس أزرار الأرقام على لوحة المفاتيح..

هذه المرة سمعنا الرنة بدون صراع مع الخط.. مد «كُنْجِيكَا» إليّ السماعة.. وما قلت «آلو» حتى سمعت صراخ زينب يتعالى في الطرف الآخر.. مضى وقت طويل قبل أن يتمكن أحد منا من التوقف عن البكاء.. لم تسألني أين كنت؟. ولِمَ لم تتصل حتى اليوم؟. كأنها استطاعت أن تعرف أحوالي من هناك.

بعد بكاء طويل قالت: «ولدُنا نبيل بدأ يذهب إلى الحضانة في هذه السنة. ألا تشتاق إلى رؤيته؟ متى ستعود..؟ حبيبي.. فارقتْنا أمك منذ سنة.. لا بد أن قلبها قد انفطر بانقطاع أخبارك عنا..».

لم أقوَ على سماع شيء بعد ذلك.. أرجعت السماعة وقلبي يتفطر.. غرست وجهي في كفيّ.. بكيت بكاءً شديدًا.. وكان «كُنْجِيكَا» يواسيني.

«يا نجيب، إنك صبرت على كل شيء حتى اليوم.. وكل شيء بيد الله الذي ليس لنا حق إلا أن نستسلم لقضائه وقدره».

قضيت في غرفة «كُنْجِيكَا» ما يقارب ثلاثة أشهر متمتعًا بحبه الرؤوم. التأمت جروحي في غضونها.. وانخفض تورم قدمي.. وعادت إليّ صحتي تمامًا. قصصت قصتي خلال تلك الأيام على «كُنْجِيكَا» وأحبابه في مناسبات مختلفة.. تلقاها كثير منهم كقصة مبالغ فيها.. فلم يصدقوها.. وقليل منهم من صدقها.. ولكنهم بقوا على شكهم في اختفاء إبراهيم القادري.. كانت شكوكهم مبررة.. لأني لا أملك تفسيرًا مقنعًا له.. أين اختفى في تلك الليلة بعد أن أوصلني إلى عتبة النجاة؟. كان منجدي ومنقذي في الصحراء.. نصرني الله به كما أرسل موسى عليه السلام ناصرًا لبني إسرائيل.. أنا أيضًا مثلكم، لم أُحِط بسره..

بينما كنت أتماثل للشفاء، التجأ إلى غرفة «كُنْجِيكَا» رجل يدعى عبد الحميد.. كان عاملًا في حديقة كفيله يتقاضى أجرًا زهيدًا مقابل مجهود قصم ظهره ليل نهار بالإضافة إلى اضطهادات متفننة.. لما لم يبق منزع في قوس صبره، اضطر للهروب. وكانت صحبته إيناسًا لي في وحدتي الشديدة التي شعرت بها في تلك الشقة خاصة بعد ما يخرج «كُنْجِيكَا» وعماله إلى المطعم.. وبمجيئه، امتلأت حياتي بالسرور..

بعد تفكير وتخطيط استغرقا أيامًا كثيرة، واستشارة عدة أشخاص، أخيرًا اتخذنا القرار أن نسلّم أنفسنا للشرطة بدون مزيد من التأخير.. وهكذا وصلنا إلى السجن..

***



43

تقدم الأرباب نحونا يتفحص وجوه السجناء المصطفين كلهم وجهًا وجهًا..! كلما خطا خطوة إلى الأمام تعالى صوت نبضات قلبي.. لم أقدر على تصور عودتي إلى «المَسَرَة».. أأذهب إليها مرة أخرى..؟! يا الله..! لا أطيق ذلك.. ارحمني يا الله.. كان قلبي ينتحب في هلع.. رغم ذلك، لم أسمح لنفسي بالصراخ كما فعل عبد الحميد.. تمسكت برباطة جأشي.. أحسست بأن ذلك الوقوف طال دهورًا.. أخيرًا، وصل الأرباب أمامي وهو يحدق في وجهي.. لمحتُ في عينيه صحراء تموج كالبحر.. أفزعتني ضراوتها.. لكنني لم أتزعزع.. ولا أبديت أدنى معرفة.. ما أظهرت ارتباكًا على وجهي.. إنما وقفت منتظرًا تلك اللحظة التي يجرّني فيها إلى الخارج.. لكنه ربت على كتفي.. ثم انصرف عني إلى من بعدي بعد أن أطال النظر في وجهي بمجامع عينيه.. كيف تغير قلب الأرباب الذي جاء ليقبض عليّ.. عجيب..! عجب عجاب..!! لاغير..

رجع الأرباب تاركًا في قلبي جمرًا يلتهب بالشك.. بعد انتهاء طابور الاستعراض، قلت للشرطي الذي كنت قد تصادقت معه: «الرجل الذي حضر اليوم كان أربابي بلا شك.. إنما تخلى عني بدافع من رحمة الله الواسعة التي تغمّدني بها». لكن الشرطي فاجأني بأن أجابنيّ قائلًا : «ليس الأمر كذلك، لأن أربابك كان يردد وهو ينصرف: لو كان الحمار على كفالتي لجرته جرًا إلى بوابة «المَسَرَة»...» تملكتني دهشة عظيمة.. ربما كان الأرباب كاذبًا حين قال ذلك ليستر به شعوره بالخضوع من إطلاق سراح عبده الذي

وقع في متناول يده.. أو ربما كان يكشف عن حقيقة مرعبة جدًا.. ماذا لو كان صادقًا فيما قال؟

ألم أكن على كفالته..؟ أهو فعلًا اختطفني من المطار بغير حق وأنا على كفالة شخص آخر..؟!! وإن كان كذلك، يا الله.. هل كنت ترسلني لتبتليني بقدر شخص آخر..؟

فيما بعد، أقسم النسيب «الكَرُواتي» مبررًا ذلك الشك.. قال: «ما أرسلت لكم فيزا راعي الغنم، إنما بعثت فيزا عامل في شركة إنشاء..» والله وحده يعلم من يقول الصدق ومن فعل الصواب.. لا أريد أن أتعب رأسي باجترار الأفكار حول ذلك.. إنما أطمئن الآن إلى فكرة أن قدري كان يجرّ تلك السنوات إلى حياتي.. وقد اجتزته بنجاح.. ولو فكرت أعمق من ذلك الحد ربما أصاب بالجنون فعلًا..

مرت علينا بعد ذلك ثلاثة أسابيع. قضيتها في جزع شديد.. لم أكن آمنًا من أن يحضر أربابي يومًا حاملًا معه وثائق مزيفة تعينه على أن يستعبدني مرة أخرى.. لكنه لم يحضر بعد ذلك قطُّ.. ربما حصل على شخص آخر.. رحم الله ذلك الرجل الذي لا حول له ولا قوة إلا به تبارك وتعالى..

وفي اليوم الذي تلا طابور الاستعراض، حضر موظفو السفارة كالعادة.. اصطففنا في الطابور.. نادوا الأسماء شخصًا شخصًا.. ظللت واقفًا شارد الفكر.. منقطع الرجاء.. خطر لي بالصدفة أنهم قد نادوا اسمي.. وقفت هنيهة مترددًا.. هل نادوا عليّ فعلًا..؟ أم شعرت بشعور خادع..؟ هل كان ذلك حقًّا اسمي..؟ ولكنهم أعادوا النداء مرة أخرى.. «نجيب محمد». سمعت اسمي هذه المرة بوضوح.. لا شك أنه إسمي.. تقدمت خطوتين بقلب مهتاج.. علت أصوات زملائي تعبيرًا عن سرورهم الفيّاض.. لأني كنت قد حظيت بـ «الأقدمية» بينهم..

وفي ذلك اليوم وفّق ثمانون مسجونًا هنديًا إلى «الخروج المجاني» إلى الوطن ضمن مشروع ترحيل المقيمين غير الشرعيين إلى بلدانهم الأصلية على حساب الحكومة. وبفضل ذلك تخلص «كُنْجيكّا» من تكلفة تذكرة سفري.. لكنني أعلم جيدًا أنه يتحمل ذلك على العينَ والرأس إذا اقتضى الأمر.. ألا وهو «كُنْجِيكّا»..!

انتهزت الفسحة القصيرة التي اقتنصتها بينما انشغل الموظفون بترتيب أوراق الترحيل.. ودّعت أصدقاء السجن كلهم.. حاولت أن أواسيهم جميعًا.. أتيت رجال الشرطة.. ودعتهم جميعًا..

وفي مكتب المسؤول، أمِرنا أن نوقّع على أوراق كثيرة، ثم وضِعت القيود في أيدينا.. أوقفونا في صفٍ في إحدى الزوايا.. ومع الظهر جاء الباص الذي نقلنا إلى المطار مباشرةً.. أُدخلنا داخل المطار من بوابة خاصة.. ولم أتمكن حتى من محاولة الاتصال بـ«كُنْجيكّا».. ربما بلغه الخبر فيما بعد عن طريق أحد ما.. وأظل آسفًا حتى الساعةَ أنني لم أستطع حتى أن أكافئه بكلمة شكر قبل الرحيل. يا «كُنْجيكّا»، إن اتفق أن تقرأ هذه السطور في بقعة من بقاع الأرض، أرجوك أن تَتكرم عليّ بالعفو عن هذا التقصير العظيم..

مع الليل تجهزت طائرتنا.. وزّع موظفو السفارة بطاقات الصعود.. ساقونا جميعًا إلى متن الطائرة.. خيّل إليّ حينها أن ثمانين نعجة تساق إلى «مَسَرَة».. مكبلة بالقيود.. كنت واحدًا منها.. الإنسان الماعز..!!

***

أيام الماعز

BENJAMIN

بين يديكم الكريمة الطبعة الثالثة من رواية "أيام الماعز".وهي النسخة العربية المنقولة عن نصها الأصلي المالايالامي "آدو جيفيتام" لكاتبه بينيامين. روائي موهوب من ولاية كيرالا الهندية.

لقد نالت هذه الرواية حظاً وافراً من القبول والاهتمام في الأوساط العامة والخاصة في الهند. فغدت أكثر ما قرئ من بين الروايات المالايالامية. واحتلت صدارة الكتب الأكثر مبيعاً في الهند حيث تجاوز عدد طبعاتها مائة وخمسين طبعة. حازت الرواية على جوائز مرموقة داخل الهند وخارجها كما وضعت في المقررات الدراسية في بعض الجامعات والمدارس الثانوية بالهند. حظيت الترجمة العربية أيضاً بالبروز في الأوساط العربية العامة والخاصة، خاصة بعد ما أشيع تصنيفها ضمن الكتب الممنوعة في بعض الدول ونشرت مقالات استعراضية ونقدية حولها في عدد من المجلات والصحف العربية الرائدة.

تروي الرواية قصة حقيقية لعامل هندي بسيط. باع كل ما يملك في وطنه وسافر إلى الرياض - السعودية بحثاً عن لقمة العيش لأسرته. غير أن حظه العاثر حدا به إلى مزرعة أغنام تقع في مجاهيل صحراء الربع الخالي، عاش فيها كالأغنام مجرداً من إنسانيته يرزح تحت قسوة رب عمل.

سهيل الوافي (المترجم)

978-1-78752-376-0



Tel.: +965 - 22256141 Mob.: +965 - 51000197
info@aafaqpublishing.com www.aafaqpublishing.com

آفاق للنشر
AAFAQ